مجنون الإسكندرية

إسلام محروس

مجنون الإسكندرية

إسلام محروس

الطبعة الأولى ، ٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع

١٠ شارع عبد الهادى الطحان ، المرج الغربية

موبايل :٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

إسلام جاويش

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢٨٦٢

I.S.B.N: ٩٨٧-٩٧٧-٤٨٨-٠٨٤-١

مجنون الإسكندرية

إسلام محروس

قصص

الطبعة الأولى

٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع

الشك دفعنى للعلم

والعلم هدانى للتاريخ

والتاريخ أغرانى بالفن

ولطمة من يد حبيبتى جعلتنى فنانا بحق

وكم أنا منتشى بهذه الموجات والصدمات

إستقبلتها جميعا بصدر رحب وعين دامعة لامعة

إسلام محروس

تنويه بسيط

إذا كانت الأعمال الأدبية تؤرّخ حقا تبعا للأحداث السياسية والحركات الإجتماعية وثورات الشعوب .. فأنا قد كتبت هذه المجموعة القصصية من الألف إلى الياء قبل أحداث ٢٥ يناير ٢٠١١ بما يقرب من عام كامل.

إسلام محروس

إهداء

أهدى مجموعتى القصصية هذه إلى أحق الناس بها ، شكرا لها وإعترافا بجميلها وفضلها ، أهديها إلى البطلة الحقيقية لقصة حدوتة ، تلك التى أثارتنى بالرفض وألهمتنى بالحرمان وألهبتنى بكلمة لا .. وأشعلت بداخلى فتيل النار المقدسة وتركتنى أواجه لهيبها وحدى ، ولطمتنى على خدى الأيمن فصاغتنى فى قالب جديد .. وأدرت لها الأيسر علها ترحم ولكنها لطمتنى مرة ثانية وثالثة وأكثر .. آذتنى وآلمتنى وأوجعتنى .. وبدلا من أن أرد لها اللطمة على ديدن العشاق الموتورين .. فإننى هرولت للورقة والقلم لتسجيل ماحدث على طريقة الشعراء الرومانسيين .. فأمثالى لم يخلقوا لينعموا بلذة التجربة ونسيانها بعد ذلك وإنما خلقوا لتذوق مرارتها وإرتشاف سمّها لآخر قطرة ثم لتسجيلها فيما بعد فى صورة فن يبقى ويدوم ويطاول الأيام على قدر بقاء الحزن والألم فى القلوب والصدور

أشكرك يا جميلتى .. فقد أصبحت بفضلك ساحرا أجعل من الألم كلمات .. وأخلق من الحزن شخصيات .. وأغزل من الفن ألوان

أشكرك

إسلام محروس أو مجنون الإسكندرية

لافرق

ياخسارة الخمسين جنيه

ذهبت إلى مترل صديقى حازم بحى سموحة .. وكانت من عادتنا أنا وبقية الأصدقاء أن نلتقى ليلة كل خميس فى مترله نجتمع عنده فى بلكونة المترل الرحبة العريضة تلك التى يسمّيها البعض " فراندة " .. قد غطيت أرضها بمفارش بسيطة مزخرفة ومنمّقة .. وأحيانا بجلود الحيوانات .. إستقرت فوقها شلت مريحة للجلوس وتدلى من سقفها ديكورات خشبية متداخلة ومفرّغة " عاشق ومعشوق " ويتخللها بعض النباتات الخضراء المتسلقة التى كست السقف والجدران باللون الأخضر وإنحصرت عن بعض أجزاءه .. وإستقرت فى الأركان إضاءات خافتة شاحبة تناسب هذا المناخ من الألفة والإنسجام مع شيء يسير من الأنغام الموسيقية الهادئة التى تهبط علينا من السمّاعات المثبتة فى أعلى الأعمدة والتى تشكل خلفية فنية لا غنى عنها لإكتمال جمال وروعة تلك اللقاءات مما يزيد المكان سحرا وعذوبة، فنشعر وكأننا جالسين داخل ركن شرقى فى بيت من بيوت القاهرة القديمة أو كأننا داخل خيمة فى صحراء بادية العرب.

ولا تخلو جلستنا تلك من ألوان كرم الضيافة التى تطرفنا بها أسرة صديقى حازم .. وقد إعتدنا جميعا على تلك اللقاءات حتى أصبح السلو عنها أو التكاسل عن حضورها من الأمور العسيرة على نفوسنا وإعتاد علينا أيضا أهل البيت حتى صارت سهرة الخميس تلك بمرور الوقت وكأنها سمة من سمات البيت الأساسية وأحداثه المألوفة .

وصلت إلى البيت فى حوالى الثامنة مساءا ، فرحّب بى حازم ورحّب بى أهل البيت ، وسرت خلف حازم حتى بلغنا غرفة الإجتماعات أو الفراندة .. فوجدت الأصدقاء مجتمعون برمتهم لم يتخلف منهم أحد أو كما يقولون " بربطة المعلم " وقد إستقر كلا منهم فوق شلتته فأقرأت الجميع السلام ثم ألقيت لنفسى شلتة أنا الآخر وجلست بينهم .. وأخذنا نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث وسرعان ما طافت علينا ألوان من القرى، متمثلة تارة فى أكواب الشاى الذى يأتى ساخنا فنمسكه بأيدينا المرتعشة المرتجفة من فعل الطقس الشتوى وبرودة الجو فنشعر بتلك القشعريرة اللذيذة المستحبّة الناتجة عن ملامسة المشروب الدافئ لأجسامنا الباردة فسرعان ما ينتقل ذلك الدفء إلى قلوبنا أيضا هذا فضلا عن سلة الفواكه التى لا تفتأ أيدينا تمتد إليها لتقتطف ما بداخلها .. فسرعان ما تفرغ وسرعان ما تمتلأ بألوان من فاكهة الموسم .. فيدفأ الجو بيننا أكثر وأكثر .. ويطيب الحديث.

ولم تمضى ساعة على جلستنا تلك حتى أقبلت علينا سلمى أخت حازم الكبرى .. وهى تكبرنا بسنتان .. إخترقت مجلسنا بعد أن ألقت التحية على الجميع ، وألقت لنفسها شلتة وجلست بيننا بلا كلفة وكأنها أحد أصدقائنا .. وهى كانت هكذا بالفعل .. فلم نكن فى نظرها مجرد أصدقاء أخيها الأصغر وإنما كانت تعتبرنا أيضا بمثابة أصدقاء لها بشكل شخصى وكثيرا ما شاركتنا فى جلساتنا تلك .. ولم تكن تجد حرج فى مداعبة هذا بثقيل تهكمها وإيذاء هذا بغليظ سخريتها التى لا ينجو منها أحدا منا ، وأحيانا كنا نناوشها عن قرب للإيقاع بأحدنا ليصير فريسة تصب عليها ما تشاء من فنون السخرية اللاذعة وألوان التهكم ما ظهر منها وما بطن، وكنا نعتبرها نحن أيضا بمثابة صديقة أكبر لنا فضلا عن كونها أخت صديقنا حازم.

وبدأت حديثها قائلة وهى تبتسم فى حذر ،،، سمعتم آخر نكتة يا جماعة ؟؟

فقلت لها وأنا أبتسم إبتسامة عريضة لا تخلو من معنى ،،، لو عن الجن و العفاريت مش عايزين نسمعها يا سلمى

فتلفتت حولها فى حذر وبنظرات مستعطفة وكأنها تعتذر لكائنات غير مرئية .. أو كأنها تقول لهم ،،، سامحوه أصله ما يعرفش

فقد كانت صديقتنا تلك من أولئك الذين يعتقدون فى أمور الجن

والعفاريت وشئون السحر والشعوذة .. ولكنها لم تكن معتدلة فى إعتقادها لتلك الأمور كشأن كثير من الناس ، وإنما كانت متطرفة غاية التطرف بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى ...

فهى تنظر إلى الحياة من خلال قعر فنجان القهوة وورق اللعب " الكوتشينة " وكروت التاروت .. وتحدد علاقتها مع الناس من حيث الإقتراب والإبتعاد .. والإقبال والنفورعلى أساس الأبراج الفلكية .. هذا متوافق مع برجى وهذا متنافر معه .. هذا مائى أو نارى وذاك لا أدرى هوائى أو ترابى، تستيقظ من نومها وقبل أن تقول "صباح الخير" تمسك بالجريدة الصباحية لقراءة طالعها فى "حظك اليوم " وعلى أساس هذا تتحرك وتحرّك أحداث يومها .. فإذا كانت ذاهبة إلى مشوار معين لإنجاز شىء هام وأخبرها طالعها فى هذا اليوم مثلا " فشل يصيبك اليوم فى بعض شئونك الخاصة " فإنها تقوم على الفور بإرجاء هذا المشوار مهما بلغت أهمية وخطورة الأمر الذى كانت تنوى إنجازه ..

وأظنها لو جاءت فى عصر غير عصرنا هذا لتخيلتها كاهنة من كهنة العصور القديمة الذين يستقسمون بالأزلام ويزجرون الطير فيتفائلون ويتطيّرون ويشعلون البخور ويزيدونه توهجا بما يلقون عليه من سجع الكهان ، ولها فى هذا الإطار نوادر وطرائف لا آخر لها نقول منها على سبيل المثال لا الحصر، إنها فى يوم من الأيام إستيقظت من نومها متعبة ومرهقة من طول السهر والمجهود الذى

بذلته فى سبيل المذاكرة والمراجعة فقد كان اليوم هو آخر إمتحان فى الفصل الدراسى الثانى فى السنة النهائية لها بالجامعة ، ومدت يدها إلى الجريدة الصباحية وهى تتناول فطورها الخفيف وكانت قد إرتدت ملابسها تأهبا للذهاب إلى الجامعة، وفجأة وبدون أى مقدمات أو سابق إنذار تسقط الجريدة من يدها وتتوقف اللقمة فى حلقها وترتجف أوصالها وترتعش أطرافها وتحملق عيناها ، ويقول من رآها على هيئتها تلك إن منظرها كان يدعو إلى الضحك والدعابة أكثر من دعائه للخوف والقلق وسألها مَن حولها وهم أدرى الناس بعادتها ،، مالك يا سلمى ؟

فلم تجبهم بشىء وإنما ظلت على وضعها هذا محملقة تائهة وذاهلة عن كل شىء ، فأعادوا عليها السؤال كرة أخرى مالك ياسلمى فى إيه ؟؟ فى حاجة فى الجرنان حصلت ؟؟ فى زلزال فى البلد الله لا يقدر ؟ كارثة ربنا يستر ؟ حد فى صفحة الوفيات نعرفه ربنا يلطف ؟ فى تعديل وزارى ربنا يسهل ؟ وفى كل هذا كانت تجيب بالنفى ليس بلسانها وإنما بإشارة من رأسها فقالوا لها بعد أن سأموا من صمتها هذا وبدأوا يأخذون الأمر مأخذ الجد وبدأت قلوبهم تغوص فى أعماقهم من فرط الخوف والقلق ،،، قولى بقى يا سلمى فى إيه ؟

فقالت لهم وقد بدأت تفيق لنفسها بعض الشىء وإن كانت لا تزال محملقة وذاهلة ،،، أنا مش نازلة من البيت النهارده

فقالوا لها وقد كست الدهشة وجوههم ،،، إزاى بقى يا سلمى وإنتى عندك إمتحان النهارده كمان ساعة !

فقالت لهم وهى لا تزال تائهة ومحملقة فى اللا شىء ،،، مش هروح الإمتحان

فقالت لها والدتها مستفهمة ،،، هم لغوا الإمتحان يا سلمى يا بنتى .. مكتوب كده عندك فى الجرنان ؟؟

فأجابتها وهى لا تزال سارحة وشاردة فى هذا اللا شىء ،،، آه.. حاجة زى كده

فتدخل حازم وهو يقول لها مندهشا مستنكرا ،،، إمتحان إيه إللى لغوه !! وهو الإمتحان لو إتلغى هيجيبوا خبره فى الجرنان وفى نفس اليوم كمان .. إيه الكلام الفارغ ده !

فقالت له والدته تعليقا على كلامه ،، أيوة والله يا حازم يا إبنى عندك حق .. كلام ما يدخلش العقل أبدا .. ثم قالت موجهة الحديث إلى إبنتها ،، متفهّمينا الحكاية بقى يا سلمى ؟ قلبى وَجعنى يا بنتى

فتناولت سلمى الجريدة الصباحية التى كانت قد سقطت منها على أرض الغرفة ومدت يدها بها إلى حازم وقالت له فى نبرة جادة حزينة والدموع تملأ عينيها ،، خد إقرا بنفسك

فتناول حازم الجريدة وهو لا يدرى ماذا يقرأ .. ونظر فى الجريدة

وظل يقلبها بين يديه فى حيرة ثم سأل أخته ،،، أقرا إيه يا سلمى ؟

فقالت له بنفس النبرة الحزينة دون أن تنظر إلى وجهه ،،، إقرا حظك اليوم

فقال لها حازم ضائقا بها وبإسلوب تفكيرها دون أن يلقى بالا إلى الجريدة ،،، يا سلمى كام مرة أقول لك سيبك من الكلام الفارغ ده

فقالت له بلهجة عصبية صارخة وهى تكاد تبكى ،،، بقولك إقرا حظك اليوم .. وشوف البرج بتاعى

فتراجع حازم إلى الوراء وقلّب النظر بسرعة خاطفة فى الجريدة وتجنّب إثارتها وهى على تلك الحالة الجنونية .. ونظر توا إلى حظك اليوم برج الدلو فوجده يقول " إحترس * اليوم عاصف * قم بتأجيل كل مشروعاتك اليوم " ..

فقال لها وهو يحاول تجنّب إثارتها قدر المستطاع ،،، أيوة يا سلمى .. قريت

فقالت له ،،، ها ..فهمت ؟

فقال لها ،،، الحقيقة .. لأ .. مفهمتش حاجة .. مال المكتوب هنا ومال الإمتحان !! .. إنتى مش ناوية تعقلى بقى يا سلمى ؟؟

فقالت له بلهجة عنيفة ونبرة مخيفة ،،، إنت شكلك كده مبتعرفش تقرا .. بيقولك اليوم عاصف .. إنت إيه ! مبتفهمش

عربى !

فنظر حازم إلى والدته علها تكون فهمت شىء مما يحدث فوجد فمها شبه مفتوح من فرط الذهول .. ثم نظر إلى النافذة وأعاد النظر إلى أخته وقال لها بلهجة المستغرب المندهش ،،، بالعكس يا سلمى .. ده الجو النهارده كويس أوى .. السما صافية والشمس طالعة

فقالت له بنفس اللهجة العصبية والنبرة المخيفة ،،، يا جاهل هو ما يقصدش الجو بمعنى الطقس .. إنما هو يقصد الأحداث إللى متوقع إنها تحصل على مدار اليوم .. ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها ،، كلمة إحترس وكلمة عاصف وكلمة أجل مشاريعك .. يعنى فى مصيبة هتحصل مفيش كلام .. مين يعرف ؟؟ .. يمكن عربية تلبهفنى

فيمس حازم لنفسه بصوت خافت ونبرة راجية ،،، ياريت

فقالت له بلهجة سريعة ،،، إنت قلت حاجة ؟؟

فقال لها متلجلجا وقد إنتبه إلى نفسه ،،، لأ .. أبدا يا سلمى أنا بس بفكر معاكى

ثم عادت تقول لنفسها بصوت مسموع ،،، أو أقع من على السلم .. أو تحصل لى حاجة فى الجامعة .. أنا عارفة بقى ما هى البلاوى كتيرة .. لالالا .. أبدا .. أنا مش نازلة النهارده من البيت مهما حصل

فقالا لها كلا من حازم ووالدته فى نفس واحد ،،، طيّب والإمتحان ؟؟

فقالت لهم ،،، مش مهم

فعادوا يقولون لها ،،، يا سلمى إعقلى

فقالت لهم ،،، مش ممكن .. مفيش فايدة من المحاولة

فعادوا يقولون لها بنبرة متوسله ولهجة مستعطفة وعيون دامعة باكية ،،، يهديكى .. يرضيكى

وهى ،،، أبدا

وضاع عليها الإمتحان وعليه العوض وإضطرت إلى دخول هذا الإمتحان فى إمتحانات الدور الثانى .. ونوادرها فى هذه الأمور لا حصر لها .. وكثيرا ما نتندر بها وبمواقفها وبمعتقداتها تلك كلما جمعنا المجلس بها فى لقاءات ليالى الخميس.

القصد .. نعود لحديثنا الأول، فبعد أن عرضت علينا سلمى سماع آخر النكت وقلت لها ما قلت .. قالت لى وهى ضائقة بتعريضى بها وبمعتقداتها وكنت أكثر أصدقائها تندرا بها فى هذا الأمر ،،، ما بلاش تقول كلام إنت مش قده .. أنا عايزة مصلحتك

فنظرت إليها وأنا أبتسم إبتسامة عريضة ثم قلت لها ،، طيّب قولى يا سلمى

قالت وهى تبتسم بحرص ،، بيقول لك فى مرة إتنين عرسان

جداً في شهر العسل كل يوم العريس يدخل البيت يلاقى أكل على السفرة أشكال وألوان ومراته أصلا مبتعرفش تطبخ بس هو ميعرفش .. يقوم ياكل من سُكات وهو فى سره بيشكر فى مراته ويقول طباخة ممتازة .. وفى مرة قال لها ،، ياريت يا حبيبتى تعملى لى النهارده المكرونة بالباشيميل إللى عملتيها لى أول إمبارح ، فنظرت إليه وهى تظنه يمزح معها وقالت له ،،أنا معملتش حاجة .. فقال لها وهو يبتسم ويظنها تعبث به هى الأخرى .. إزاى بقى يا حبيبتى وأنا كنت هاكل صوابعى وراها ! فقالت له وهى مندهشة ولا تكاد تصدق .. بقول لك أنا معملتش حاجة .. المهم من هنا لهنا عرفوا إن البيت مسكون والعفاريت يسمعوا الراجل يحب ياكل إيه ويعملوه .. فاكرين نفسهم أصحاب البيت ، وفى مرة إتفق الراجل مع مراته إن هم يسيبوا البيت ده ويروحوا يعيشوا فى بيتهم التانى فى حلوان وإتفقوا خلاص على كده .. تانى يوم قاموا لقوا البيت مفيهوش ولا حتة عفش .. يا نهار إسود .. إتسرقنا .. يدوّروا هنا وهنا ملقيوش حاجة، يبصوا من البلكونة يلاقوا عربية نقل كبيرة عليها العفش كله وفوقيها العفاريت بيطبلوا ويزمّروا وعمّالين يقولوا .. هيه .. هيه رايحين حلوان .. رايحين حلوان

وما أن إنتهت سلمى من إلقائها للنكتة حتى ضج الحاضرين بالضحك .. وظلت موجات الضحك كلما هدأت يثيرها مرة أخرى ضحك أحدهم فيعودون تارة أخرى إلى الضحك والإسترسال فيه، وأكثر ما أضحكنا ليس موضوع النكتة فحسب وإنما أيضا طريقة سلمى فى إلقائها، فهى تتلوها فى حذر وتتلفت حولها بين الحين والآخر بنظرات مستعطفة متملقة وكأنها فى كل

لحظة تعتذر لتلك الكائنات غير المرئية.

ومال صديقى عمر على أذنى وكان مجاور لى فى جلستنا تلك وقال لى وهو يبتسم ،،، مادام سلمى سهرانة معانا الليلة دى هيبقى الكلام كله عن الجن والعفاريت

وتنبّهت سلمى لهذا الحديث الجانبى فرمقتنا بنظرة نافذة وقالت لنا وهى تصر على أسنانها ،،، إنتوا بتقولوا إيه ؟

فقال لها عمر وهو يكتم ضحكه ،،، أبدا يا سلمى .. ولا حاجة .. كل خير

فقالت له وهى تنظر إلىّ بغيظ مكتوم ،،، هو ما دام فيها إسلام الخير هييجى منين !

فقلت لها وأنا أبتسم ،،، ليه كده بس .. ما هو أنا قاعد ساكت أهه

فقالت لى وهى تبتسم وترفع يديها بالدعاء ،،، يا رب دايما

ثم قلت لها وأنا ابتسم ،،، وإيه بقى آخر أخبار الجن والعفاريت على حسّك يا سلمى ؟

فقالت لى وهى تنظر إلىّ نظرة تهديد ووعيد ،، خليك كده هزر وإتمسخر بيهم لغاية ما هتشوف منهم يوم إسود

فقلت لها بحركة تمثيلية وأنا أتكلف الذعر ،،، ليه كده بس ياساتر يارب .. ثم قلت لها مستدركا وكان لى مدة من الزمن لم

أفتح معها هذا الموضوع وأناقشها فى معتقداتها تلك ،،، لأ بجد يا سلمى إنتى بتعتقدى فى الكلام ده ؟

فقالت لى ،،، أى كلام ؟

قلت لها موضّحا ،،، مسألة الجن والعفاريت ومعرفة الغيب عن طريق الكروت وفنجان القهوة والأعمال والعكوسات والأبراج وغيره

فقالت لى مقاطعة ،،، حيلك يا سيدنا .. إنت مالك دخّلت الدنيا فى بعضها كده ليه !! هى إيه ! سمك ، لبن ، تمر هندى

فقلت لها ،،، تقصدى إيه ؟

فقالت لى بلهجة العالم الواثق من كلامه وأفكاره ،،، ده علم يا أستاذ وله أصوله وأساتذته وعلمائه ومعاهده وجامعاته

قلت لها بلهجة غيرعابئة بشىء ،،، الحقيقة أنا مش متعمّق أوى فى الأمور دى .. بس هى كلها فى نظرى كلام فارغ وغير معقول

فقال لى صديقى أدهم أحد المشاركين لنا فى جلساتنا تلك ،،، لأ .. حاسب يا إسلام فى حاجات حقيقية طبعا

قلت له ،،، زى إيه ؟

قال لى ،،، إنت مؤمن طبعا بوجود كائنات غير مرئية فى الكون إللى إحنا عايشين فيه ده ؟

قلت له مؤكدا ،،، طبعا مؤمن بوجود الملائكة والشياطين والجن والعفاريت .. وكلها كائنات غير مرئية ومؤمن كمان بوجود الذرة والبكتيريا والميكروب وغيره .. وغيره

فقال لى ،،، خلينا فى الشياطين والجن والعفاريت

قلت له ،،، ماشى .. خلينا فى دول دلوقتى

قال لى ،،، إنت متخيل طبيعة العلاقة بينا وبينهم إزاى ؟

قلت له ،،، والله يا أدهم أنا عارف إنهم موجودين ولكن أنا غير مهتم بوجودهم .. مادام شيء لا هيضّرنى ولا هينفعنى يبقى وجوده بالنسبة لى زى عدمه

فقال لى مستفهما ،،، إزاى بقى ؟

قلت له ،، شوف يا سيدى .. أنا فى الحقيقة بفهم المسائل دى عن طريق تحكيم العقل والبديهة فى فهم كلام الله المترل فى الكتاب المقدس، ربنا سبحانه وتعالى قال لنا إن فى كائنات غير مرئية هتعيش معاكوا فى نفس الكوكب .. جن وشياطين وعفاريت وغيره .. آمنا وصدقنا ، ربنا قال لنا " يرونكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم " فبالتالى ما نتعبش نفسنا علشان نشوفهم ، دى حاجة ، وحاجة تانية كمان ربنا قال لنا .. إن كيد الشيطان ضعيف وكمان هو مالوش سلطان علينا فبالتالى مفيش خوف منهم أبدا .. وكمان مبيعرفوش الغيب بدليل إن سيدنا سليمان عليه السلام لّما خلاهم يشتغلوا عنده

بأمر الله مسخرين زى العبيد، وبعدين سيدنا سليمان قعد قدامهم وساند على عصايته ومات عليها ، مَعرفوش إنه مات لحد ما جت حشرة حقيرة أكلت عصايته من تحت ، فوقع سيدنا سليمان على الأرض فعرفوا ساعتها بس إنه مات .. وعرفوا كمان إنهم لو كانوا يعرفوا الغيب ما كانوش فضلوا أسرى فى العذاب المهين.

فقالت لى سلمى مستفهمة ،،، إنت عاوز تقول إيه ؟

فقلت لها موضحا ،،، أنا عايز أقول إنهم فى الواقع كم مهمل فى الكون .. عمرى ما هاقدر أشوفهم .. ولا عمرهم ما يقدروا يضرونى بشىء .. ولا حتى يقدروا ينفعونى لأنهم ميعرفوش الغيب .. فبالتالى يبقى وجودهم زى عدمهم

فقال لى حازم ،،، بس حقيقى يا إسلام فى حاجات بتحصل مش مفهومة

قلت له ،،، زى إيه ؟

قال لى ،، يعنى مثلا سمعنا عن علاقة إنسان بجن أو بشيطان علاقات سعاية وخدمات ومساعدات وعلاقات حلول وإتحاد وعلاقات تسخير، وكمان علاقات زواج وسمعنا عن الأذى إللى حصل لإنسان بسبب الجن، وسمعنا عن معرفة الغيب وإللى هيحصل فى المستقبل عن طريق التسخير ده .. وكلها أمور غريبة ومالهاش تفسير واضح

قلت له ،،، شوف ياحازم .. فى كائنات غير مرئية فى الكون ده ولكن لها دور ولها أهمية .. فمثلا الذرة بنحصل منها عن طريق الإنشطار على طاقة هايلة وعملاقة لها أغراضها السلمية وغير السلمية، والميكروب والبكتيريا بنتقى شرهم بالوقاية من أضرارهم وبنستخدمهم فى إنتاج مضادات وعلاجات و عقاقير وخلافه أهى دى مثلا كائنات غير مرئية لكن لها دور، سواء كان دور سلبى أو إيجابى لازم يكون فى حسابنا سواء لدفع ضرر أو لجلب منفعة ، لكن الكائنات التانية لا فى ضرر متوقع منهم أتقيه ولا فيه منفعة يهمنى أحصل عليها منهم يبقى زى ما قلت لك .. كم مهمل .. أنا مؤمن بوجودهم ومؤمن بإمكانية قيام علاقة بينا وبينهم ولكن العلاقة دى مش إجبارية .. الإنسان الجاهل بس هو إللى بيسعى للعلاقة دى وهو متخيل إنه هيستفاد، أنا فى الحقيقة مؤمن بإرادة واحدة فى الكون ده كله هى إرادة الله سبحانه وتعالى ومؤمن كمان بإن أرقى كائن فى الوجود ده هو الإنسان الحقيقة أنا مش شايف مخلوق أقوى أو أعظم أو أفضل منه أبدا، فمثلا أنا ممكن دلوقتى أقف فى أى مكان وأصرخ بأعلى صوتى وأقول .. " إن الإنسان هو أعظم وأفضل وأقوى وأرقى المخلوقات فى الكون ده كله " تفتكروا إن فى حد ممكن يرد عليّا أو يقول لى تلت التلاتة كام أو يناقشنى فى المسألة دى ؟؟ دى قضية مسلم بيها يا أساتذة.

فقال لى أدهم ،،، طيّب .. وحكاية الأعمال والعكوسات والسحر والمسائل دى .. إنت بتفهمها إزاى ؟

فقلت له ،،، الحقيقة يا أدهم أنا مش بحاول أنفى الكلام ده ومش بحاول أثبته لكن خلينا نناقش الموضوع ببساطة وبشكل

موضوعى ونفكر فى كل الإحتمالات .. ونسأل نفسنا .. إيه هو العمل ده ؟ هتقولوا هو شوية حاجات يحطها الساحر الشرير على بعض .. تراب على ورق مكتوب عليه تخاريف على هباب أزرق وغيره .. طيب وبعدين ؟؟ يخبيهم فى بطن الأرض أو فوق جبل أو فى بطن ميت مش مهم، لكن المهم هو السؤال ده ، الحاجة دى ليها إرادة فاعلة بذاهّا ولاّ.. لأ ؟ طبعا الإجابة لأ .. أمّال إيه بقى الحكاية !! هتقولوا إن المسئول عن ده العفاريت والجن وغيره إللى الراجل الشرير ده عامل معاهم عقد وإتفاق هم بيتدخلوا فى تنفيذ الأعمال دى بقوهّم الفذة وقدراهّم الخارقة وأجسامهم الإنسيابية المختلفة عن طبيعة الإنسان .. ماشى موافق .. أهلا وسهلا .. هل أفعالهم دى فى إطار إرادة الله سبحانه وتعالى ولا خارج الإطار ده ؟ طبعا الإجابة إن أفعالهم دى مقدرة فى إطار الإرادة الإلهية والمشيئة الربانية ، إذن ممكن وبمنتهى البساطة تجاهل كل الأعمال دى ولا كأنها إتعملت .. ولا كأنها إستخبّت .. ما دام هى أمور مقدرة علىّ بأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى.

فقال لى عمر ،،، طيب وليه نتجاهلها وإحنا ممكن نتقيها ونحمى نفسنا منها ؟؟

فقلت له ،، يا سيدى الفاضل إنت تاعب نفسك ليه ؟ خايف من العمل إللى معمول، ده يخلى الراجل مش طايق مراته .. والراجل ده بعيد عن السامعين مربوط ومش عارف ياخد ويدّى مع جماعته .. والبنت دى معمولها عمل متتجوزش والست دى معمولها عمل متحبلش .. كلام فاضى وتخريف ، تفتكروا إن ربنا سبحانه وتعالى سايب الكون إللى خلقه لعبة فى إيد العفاريت والمساخيط ،

إنتوا ليه عاملين حساب ضرر ممكن يقع من كائنات غير مرئية رغم إن فى آلاف الأضرار إللى بتحصل من ناس موجودين قدّام حضراتكم ليل ونهار، ياناس إعقلوا بقى الكون ده كله فيه واحد بس هو إللى بينفع وواحد بس هو إللى بيضر وواحد بس هو إللى بيعمل كل حاجة هو الله جل شأنه ، إذن .. وبمنتهى البساطة والعقل والهدوء نتجاهل كل التخاريف دى ونركز إنتباهنا فى إرادة واحدة وحكمة واحدة وفاعل واحد هو الله جل شأنه .. فأنا مثلا عندى القدرة والجرأة إن أنا أقف قدّام كل سحرة ومشعوذى العالم وأتحداهم وأقول لهم " إنتوا متقدروش تضرّونى أو تأذونى إلاّ بشىء ربنا كتبه عليّا .. ومتقدروش تخدمونى أو تنفعونى إلاّ بشىء ربنا سبحانه وتعالى كتبه ليه ".

فإختطفت سلمى الحديث من تلك النقطة وقالت لى ،،، إنت فاكر الحكاية سهلة ؟

فقلت لها بنبرة مستفهمة ونظرة متسائلة ... حكاية إيه !

فقالت لى موضحة ،،، مسألة العلاقة والتواصل بينا وبينهم

فسألتها مجاريا لطبعها .. وقد فطنت إنها لا تزال فى وادى وأنا فى وادى آخر،،، إزاى يا سلمى ؟

فقالت لى ،، شوف ياسيدى .. لازم تطلع الصحراء أو أى مكان خلاء والسلام .. وتدبح حيوان معيّن ومحدد ولازم يكون لونه إسود .. وتستحمى بيه، أأقصد بدمه يعنى، ولو واحدة متجوزة لازم تسيب جوزها .. ولو لسّة بنت مينفعش تتجوز، وفى كمان

حاجات تانية بتتعمل بس مقدرش أقولها علشان حرام وكفر .. أهو كل ده بقى علشان بس تكتب معاهم العقد.

فقلت لها مداعبا ،،، والعقد ده بقى إيجار ولاّ تمليك ؟

فقالت لى ،،، هزّر زى ما إنت عايز .. ده يا أستاذ شغل كبير.. فى عقود وعهود ومواثيق وبلاوى زرقاء .. أمّال إنت فاكر إيه !!

فقال لنا أحمد الذى لم يكن إشترك فى النقاش إلى تلك اللحظة ،، بس على فكرة أنا سمعت حكايات كتيرة عن المواضيع دى وعندى قصة لو تحبوا تسمعوها ؟

فقلنا له كلنا فى نفس واحد ،،، قول يا أحمد

قال ،، كان لينا جماعة معارفنا عايشين فى الخليج وكان عندهم شغالة من أندونسيا .. الشغالة كانت شاطرة ولهلوبة بس فيها حاجة غريبة أوى .. تيجى عليها الساعة ٣ صباحا تدخل الحمام .. وتفضل فيه ساعة كاملة لا تقل خمس دقايق ولا تزيد خمس دقايق وتخرج الساعة ٤ صباحا كل يوم على الحال ده .. ساعة بالتمام والكمال .. ويفضل الحمام هادى لا فى صوت ميّه ولا إستحمام ولا غيره، فالجماعة أصحاب البيت قلقوا وإستغربوا وفى مرة من المرات الست صاحبة البيت قررت إنها تفتح الباب عليها علشان تشوف هى بتعمل إيه ! وفعلا فتحت الباب وحسّت بصدمة كبيرة.. تخيّلوا إيه إللى حصل لمّا فتحت الباب ؟

فقلنا له فى نفس واحد وقد بدأنا ننسجم مع الحديث إلى حد ما ،،، حصل إيه ؟

فأكمل حديثه قائلا ،،، ملقتهاش فى الحمام رغم إنها متأكدة من إنها دخلت قدّام عينيها .. وطبعا لا يمكن إنها تكون نزلت من الشباك لأنهم ساكنين فى برج سكنى ضخم وفضلت تدوّر هنا وهنا مفيش حد، قامت بصت فى " لامؤاخذة " قاعدة الحمام شافت حاجة عجيبة وغريبة أوى .. عارفين شافت إيه ؟

فقلنا له كلنا فى نفس واحد وقد أخذنا الفضول والتطلع وشىء من الروع كل مأخذ ،،، شافت إيه يا أحمد؟؟

فقال مكملا حديثه ،، شافت شعرة أنثى طويلة ، إستغربت وخافت .. وخرجت من الحمام مفزوعة ومذعورة والساعة ٤ بالتمام شافت الشغالة وهى خارجة من الحمام ولا باين عليها أى حاجة .. والست من خوفها ودهشتها مكلمتهاش فى حاجة .. وبعدين سألت فى الموضوع ده عرفت إن الشغالة دى مخاوية وعاملة عهود ومواثيق والجماعة " إيّاهم " بيخدوها كل يوم لحد أندونسيا تشوف أهلها وترجع كل ده فى ساعة واحدة

فقلت مازحا وأنا أحاول الخروج من حالة الهلع التى سقطنا فيها جميعا ،، والله أوفر من الطيران وأسرع وأسهل، تروح أندونسيا تشوف أهلها وترجع بعد ساعة واحدة عن طريق الصرف الصحى ، ولا حجز تذاكر طيران بقى ولا ترانزيت ولا وجع قلب، والله رحلة

لطيفة ومسلية بس المشكلة لو إتحاشت فى ماسورة ولاّ حاجة .. هههه

ونظرت حولى عسى أن أجد أحدهم قد أضحكه ما قلت أبدا .. فبلعت باقى الضحكة وإلتزمت الصمت

فأكمل أحمد حديثه قائلا ،،، بس ياسيدى .. ولاد الحلال قالوا لها علشان تخلصى من البلوى دى تستناها فى مرة لغاية ماتدخل الحمام زى كل يوم وبعدين تدخل وراها وتقطع الشعرة دى مش هترجع تانى أبدا لأن الشعرة دى هى وسيلة رجوعها وفعلا الست صاحبة البيت عملت كده والشغالة مارجعتش تانى خالص.

وماكاد أحمد ينتهى من حديثه حتى قال لنا أدهم ،،، الحكايات إللى زى دى كتير .. أنا مثلا عندى حكاية إنما غريبة أوى لو تحبّوا تسمعوها ؟

ونظر إلينا فوجدنا ننظر إليه فى صمت دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة فإعتبر أن السكوت علامة الرضا فقال لنا ،، إسمعوا بقى .. كان لينا جماعة معارفنا بس مرتاحين وميسورين أوى وفى يوم إستقبلوا جماعة معارفهم من البلد إللى نشأ فيها الزوج فى الأرياف ومعارفنا دول الحقيقة ناس كرماء أوى ويحبوا الأبهة والفخفخة وعندهم إكرام الضيف مسألة دين وعبادة .. فبالتالى ظهروا فى عيون الناس البسيطة إللى جايين من الأرياف حاجة مش معقولة وكأنهم ملوك أو باشاوات ، القصد باين كده إن الست الريفية

الضيفة دى كانت عينيها مش كويسة وقلبها إسود .. فاهمين طبعا؟؟

فقلنا كلنا فى نفس واحد ،،، آه فاهمين .. كمّل يا أدهم

فقال مكملا حديثه ،، الغرض ، لاحظت الست صاحبة البيت إن الضيفة الريفية دى فضلت تبص للبيت والأركان والمفروشات والجدران والأنتيكات بتمعّن زيادة عن اللزوم والعجيب فى الموضوع إنها لاحظت إن الست الريفية كانت بتقول كلام فى سرّها وشوشة وهمس وكأنها بتكلم حد غير مرئى أو كأنها بتدعى أو بتعد حاجة فى سرها، الله أعلم ، المهم إنتهت الزيارة بس مش على خير لأن بعد ساعة واحدة بالظبط حصلت حاجة إنما غريبة جدا .. عارفين إيه إللى حصل ؟؟

فقلنا له كلنا فى نفس واحد ،،، إيه إللى حصل ؟

فقال ،، الناس أصحاب البيت يبصوا يلاقوا كل حاجة حواليهم من أنتيكات ومفروشات وعفش وسجاجيد وغيره وغيره إتغطت بدود أبيض وحشرات لونها إسود وأزرق شكلها مخيف وبتتحرك فى كل ناحية وبتغطى كل المكان .. الناس حسّت برعب وفزع وهلع ، إيه الحشرات الفظيعة دى !! جت منين .. لا يمكن تكون قلة نضافة .. جت منين .. شىء مرعب ، الست صاحبة البيت قالت لازم يكون عمل أو سحر أو حسد من الجماعة إللى كانوا عندنا من شويّة وقالت موجهة الحديث إلى زوجها ،، الست الريفية

دى عينيها وحشة، قعدت تنقر كل حاجة مخلتش .. إحنا خلاص إتحسدنا إترصدنا إنصبنا إلحقنى بشيخ يفك ويصرف البلاوى دى، وبسرعة جا ء الشيخ وفضل يقرأ قرآن ويدعى بصوت مسموع ويرش ميّه " مقرى عليها " لحد مازالت الغمّة دى ..

وإنتهى أدهم من حديثه ونظر إلينا فوجدنا مطرقين ولا نكاد نصدق شيء مما سمعناه .. فسألنا عن رأينا فقلنا له ،،، حاجة غريبة فعلا

فقالت لنا سلمى بلهجة الواثقة من كلامها المتباهية بعلمها المختالة بمعرفتها ،، الحكايات دى كلها متبقاش حاجة بالنسبة للبلاوى إللى أنا أعرفها ..

فنظرنا إليها جميعا بعين الإحترام لثقتنا بتفوقها فى هذا الميدان وبروزها فى هذا المجال .. ولأول مرة نستمع إلى تلك الموضوعات دون أن يثير أحدنا سخرية أوتهكم ودون أن يطالب أحدنا بتغيير الموضوع أو الكف عن هذا الحديث ، على العكس تماما كنا جميعا نريد أن نستزيد من تلك الأحاديث التى تثير العجب وتدعو إلى الدهشة وتعبث بالعقول وتسخرمن البديهيات وتستخف بثوابت المنطق وتنشط بالخيال وتشعل الذهن وتغرى بالتفكير فى اللامعقول والمستحيل .. فقلت لسلمى وأنا أبتسم وكأننى كنت أعبّر عن إرادة ورغبة الجميع ،،، هاتى ماعندك يا سلمى

فإعتدلت سلمى فى جلستها ونظرت إلينا نظرة المعلم إلى تلاميذه

والمحاضر إلى طلابه .. وإستحالت معالم وجهها إلى جدية مخيفة وكست ملامحها تعبيرات غريبة وكأنها كانت تحيا تلك الأحداث والمشاهد التى ستلقيها على آذاننا بعد لحظات ثم أنشأت تقول ،،،

شوفوا ياجماعة .. أنا عارفة حكايات فى المواضيع دى كتيرة جدا ، حكايات عن الجن والعفاريت ، وحكايات عن الأعمال والعكوسات وقصص غيرها عن الحسد وفتح الكوتشينة وقراءة الفنجان وغيره وغيره .. ما تعدّوش ، أعرفها عن طريق القراءة والبحث والتمعّن ومش هكون مبالغة لو قلت لكم الدراسة وأعرفها كمان عن طريق الأحداث والحكايات إللى بتحصل مع معارفى وأصحابى والناس من حوالية ولو هقعد أحكى لكم فيها مش هنخلص وهتفضلوا تسمعوا لحد الفجر وطبعا هتباتوا هنا وما أظنش إن كرم الضيافة وأصول الواجب وصلت بينا للدرجة دى .. ولا إيه يا حازم ؟

فقال لها حازم وهو يبتسم إليها فى غيظ مكتوم ،،، قصّرى لسانك يا سلمى .. وبطلى هزار تقيل وأدخلى فى الموضوع

فقالت سلمى مكملة حديثها ،، حاضر يا سيدى .. شوفوا يا جماعة .. ها أحكى لكم أغرب قصة سمعتها فى حياتى عن الجن والعفاريت فى سرّها " ربنا يلطف بينا " إللى حكت لى الحكاية دى أول مرة واحدة قريبتى هى أصلا سمعتها من سلفتها إللى حصل الموضوع ده لجماعة من معارفها .. المهم الحدوتة دى مضمونة ميّة

فى الميّة وأكيدة زى الجنيه الدهب .. خليكوا معايا وماتسرحوش ...

كانوا إتنين عرسان جداد .. فرحانين ببداية الحياة مع بعض ومستبشرين خير .. وآخدين بعض عن قصة حب إنما كبيرة أوى .. وبعد شهر واحد من الجواز يدوبك لسّة مخلصين شهر العسل ألا وتحصل حاجة غريبة .. العروسة مش طايقة عريسها مش طايقة تشوفه أو تكلمه أو تسمعه أو حتى تقعد معاه .. ليه ؟؟ هى نفسها مش عارفة .. الراجل ييجى يقرّب منها تنفر يهزر معاها تتنرفز .. يناغشها تتعفرت ، ييجى يلعب معاها عريس وعروسة تتلبش .. القصد، الراجل بعد ما إغلاب معاها محايلة ومسايسة ومهاودة .. مالك ياروحى !!.. وألف سلامة عليكى ياحياتى .. وإن شاء الله أنا ياعمرى .. مفيش فايدة إشتكاها لوالدها وكلّم والدته .. جُم الستات وإتكلموا معاها إللى طالع عليها أنا مش عارفة مالى !! مش عارفة إيه إللى بيحصل لى ! هو مغلطش معايا فى حاجة بيعاملنى برقة ولطف وذوق لكن أنا مش عارفة مالى !

فى البداية الستات الكبار والدته ووالدها قالوا ،، إتحسدتوا وإتنظرتوا، قعدوا يرقوا ويبخروا ويدعوا وينذروا ويوفوا ، لكن مفيش فايدة .. ولاد الحلال قالوا لهم ، فى عمل معمول، جابوا شيخ فى البيت وقام بواجبه المهم من غير ما أطوّل عليكوا لكن برضه مفيش فايدة ملقاش حاجة ومعرفش أصل المشكلة فين قالوا مرض نفسى وراحوا لدكاترة نفسيين وبرضه مفيش فايدة رجعوا ولاد

الحلال ووصفوا لهم شيخ إنما مشهور ومعروف وشغله زى الفل " وعلى حد تعبير بعضهم " سرّه باتع .

راحوا له ووصفوا له حالتها ، إزّاى حصل الجواز عن حب وإزّاى بدأت تشتكى .. والتجارب إللى حصلت قبل كدة الشيوخ إللى راحوا لهم والدكتور النفسانى والوصفات وغيره وغيره .. الشيخ سمع كل الكلام ده ، وفهم .. وقال لهم ،،، يا جماعة الست دى فيها حاجة

فقالت له والدتها بنبرة مرتجفة مترقبة ،،، حاجة زى إيه يا سيدنا؟

فقال لها بلهجة مؤكدة ،،، الست دى عليها اللهم إحفظنا جن

فضربت والدتها صدرها بيدها وقالت ،،، ياالهوى .. جن !!

فقال لها الشيخ بلهجة الواثق المطمئن ،،، أيوة يا حاجّة

فقالت له بلهجة حائرة ونبرة حزينة ،،، طيّب يا مولانا وبعدين؟

فقال لها بلهجة من يشرع فى إبتداء العمل ،، ولا قبلين .. إستعينا على الشقاء بالله، عايز المكان فاضى مفيهوش غير الست التعبانة وجوزها

فقالت له والدتها بلهجة راجية ونبرة مستعطفة ،،، جوزها موجود يا خويا بس أنا كمان عايزة أستنّى معاها .. ينفع ياسيدنا .. أنا أمّها !

فقال لها بلهجة سريعة مقتضبة ،،، ينفع يا ست ميضرّش .. ياالله بينا بقى علشان نبدأ

وطلب الحالة أو الست التعبانة صاحبة الشأن .. فجلست بين يديه على الفراش وهى فى حالة بين اليقظة والنوم وهيئتها مزرية من فرط التعب والإرهاق النفسى والعصبى .. فوضع يده اليمنى على رأسها ويده اليسرى وضعها على وجهه وأمام فمه وظل يقرأ القرآن بصوت مسموع ويدعو الله تارة جهرا وتارة سرا ثم يمسح بيده اليسرى على رأس الحالة وعلى كتفها ثم طلب كوب من الماء وقرأ عليه القرآن وشِيء من دعاء ثم طلب من الحالة أن تشرب منه .. وأخذ الرجل يشتد فى القراءة والدعاء، وظل على حالته تلك يأخذ رذاذ فمه وهواءه الساخن الناتج عن القراءة والدعاء ويمسح به رأس الحالة وكتفها، وبعد لحظات توقف الرجل عن القراءة والدعاء وإنتفض جسده وإحمر وجهه وتجسّم القلق والتأهب لكبير الأمور وخطيرها على ملامح وجهه فإتسعت عيناه وبرزت للخارج، وإرتجفت لحيته مما وشى بحركة الفك والأسنان المتوترة تحتها ، ودلت حركات جسمه ووجهه على إنه يتاهب لأمر عظيم .. وفجأة سمع مَن بالغرفة صوت صراخ غريب ومكتوم خرج من السيدة التعبانة أو الحالة ، وكأن هذا الكائن الغير مرئى قد إستغل جسد الحالة ولسانها تماما كما تفعل الدول المحتلة بغيرها ، أمّا الجسد فللسكنى وأمّا اللسان فللإتصال والتعبير وكأنها الإذاعة، وبعد

لحظات قصيرة وجدوا الشيخ يتحدث لهذا الكائن الغير مرئى وإبتدأ كلامه معه قائلا فى عنف ،، ها .. ناوى تطلع ولاّ .. لأ ؟

فقال له الكائن الغير مرئى بصوت مبحوح غريب ولهجة مرتجفة مريبة ،،، إستنى عليّا شوية

فقال له الشيخ مستحثا ،،، لحد إمتى يعنى ؟

فقال له الصوت الغريب بنفس اللهجة المرتجفة والصوت المبحوح ،،، هعمل كل إللى إنت عايزه ... بس أصبر عليّا

فقال له الشيخ بلهجة عنيفة قاسية ،،، إنت إيه إللى خلاك تدخل فيها أصلا ؟

فقال له الصوت الغريب .. بلهجة رقيقة لينة ونبرة هادئة خافتة ،،، بحبّها

فقال له الشيخ وكأنه لم يسمع .. أو كأنه لا يصدق ما سمع أو يستنكره ،، دخلت ليه يا خويا !!

فأجابه الكائن الغير مرئى بنبرة مختلفة عمّا سبقها .. يشوبها الخجل والحياء ،،، بقول لك بحبّها يا شيخ ؟

فقال له الشيخ بغيظ وهو يصر على أسنانه ويكاد صبره ينفذ ،،، بتحبّها إزاى يعنى ؟

فقال له الكائن الغير مرئى بلهجة مألوفة .. قريبة من لهجة البشر

العادية ،،، إيه إللى بحبها إزاى .. بحبها زى الناس لّما تحب ؟

فقال له الشيخ بلهجة سريعة ،،، الله يفتح عليك .. زى الناس لّما تحب .. هو بقى حضرتك تبقى نلس ؟ .. مش إنت برضه تبقى جن؟

قالها الشيخ ونظر إلى كلا مَن بالغرفة من زوج الخالة ووالدتها فوجدهما على حالة يرثى لها من فرط الذعر والعجب

فقال له الجن متعجبا ومستنكرا فى آن ،،، هو برضه مش الجن له قلب يا شيخ ؟

فقال له الشيخ ،،، ماشى ياسيدنا لك قلب على العين وعلى الراس .. بس حب إللى زيّك .. من جنسك .. من توبك ومن وأمك !

فقال له الجن بلهجة مسترخية تثير العطف ،،، أعمل إيه بس يا مولانا قلبى حبها وإختارها .. هو فى حد يقدر يقول للقلب لأ .. هو إنت مَحبتش قبل كده ولاّ إيه يا شيخ ؟

فقال له الشيخ بنبرة شاردة ولهجة سارحة ،، متفكرنيش بقى وحياة أبوك يا جن، لاحسن ده أنا مستوى الله لا يوريك ثم قال بلهجة عصبية وقد أفاق إلى نفسه ،، يا سيدنا حب زى ما إنت عايز محدّش هيمنعك .. لكن حب واحدة من جنسك ومن نوعك .. شوف لك كده واحدة جنيّة بنت حلال ومتربية تملا عليك ال

.. ال .. شوف إنت ساكن فين بقى وسيب بنات الناس فى حالها.

فقال له الجن بلهجة متأثرة ونبرة مرتجفة وإسلوب حكيم ،،، الحب يا شيخ ميعرفش الفوارق دى .. لايعرف جنس ولا دين ولا فرق سن ولا مسافات من أى نوع .. فاهمنى يا مولانا ؟؟

فقال له الشيخ متأثرا ،، فاهمك يا جنى فاهمك .. بس ده مش موضوعنا الست دى متجوزة والمفروض إنك تسيبها فى حالها علشان هى مش بتحبك .. إنت فاهم ؟؟

فقال له الجن بلهجة عصبية مستنكرة ونبرة غاضبة ،،، مش بتحبنى إزاى .. هى قالت لك كده ؟

فقال له الشيخ بلهجة صريحة قاطعة ،، أيوة يا سيدى ، هى قالت لى كده وطلبت منّى إن أنا أخرّجك منها كمان .. ها .. إيه رأيك بقى ؟

فقال له الجنى متأثرا وصوته مختنق ويكاد يبكى ،،، حاضر يا مولانا مادام دى رغبتها أنا هنفذها .. علشان الحب تضحية وأنا أهم حاجة عندى فى الحياة دى سعادتها وراحتها .. أنا هخرج منها يا شيخ ..

فقال له الشيخ فرحا بإنتصاره ،،، يبقى عين العقل .. وتبقى جنى محترم صحيح وإبن ناس .. روح يا إبنى ربنا يكملك بعقلك

فقاطعه الجن قائلا ،،، بس عندى شرط واحد وأخير

فقال له الشيخ متوجسا قلقا ،،، شرط إيه ده بقى .. خير ؟

فقال له الجن متأثرا ،،، بعد ما هخرج منها ... عايز أسلم عليها بطريقى وأبوس ...

فقال له الشيخ فزعا مرتاعا .. بلهجة مستفهمة مستنكرة فى آن،،، تبوس !!

فقال له الجن مكملا جملته ،،، حلمك عليّا يا مولانا أنا غرضى أقول .. أبوس إيديها .. إيديها يا مولانا ؟؟

فقال زوجها بعصبية شديدة وهو الذى كان صامتا طوال تلك المدة، فلم يتمالك نفسه عندما سمع رغبة العفريت تلك أن إستشاط غضبا وقال بلهجة فائرة ثائرة ،،، يبوس إيديها إزاى السافل الدون ده .. هو أنا مش مالى عينه ولا إيه ؟

فأسكته الشيخ بإشارة من يده وغمزة من عينيه .. وقال له هامسا ،،، هدّى نفسك شوية يا أستاذ لا حسن يعند ويركب دماغه وميرداش يطلع ولا بالطبل البلدى ، بوسة إيد تفوت ولا حد يموت .. كويس إنها جت على قد كده .. فى غيره بيطلبوا بلاوى .. شغلانة تقصف العمر صحيح القصد .. قال الشيخ موجّها الحديث إلى الجن ،، ماشى يا سيدى موافق .. إطلع بقى وخلصنا

مرت بعدها لحظات صمت عميق ومريب لم يسمع أحد فى تلك الغرفة أى صوت و لم يجرؤ أحدا منهم أن ينبس ببنت شفة ، وفجأة شاهد مَن فى الغرفة كلا من الشيخ وزوج الحالة ووالدها " الحالة "

النائمة على السرير أمامهم وجدوها ترفع ظهرها عن السرير بزاوية حادة دون أن يبدو على ملامح وجهها أدنى أثر للألم من تلك الجلسة الغير مريحة .. فلم يشك أحد منهم فى أن الجن يجلس بجوارها فى تلك اللحظة ويسندها بذراعيه وأخذت الحالة تهمهم بكلام متقطع لم يستطع أحد تفسيره، وكانت تتحدث بتلك الهمهمة ثم تنتظر قليلا وتعيدها مرة أخرى بعد لحظات وكأنها تسمع كلام وتجيب عليه ، ونظروا إلى ملامح وجهها فلم يجدوا بها شىء غريب، على العكس تماما وجدوا وجهها مشرق قد زالت عنه سحابة الخوف والحزن التى صاحبتها طوال الفترة الماضية، وعلت شفتيها إبتسامة رضا وإمتنان، فلم يشك أحد فى أن الجن يغازل تلك المرأة ويطيب بخاطرها ، ويبدو أن الجن المقروص " برمجى ودمه خفيف " لدرجة إنه " لحس عقلها " وطال الإنتظار على الجميع .. أمّا الزوج فلا يطيق تلك المشاهد الرومانسية وتشتعل فى قلبه الغيرة ويريد أن ينقض على هذا الجن فيقطعه ويمزقه إربا ويلقى به إلى الجحيم، والشيخ يريد أن ينتهى من عمله مع هذه الحالة "ويشوف أكل عيشه " .. فقال للجن بنبرة حازمة مستحثا إياه ،،، ها .. خلاص ؟

فلم يتلق جوابا

فإستشاط الشيخ غضبا وغيظا من هذا العبث والتهريج وقال للجن بلهجة عصبية ونبرة جافة ،،، إنت يا جن خلّصت ولاّ إيه ؟

فقال له الجن بلهجة سريعة مقتضبة ،،، لسّة شوية

فقال له الشيخ بنفس اللهجة العصبية الجافة ،،، لسّة شوية يعنى

إيه ! هو أنا بلعب معاك أستغماية ولاّ إيه، يا أخى إستحى وإختشى على عرضك، وإحترم المكان إللى إنت فيه وراعى إن جوزها موجود ، بلاش جوزها ياسيدى إحترمنى أنا وإحترم شيبتى عيب ده أنا راجل كبير وصاحب مرض .. الله يخرب بيوتكوا

فقال له الجن وهو يكتم ضحكه ،، خلاص يامولانا، قرّبت دقيقة واحدة مش أكتر

فقال له الشيخ ضائقا بالإنتظار،،، دقيقة واحدة بزامننا إحنا ولا بزمانكوا إنتوا .. يا مُسهّل

ومرت لحظات و لم يحدث جديد ، فقال له الشيخ مستحثا إياه للإنتهاء ،، إيه .. أجيب شجرة وإتنين ليمون ولاّ إيه !! فلم يتلق جوابا .. فقال الشيخ بصوت كالهمس ،،، شغلانة تقصف العمر

وبعد لحظة واحدة إرتفعت يد الحالة فى الهواء .. ففهم الجميع إنه يقبل يدها الآن ، وتعلقت يدها فى الهواء لحظات فأدرك الجميع أن القبلة قد طالت بعض الشىء ، وكادت عينا الشيخ أن تدمع من هذا المنظر الرومانسى العجيب والفريد من نوعه ونظر فى حذر إلى زوج الحالة فوجده يكاد يشتعل من فرط الغيرة، وبعد لحظات قصيرة، شاهد جميع مَن بالغرفة جسد الحالة وهو يتراجع إلى الفراش برفق ، ويدها وهى تعود إلى جوارها برقة، وبعد لحظات أخرى أفاقت فيها الحالة إلى نفسها وتساءلت كمن يستيقظ من نوم طويل ،، أنا فين هنا ؟ إيه المكان ده ! ثم نظرت فرأت أمامها زوجها

فابتسمت له إبتسامة عريضة وقالت له ،، أشرف حبيبى تعالى هنا .. وفتحت ذراعيها لإستقباله فسارع زوجها بالإرتماء فى حضنها وبين ذراعيها وأمطرها بقبلات حارة منعشة وقال لها وهو يكاد يطير من الفرحة والسعادة ، الحمد لله على سلامتك يا حياتى وخلصت الحكاية على كده .. وأنهت سلمى حديثها قائلة ،،،، إيه رأيكوا بقى يا جماعة فى الحكاية دى ؟

فقلنا كلنا لها فى نفس واحد ،،،، حكاية غريبة أوى !!

وما كادت سلمى تنتهى من حديثها حتى شعرت بقشعريرة تسرى فى جسدى ورعدة خفيفة تعترينى لم أكن أدرى أكانت ناتجة عن برودة الجو أم ناتجة عن لحظات الهلع والخوف التى عشناها جميعا أثناء تلك الأحاديث ، وأحسست طوال حديثها بتلك اللذة الناتجة عن الشعور بالخوف وأنا أتمثل تلك المشاهد والأحداث والوجوه والصور الواردة فى أحاديث سلمى وبقية الرفاق وأحسسنا جميعنا بتلك الرعشة والرعدة بشكل مضاعف تارة من فعل الخوف وتارة أخرى من فعل البرد، ومرت لحظات صمت على جماعتنا وهم صامتين وساكنين فى أماكنهم وكأن على رؤوسهم الطير .. ثم بدأت تتخللنا أحاديث جانبية وضحكات وتعليقات وسرعان ما تناسينا ذلك الفزع والهلع الذى أصابنا أثناء تلك الأحاديث السابقة وعدنا كما كنا نتحدث ونثرثر ونضحك وندفع بدفة الحديث إلى إتجاه غير الإتجاه.

ونظرت إلى ساعة معصمى فوجدتها الحادية عشر مساءا فإستأذنت للذهاب فتعلق بى حازم وبقية الأصدقاء أن أنتظر معهم بعض الوقت وننصرف معا .. ولكنى إعتذرت لهم فقد كانت تشغلنى فى البيت بعض المهام والأمور التى لابد من إنجازها قبل النوم .. وإنصرفت

سرت على قدمى من مترل حازم إلى أن بلغت المعدّية الخشبية المتهالكة الواصلة ما بين ضفتى ترعة المحمودية فى تلك المنطقة، كان الطريق مظلم ويكاد يكون خاليا ، وعمال المعدية قد غادروها وإنصرفوا، فسرت فوقها وأنا أشعر إنها من فرط ميوعتها وضعفها تكاد تتهاوى من تحت أقدامى ، وبلغت أذناى أصوات الحشرات الليلية الملحّة ونقيق الضفادع المزعج ونظرت إلى المياه الضحلة المظلمة وقد إنعكست فوق صفحتها بعض الأضواء الليلية الضئيلة الخافتة التى تترامى على سطحها من هنا وهناك، فتمثلتها على هيئة أشباح تتراقص أو هكذا خيل إلىّ ، وسمعت بجوارى همهمة ونمنمة وأصوات هامسة فشعرت برجفة تسرى فى جسدى ورعدة تتذبذب بين أوصالى وتمثلت لى بعض المشاهد التى حدثتنى عنها سلمى وبقية الرفاق ولكنى نفضت هذه السذاجات عن تفكيرى وإبتسمت إبتسامة خافتة وأنا أهزأ بسخافاتى تلك، ورأيت أمامى فأر يركض بجسده الممتلىء ولونه الأسود وذيله الطويل وشكله المخيف لا أدرى من أين جاء ؟؟ ثم رأيته يقفز فى مياه الترعة فشعرت بالخوف حينئذ،

فأنا لاأكره شيء فى حياتى قدر كرهى لهذا الحيوان القبيح وتلفّت حولى فلمّا لم أجد أحد يرانى أو يشعر بوجودى لم أتحرّج فى إطلاق ساقى للريح فركضت .. وما هى إلا لحظات معدودة حتى عبرت المعدية الخشبية وإخترقت ما يحيط بها من أرض مزروعة وبلغت الطريق.

أشرت لأول تاكسى صادفنى بعد بلوغى للطريق .. فتوقف فقلت له ،،، الإبراهيمية ؟

فقال لى ،،، إتفضل

فركبت وأغلقت الباب وشعرت ببعض الدفء النسبى بداخل التاكسى وسمعت الرجل يقول لى ،،، فين فى الإبراهيمية إن شاء الله؟

فنظرت إليه نظرة خاطفة وقلت له ،،، أوّل اللاجيتيه إن شاء الله .. وعدت فنظرت مرة أخرى من خلال نافذة السيارة

وظللت سارحا فى المناظر المارة أمامى بعين ناعسة وذهن مزدحم بتلك الخيالات والمشاهد والأحداث التى حدثتنا عنها سلمى وبقية الرفاق وظللت أفكر فى كثير من الأمور التى أؤمن بها وأصدقها ولكنى لا أستطيع أن أتعمّق فيها بفكرى أو أتوغل فيها بنظرى أو أقيم عليها الدليل الملموس ، فيظل إيمانى بها متوقف عند حدود الأسماء ولا يتعداها إلى مدلول تلك الأسماء من هذه الأشياء الجن و

العفريت ، القرين والشيطان ، الحسد وتسخير مخلوقات غير مرئية ومعرفة الغيب ماضيا ومستقبلا وغيره وغيره

وأثناء تعمّقى فى حديثى الداخلى هذا وسرحانى سمعت صوت السائق يوقظنى مما أنا فيه، وتحدث إلىّ بشىء ، ولكنى لم أنتبه إلى كلامه فنظرت إليه بعين لاهية وقلت له مستفسرا ،،، بتقول حاجة يا أسطى ؟

ولشد ما هالنى إننى لم أجد السائق الأول الذى ركبت معه وإنما رأيت شخصا آخر ، السائق الأول الذى رأيته وأنا أركب التاكسى ونظرت إليه مرة أخرى عندما سألنى أين أريد الذهاب على وجه التحديد فى الإبراهيمية ، لم يكن هو هذا الشخص !! الآخر كان بدين وله كرش منتفخ ووجهه ممتلىء وله شارب ضخم وصوته أجش .. أمّا هذا الشخص فمختلف تماما، نحيف شديد النحافة ووجهه غريب ومريب وملامح وجهه بارزة ومخيفة وعيناه واسعتان وجاحظتان للخارج وصوته غريب كفحيح الأفعى وشكله عموما مثير للقلق، قلت لنفسى،، يبدو إنها خيالات وأوهام وأعدت قولى على الرجل ولكن بلهجة حذرة ونبرة مرتجفة بعض الشىء.

فقال لى الرجل بصوت غريب ونبرة مخيفة وأسلوب وقح وقد علت شفتيه إبتسامة سخرية ،،، إنت ما سمعتنيش ولاّ إيه !

فقلت له وأنا مندهش من طريقته تلك ولا أزال أشعر بالخوف والقلق ،،، الحقيقة لأ .. أصلى كنت سرحان شوية

فقال لى بنفس الوقاحة والإبتسامة الساخرة ،،، عجبنى أوى كلامك إللى إنت قلته الليلة دى

فقلت له متسائلا وأنا قلقى يزداد حتى بلغ أقصاه وكادت الكلمات تختنق فى حلقى ،،، كلام إيه حضرتك ؟

فقال لى بنبرة خشنة ولهجة قاطعة ،،، الكلام إللى إنت قلته وسمعته من أصحابك الليلة دى فى بيت حازم

شعرت بالدم يكاد يتثلج فى عروقى وبضربات قلبى تدق بعنف وقسوة وصدرى يعلو ويهبط من فرط الخوف والذعر ولسانى إنعقد من الدهشة .. ثم تمالكت نفسى وقلت له ،،، وإنت عرفت منين ؟

فإلتفت إلىّ وكانت هذه هى أول مرة أرى فيها عينيه بوضوح، وياهول ما رأيت ، عينان واسعتان بارزتان مخيفتان يشع منهما ضوء أبيض مشوب بحمرة مخيف ومرعب، وقال لى وهو يبتسم إبتسامة تثير الإشمئزاز والقرف كشفت عن أسنانه السوداء المتآكلة ،،، أنا أصلى واحد منهم

فقلت له بلهجة خائرة مرتجفة وبكلمات سقطت منها أغلب حروفها أنا أكاد أنهار من فرط الخوف والفزع ،، واحد من مين حضرتك ؟

فقال لى وهو يبتسم ويعرّفنى بنفسه ويضع إحدى يديه فوق صدره ،،، أنا أخوك من الجن السفلى .. خدامك بردقوش

فقلت له بنبرة مرتعشة ولهجة متمسكنة وأنا أنظر إليه بنظرة مستعطفة متملقة ،،، العفو دا أنا إللى خدامك

وتذكرت قول سلمى حينما سخرت من حديثها عن الجن والعفاريت فقالت لى متوعّدة ،،، هزر وإتمسخر بيهم لغاية ماهتشوف منهم يوم إسود .. فنظرت إلى هذا الكائن الخرافى البشع وقلت لنفسى وأنا أزدرد ريقى بصعوبة ،،، جالك الموت ياتارك الصلاة

قال لى وهو ينظر إلىّ بعيناه المشعتان ذلك الشعاع المخيف ،،، الكلام إللى قالته سلمى وبقية أصحابك ما كانش عاجبك .. صح؟

فقلت له بلهجة سريعة نافية ،،، إزاى بقى .. الكلام كان كويّس جدا .. وأنا كمان كنت متأثر خالص بكل كلمة سمعتها

فقال لى وهو ينظر إلىّ نظرة المتشكك فى كلامى ،،، بس إنت كنت عمّال تهزر معاهم وتتمسخر بيهم ؟

فقلت له بنفس اللهجة السريعة ،، إطلاقا .. أستغفر الله ، أنا مقدرش أبدا أهزر فى المسائل إللى زى دى .. ده حتى يبقى عيب

فقال لى بلهجة مختلفة ونبرة لينة هادئة ،،، على كل حال أنا مش زعلان منك .. ثم سألنى مستدركا ،،، المهم تحب تبقى معانا ؟

فقلت له وأنا أبتسم فى سذاجة وأذدرد ريقى فى صعوبة ،،، أبقى مع مين حضرتك ؟

فقال لى بلهجة مؤكدة ،،، معانا إحنا .. مع عالم الجن والعفاريت

فقلت له معتذرا ،،، معلش .. أنا آسف .. مش هقدر .. خليها فرصة تانية

فقال لى بلهجة عنيفة ونظر إلىّ بعينيه المشعتان المخيفتان ،،، يعنى إيه فرصة تانية !! .. أنا مفضّى نفسى مخصوص الليلة دى علشانك .. علشان تنضم لينا وتبقى معانا تقولى فرصة تانية ، هوّ أنا خدام أبوك !!

فقلت بينى وبين نفسى ،، إيه بقى لزوم قلة الأدب دى !! وهممت بالرد عليه .. ولكنى تذكرت إنه ليس آدمى إنه كائن آخر مخيف ومرعب .. وقلت بينى وبين نفسى ،، الإنسان يظل السيد والكبير والعظيم مادام لا يرى غير جنسه ولكن عندما يحدث ويبصر الكائنات الأخرى يتغير رأيه فى نفسه وبمنتهى السرعة .. ثم قلت بصوت كالهمس ،، وبعدين بقى فى الشبكة السودا دى ؟؟

فقال لى بلهجة سريعة خاطفة وقد بدا عليه الضيق من صمتى هذا ،،، ها .. نويت على إيه ؟

فقلت بلهجة حائرة ذاهلة ،،، فى إيه حضرتك ؟

فقال لى ،،، فى موضوع الميثاق والعقد

فقلت بلهجة سريعة مندفعة ،،، عقد الإيجار .. أأقصد عقد

الإتفاق ... أنا آسف مش هقدر

فقال لى بلهجة مخيفة والشرر يتطاير من عينيه والرذاذ الكريه يتطاير من فمه فليتصق بوجهى ،، الموضوع مش بمزاجك ، هتعمل الإتفاق غصبا عنك .. هنطلع دلوقتى معايا على الطريق الصحراوى وهتلاقى هناك ناس كتيرة جايين علشان يكتبوا العهود والعقود وهتقابلوا هناك ملك الجان " الريس الكبير " علشان يعمل معاكوا إتفاقيات وياخد منكم العهود والمواثيق، وبعدين تدبح الخروف الإسود وتستحمى بدمه خلينا بقى نبدأ شغل وناكل عيش ونسترزق .. ومين يعرف يمكن تطلع مرزق وتستلم الكارنيه الليلة دى.

فسألته مندهشا وقد أفقت بعض الشىء من رعبى وهلعى ،،، كارنيه إيه !!

فقال لى وهو يبتسم إبتسامة منفّرة ويسيل لعابه بصورة مقززة وهيئة بشعة ،، كارنيه العضوية يا غشيم .. ها ؟؟ مستعد ؟

فقلت بينى وبين نفسى ،،، يا ليلة سودا مش باين لها آخر هعمل إيه دلوقتى !! عايز أهرب .. عايز أجرى .. أعمل إيه ؟؟ وأوحت لى ضرورة الموقف بسرعة التصرف ، وألهمنى الفزع بفكرة سرعان ما تحمست لها ، فقررت أن أقفز من التاكسى وبسرعة قبضت بيدى على مقبض الباب ولكنى فوجئت به مغلق بإحكام ، فنظرت إلى السائق الجهنمى برعب وهو أيضا كان ينظر إلىّ شذرا ويرغى ويزبد ويتطاير الشرر من عينيه ورذاذ مخيف من فمه وقال لى وهو

على هذه الصورة المنكرة البشعة ،،، إيه .. عايز تهرب يا حلو؟

فنظرت إليه وأنا فى غاية الهلع والفزع و لم أنطق بكلمة فقبض بيده البغيضة على مقبض يدى حتى لا أفلت منه وإقشعر جسدى ورعد لملمس يديه ذات الشعر الكثيف والأظافر الطويلة القذرة والملمس الخشن البشع، وإلى هنا لم أطق تحمّل أكثر من هذا فصرخت بأعلى صوتى مستنجدا بأى شخص يمر فى الشارع أو أى شىء .. فقال لى بصوته المنكر وإبتسامته الساخرة وضحكته المجلجلة ،،، أصرخ زى ما إنت عايز محدّش هيسمعك أبدا وهتيجى معايا غصبا عنك.

فتراجعت فى مقعدى وأنا أكاد أنهار من فرط الذعر والخوف .. وشرعت فى الصراخ والإستغاثة والإستنجاد برغم تهديد بردقوش لى وقوله ، بإنه لن يسمعنى أحد، وأغمضت عينى حتى لا أرى وجهه المنكر، وأخذت فى الصراخ والإستغاثة، ياناس .. يا هو .. إلحقونى .. عايز يخدنى معاه للطريق الصحراوى علشان أكتب العقد وآخد العهد ، إلحقونى إنجدونى .. سيبنى يا بردقوش ، مش عايز أدبح الخروف الإسود ومش عايز أستحمى بدمه يا بردقوش .. أنا فى عرضك يا بردقوش .. على يمينك هنا نزلنى الله يخرب بيتك يا بردقوش

وفجأة توقفت السيارة بعنف، وظللت على وضعى كما هو متضائل فى مقعدى ومغمض عينى وكاشش فى نفسى ، وتخيلت

العفاريت عندما تأتى إلى السيارة وتقوم بإنزالى بالقوة وإستخدام العنف معى لإجراء الطقوس والمراسم التى سبق وحدثتنى عنها سلمى ، فإزداد فزعى ورعبى ولصقت نفسى بالمقعد ومرت لحظات دون أن أسمع صوت أو نداء و لم يطالبنى أحد بالترول ففتحت عينى فى حذر وقلبى يدق بعنف وصدرى يعلو ويهبط فى إضطراب .. وفى نفس اللحظة أحسست بيد توضع فوق كتفى برفق وبصوت يقول لى بنبرة رفيقة ولهجة لينة ،، مالك يا أستاذ إنت تعبان ؟

فإلتفت إلى مصدر الصوت فى حذر ونظرت إليه متأنيا وشد ما أدهشنى .. فقد فوجئت بالسائق الأول الذى رأيته عند ركوبى السيارة .. ذلك الرجل البدين صاحب الكرش المنتفخ والوجه الممتلىء والشارب الضخم والصوت الأجش و لم أجد للآخر أثر ،،، فنظرت إليه وأنا فمى شبه مفتوح من فرط الدهشة والإستغراب

فقال لى الرجل مرة أخرى بنفس اللهجة اللينة والنبرة الرفيقة يا أستاذ مالك إنت تعبان ولاّ حاجة !! .. عندك مغص فى معدتك !

فسألته بلهجة مرتجفة ونبرة مرتعشة مرهقة من طول الصراخ والإستنجاد و لم أكن قد أفقت من ذهولى بعد ،،، إنت ليه بتقول كده ؟

فقال لى ،،، أصلى لقيتك مرة واحدة كدة غمّضت عينيك ورجعت فى الكرسى لورا وقعدت تصرخ وتقول .. بردقوش يا بردقوش

فقلت له وأنا أفيق إلى نفسى شيئا فشيئا ،،، وبعدين !!

فقال لى بلهجة سريعة مقتضبة ،، ولا قبلين .. وصلنا الإبراهيمية يا بيه ... إتفضل إنزل

فقلت له وأنا أنظر إليه بإستعطاف وإمتنان وأنا لا أكاد أصدّق إننى نجوت مما كان سيحدث لى ،،، أنزل بجد ؟

فنظر إلىّ الرجل نظرته إلى مخبول .. ثم قال لى مؤكدا ،،، إتفضل يا أستاذ إفتح الباب وإنزل

فوضعت يدى فى جيبى وأخرجت عملة ورقية لم أنظر فيها ووضعتها فى يد الرجل بيد مرتجفة ، فإنحنى السائق على صندوق صغير بجوار يده اليمنى لإخراج الباقى، وكنت أنا حينها أتسلل من السيارة، فوضعت يدى على المقبض فإنفتح بسهولة ووضعت قدمى المرتعشة المرتجفة خارج السيارة ، وشعرت بالبرودة مرة أخرى وبمجرد خروجى من السيارة أطلقت ساقى للريح وشرعت فى الركض فنادانى السائق ،،، يا أستاذ يا حضرة خد الباقى بتاعك .. خد باقى الخمسين جنيه فإلتفت إليه وأنا لا أزال أجرى بأقصى سرعة وقلت له بصوت لاهث مبحوح ،، خليهم علشانك .. ربنا يقويك .. الدنيا بقت غالية أوى والمعايش صعبة وضرورى نراعى بعض

فرأيت الرجل ينزل من سيارته ويقف بجوارها وهو لا يزال يقول

لى صارخا ،،، يا أستاذ خد باقى الخمسين جنيه .. ثم يضرب كف بكف وسمعته يقول .. لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .. الله يخرب بيوتكوا .. العيال دى بتشرب إيه !!

وبعد لحظات من الركض .. توقفت من فرط الإرهاق والتعب وأفقت فيها إلى نفسى وساءلتها ،،، ماهذا الذى حدث !! هل كان كابوس .. هل كنت نائم فى السيارة .. هل هى خيالات وأوهام .. هل هو هذيان .. هل هى حقيقة .. لا أدرى !!

ثم قلت لنفسى بصوت مرتفع ،، منك لله يا سلمى .. إنتى إللى فتحتى السيرة المهببة دى .. ثم وضعت يدى فى جيبى وتذكرت

فقلت وأنا أنفخ من الضيق وأصر على أسنانى من الغيظ ،،، يا خسارة الخمسين جنيه فى مشوار كبيره خمسة جنيه

حدوتة



رأيتها أول مرة على سِلم الكليّة

وسِلم الكليّة عندنا فى جامعة الإسكندرية لا تقتصر وظيفته على مجرد الصعود والهبوط فحسب ، بل إنى أعتقد أن هذا فى نظر روّاده ومريديه مجرد دور ثانوى إلى جانب وظيفته الأساسية وهى إستقبال الزوّار من الطلبة للجلوس علي درجاته من أعلاها إلى أدناها .. والتجمّع على هيئة شِلل تمتطى قمته المُنبسطة .. وقضاء أوقات الفراغ بين المحاضرات .. أو بالنسبة لكثيرين من الطلبة قضاء أوقات الفراغ بين أوقات فراغ أخرى تشكل فى مجموعِها اليوم الدراسى الجامعى.

كانت جميلة ولطيفة وجذابة .. وكانت تجلس بجوار إحدى صديقاتها التى كانت تداعبها بالعبث فى شعرها وكانت هى مستغرقة فى الضحك .. كنت أتابع أنا هذا المشهد من قرب ووقعت هذه الفتاة من نفسى موقع إعجاب ربما كان السبب فى هذا الإعجاب بجوار ماذكرته عنها من اللطف والحسن والجمال أقول إنها

إختصرت بملامح وجهها الجميل وجوه أخرى أحببتها .. ولم يتعد الأمر هذا .. مجرد منظر جميل أعجبنى.

وبعد وقت قصير تعرّفت عليها عن طريق صديقة مشتركة وبمرور الوقت جمعت بيننا الصداقة كما جمعت بيننا الزمالة من قبل.

يُخطىء من يتصور أن هذه اللقطات السريعة كانت بوادر قصة حب من المُحتمل أن تبدأ بعد حين ، قد يكون الأثر الذى تركه هذا المشهد فى ذاكرتى وترسّب بداخل ذهنى له دور ، ولكن هذا الدور سيتأخر فى ظهوره إلى ما يقرب من حوالى عامان أو ثلاثة أعوام .

ذلك لأننى فى تلك الفترة بالذات كنت أعانى أوجاعا نفسية ناتجة عن قصة حب فاشلة كالعادة بل إننى أبالغ إذا ما أسميتها قصة ، ذلك لأنها كانت من طرف واحد كالعادة أيضا وخلاصة هذه القصة ، إننى وقعت فى حب زميلة لى فى الكليّة كانت أقرب للخيال منها للحقيقة كانت تبدو لى وكأنها تمثال لأفروديت أو فينوس من فرط الحُسن والجمال والبهاء والرقة ، كانت تخطر أمامى فى رشاقتها الفاتنة وكأنها فراشة طائرة نسجت من كافة ألوان الطبيعة .. لون شعرها .. لون عينيها لون شفتيها .. لون بشرتها .. حتى لون ملابسها .. كانت لا تنقصها سوى فرشاة الرسّام ليسجل بألوانه ويرسم بفرشاته تلك التحفة الآدمية البديعة، التى تتنقل بين أنحاء الجامعة تنقل الفراشة بين زهور البستان فى أيام الربيع.

كنت أتمنى أن أرتمى أمامها وأحنى هامتى بين يدى سلطانها وأقول

لها صارخا بأعلى صوت .. أنتِ معشوقتى .. أنتِ حبيبتى أنتِ بهاء هذا الكون قد تجسّد فى صورة فتاة رائعة الجمال ، أنتِ سحر الحب ولذة العشق ونشوة الموسيقى وحِكمة التاريخ ، أنا أعشقك و أتمنى أن تكونى زوجتى وسيدتى فى المستقبل وإلى آخر العمر .. فهل تقبلين ؟؟

كنت أرجو من كل قلبى أن أندمج مع هذه الفتاة الساحرة فى حياة زوجية عمادها المودة والرحمة .. وأركانها العشق والهوى .. ولكن كانت الصدمة حينما إكتشفت إنها على غير دينى .

القصد .. نعود إلى صاحبتنا الأولى فبعد أن توطدت بيننا عُرى الصداقة والزمالة ومضت بنا أيام الدراسة الجامعية تزيد هذه العلاقة قوة ونضج .. ولم يتجاوز الأمر هذا مجرد زمالة وصداقة بريئة من أى هوى أو عاطفة .. وكنت دوما عند رأيى فيها زميلة جميلة ولطيفة وجذابة .

وإنقضى العام الدراسى الأول فى الجامعة وتلاه العام الثانى وكاد العام الدراسى الثالث أن ينصرم وينقضى هو الآخر ويلحق بصاحبيه .. لولا أن وقع ما لم يكن فى الحسبان.

قبل نهاية النصف الأول من العام الدراسى الثالث .. شعرت بشىء ما تجاه زميلتى تلك .. وأظن إنك تفهم قصدى عندما أقول لك شيئا ما !! إنه ذلك الشىء الذى يظل يتكون ويتجمّع ويتراكم فى القلب على مِهل دون أن يشعر به المرء ويظل ينمو فيه يوما بعد

يوم تماما كما ينمو الجنين فى بطن الحبلى ، ذلك الشيء الذى يَسهُل الشعور به و يَصعُب تفسيره أو تعليله أو إيضاح أسبابه .. إنه مثلا كأن تشعر فى حلقك بمذاق حلو ومنعش فتندهش له أول الأمر ولكنك سرعان ما تتذكر إنك أكلت شيء حلو وشهى.

كان الأمر مثل هذا تماما .. أو كان يشبه ذلك إلى حد بعيد

مع برودة الشتاء كانت تهب عليّ نسمات لطيفة وعزيزة لا تأتى إلاّ نادرا ولكنك سرعان ما تتعرّف عليها وتميّزها .

إنها نسمات الحب !! التى تنعش كل حواسك .. وتوقظ جميع ملكاتك .. وتثيرفيك الرغبة تجاه أشياء كثيرة متناقضة وعجيبة .. تغريك بالتحدّث إلى أى شخص وإثارة موضوع الحديث فى أى شيء مهما يكن تافها أو سخيفا .. تجعلك ترغب فى أن تغنى وترقص وتستمع إلى الموسيقى .. وأحيانا تدفعك إلى الصراخ أوالبكاء .. على أى شيء ؟؟ أنت نفسك لاتدرى.

ثم توحى إليك من طرف خفى أن إنتبه وتيقظ فإنك فى مرمى سهام الحب وإنك على أعتاب العالم المقدس عالم العشق والهوى وتجدنى فى تلك اللحظات وقد تذكرت صديقتى تلك وملأت صورتها خيالى، وأظل أساءل نفسى فى حيرة ودهشة أهى المقصودة؟

تعجبت أول الأمر وإندهشت ، ولكن كانت بداخلى نشوة

عجيبة ولذة مدهشة لم أستطع مغالبتها أو تجاهلها .. وكنت كلما خلوت إلى نفسى .. وكثيرا ما أفعل .. أستدعى ذلك الإحساس الرائع وأستمتع بمداعبته ومغازلته.

حتى جاء يوما خرجنا فيه جميعا أنا وهى وبقية الأصدقاء لنقضى معا آخر يوم من أيام الدراسة بعد إنتهاء النصف الأول من العام الدراسى الثالث وهو اليوم الذى يسبق أجازة نصف العام مباشرة وفى هذا اليوم على وجه الدقة والتحديد تبيّن لى تماما وتأكد لى أن ذلك الشعور الذى راودنى من قبل وأحسست به تجاهها قد تجسّم بداخلى وإتخذ أبعاد مدهشة، وأصبح من العسير تجاهله أو إنكاره .. فقد أدركت يومها إننى وقعت فى حبها وبأننى حقا مغرم بها .

أوكما يقول الأمريكان فى تعبيراتهم الدارجة Falling In Love ...

كانت يومها فى زيّها الأسود الرقيق وإجتماع بياض بشرتها مع إنسياب شعرها الأسود القصير .. تبدو لى وكأنها أميرة متوّجة على عرش الجمال والبهاء والأنوثة .. ولم يكن ينقصها سوى الحاشية والعرش وفرمان الولاية .

كان جمالها يجمع بين براءة الطفولة وإكتمال الأنوثة فى مزيج عجيب ومدهش مُحال أن لا تأسرك بفتنتها وتسحرك بروعتها .

وبدأت أجازة نصف العام الدراسى، كنت أثنائها أفكر فيها ليل

نهار لا تمر لحظة واحدة من دون أن أستدعى صورتها الجميلة من الذاكرة وأناجيها بقلبى وأبثها أشواقى ولا أشعربالملل أبدا من إستدعاء آخر مشهد جمع بيننا يوم خرجنا فيه مع الأصدقاء قبيل الأجازة مباشرة فتجدنى أتذكر فى خيالى شكلها .. صورتها .. هيئتها .. إبتسامتها .. نبرة صوتها وحديثها إلى الأصدقاء .. وحديثها الذى تسوقه إلىّ بين الحين والآخر ونطقها لإسمى .. وأقف بشريط التسجيل عند هذه النقطة .. نطقها لإسمى .. كيف نطقته ؟ وهل كانت تبتسم وهى تنطق به أم لا ؟؟

وكيف كانت حركة شفتيها وهى تنطق به ؟؟ ونظرة عينيها هل كان بها شيئا مختلفا وهى تنظرإلىّ .. أم ماذا ؟؟ وأظل أعيد فى تلك اللقطات بدون ملل أو رغبة فى التوقف ، كنت أشعر بأن تلك هى أول مرة أسمع فيها صوتها أو إن تلك هى أول مرة تنطق فيها بإسمى أو تسوق إلىّ حديث .. أعلم أنها ليست المرة الأولى وليس هذا بالأمر الجديد ولكن الذى إستجد حقا هو ذلك الشعور البديع المُرابط فى القلب .. والذى يهمس إلى النفس بين الحين والآخر بأعذب الهمسات ومع كل خفقة قلب يتنهد ويتساءل وماذا بعد ؟؟ هذا الإحساس المتربّع على عرش الفؤاد هو الذى يجدد حياتنا ويجدد نظرتنا إلى الأشخاص وإلى الأشياء.

كنت أشعر مع بداية كل يوم جديد بمذاق مختلف ونكهة فريدة لكل شىء من حولى ، كل شىء تغيّر مِرآه فى عينى فى تلك الأيام

ولم يعد كما كان .. صار مختلفا عما كان عليه من قبل .. لونه .. رائحته .. شكله .. حِكمته .. معناه .. لا أدرى !!

البيت .. الأصدقاء .. الجامعة .. الجيران .. وحتى الغرباء الذين أقابلهم فى طريقى مصادفة ، وتلتقى الأعين بالأعين وتصطدم الأكتاف بالأكتاف، وتستدير الأعناق لنعتذر عن هذا الخطأ غير المقصود ونسائل بعضنا بدون كلمات .. هل تقابلنا من قبل ؟؟

أخرج إلى الطريق أجد كل شىء من حولى مختلف ومتميّز .

الهواء الذى كنت أجده من قبل ملوّث وكريه .. صار بديع ومُنعش ويملأ الصدر بأطيب النسمات .

الشمس التى كانت تثقل علىّ بلهيبها و أشعتها الحارقة المُحرقة صارت تهبط على جسدى كحبّات الندى بردا وسلاما وتزوّدنى بدفء عجيب وساحر، يمنحنى قوة ونشاط وشعورغامض بالسلام والإرتياح .

إزدحام الطرق وإختناق المرورالذى كان يسبب لى إعياء وضيق لا يطاق .. لم أعد أشعر به أو أحس بوجوده .

الوجوه التى كنت أراها عابسة متجهّمة تعلوها غبرة .. صارت ضاحكة مستبشرة تنضح بالغبطة والأمل .

تلك الخلافات والمشادات اليومية التى تمربى والتى كانت ترهق أعصابى وتذهب بصبرى وصوابى باتت تضحكنى وأصبحت منبع

تسلية لى لا ينضب له معين ..

أقف ليلا فى بلكونة المترل فتسرى إلى جسدى نسمات باردة منعشة تسبب لى قشعريرة مستحبّة .. وأنظر إلى السماء فتبهرنى نجومها المشعة الوضّاءة .. وأرى القمر قد إزداد إشراقه وتوهّجه أو هكذا يخيّل إلىّ .. أحس حينها كأن إطالة نظرى إلي القمر وإفراطى فى التمعّن فى حسنه وجماله قد سبّب له بعض الخجل والإستحياء فأجده يُمعن فى الفرار من أمام ناظرى .. وأنا أتبعه بعينى أينما حلّ .. فرأيته يتوارى خلف السحب ويطل من ورائها فى حركة سريعة خاطفة وكأنه يُسائل نفسه ؟؟ هل لا أزال أنظر إليه وأتأمله أم شغلنى شاغل فسهوت عنه ؟؟

وكنت أنا بدورى أسائل نفسى ؟؟ هل هى أيضا تنظر إليه الآن أم تراها شغلت بجمالها وحسنها عن جمال القمر وحسنه وكنت أتخيّل مجرّد خيال .. إنما تنظر إليه هى الأخرى فى نفس تلك اللحظات فأرى نظرة عينيها قد إنعكست فوق صفحة القمرالبيضاء .. يا له من شيء بديع وراقى

وأتساءل ما الذى جعل الحياة فى عينى بهذا الجمال وتلك الروعة ؟؟ ما الذى إستجد ؟؟ هل هناك شيئا بعينه قد تغيّر؟ هل حدث مثلا شيئا عظيما غيّر مجرى حياتى دون أن أدرى !! وأعود فأجيب عن تساؤلاتى تلك قائلا إنه .. الحب .. وأتذكر حينها أغنية عبد الحليم حافظ ، وأردد مقاطعها وكلماتها تلك التى يقول فيها " الدنيا

فى عينى كانت حلوة إيه إللّى زوّد حلاوتها !! وإيه إللّى خلاّها غنوة وإيه إللّى خلاّك غنّيتها !! يا قلبى .. يا قلبى يا خالى "

بل تعدى الأمرهذا .. فيبدو لى أنه من فرط شوقى إليها ولهفتى من أجل رؤيتها قد تجسّمت صورتها بداخلى .. وصار وجودها أمرا مفروغا منه بالنسبة إلى عقلى الباطن .. فقد كنت أراها كل يوم فى منامى وأحلامى طوال فترة أيام الأجازة .

كنت أرى فيما يراه النائم أننى أقف أمامها أصارحها بحبى وحقيقة إحساسى نحوها وتقضى مشاعرى منها وطرا أعود بعدها إلى يقظتى وقد أضاف هذا الحلم نشوة مضاعفة ونكهة فريدة تضاف وتدوّن فى سِجل حبى لها.

فكأن عقلى الباطن هذا كان أجرأ وأسبق إلى إدراك شعورى نحوها والمصارحة به وإتخاذ القرار من عقلى الواعى وهكذا لم تنقضى أيام الأجازة إلاّ وقد تبيّن لى تماما إننى حقا مغرم بها بكل نفسى وشعورى.

ولكن ما كان يشغلنى طوال فترة الأجازة هذه هو الإجابة على تساؤل بسيط فى مظهره ولكنه معقد بعض الشىء فى تفاصيله وحيثياته ألا وهو .. من منّا سيذهب للقائها مع بداية الفترة الدراسية الثانية هل هو ذلك الزميل والصديق الذى عرفته وعرفها طوال الثلاث سنوات التى قضياها معا فى الجامعة ؟؟ أم سيذهب ذلك العاشق الولهان الذى إستجد فى قلبه شعورجديد لم يكن

موجودا من قبل ؟؟ فكان ينبغى أن أحسم موقفى وأحدد وأختار بدقة الوجه الذى سيذهب للقائها ...

ومع ذلك فقد بدأت الدراسة بعد إنقضاء أيام الأجازة من دون أن أحسم أو أحدد موقفى .

وصادف أول يوم من أيام الدراسة " عيد الحب " .. مجرد صدفة .. لا أدرى !!

الغرض .. دخلت يومها الجامعة مبكرا ومُسرعا .. أسعى إليها بكل شوقى لم ألتفت إلى أحد سواها و لم أكن أريد رؤية أى أحد غيرها ولو رآنى أحدهم يومها على حالتى تلك لظن أننى فقدت شيئا ثمينا وأبحث عنه بجنون وأكاد أفقد صوابى ويطيش عقلى من أجل العثور عليه .

ورأيتها جالسة بين أصدقائنا كعادتها .. وقفت منهم غير بعيد لمدة لحظات .. كنت خلالها أتأملها وأقارنها بالصورة التى كنت أراها بها فى أحلامى وكنت أهيأ نفسى للقائها والحديث معها فقد كنت أشعر بأننى مُقدم على أمر عظيم أو كأننى كنت أغالب فى نفسى شيئا ما .. تقدمت منهم .. وألقيت التحية على الجميع وعلى ثغرى إبتسامة وفى القلب أسرار تطل برأسها وتهتف بى مُحرّضة، ماذا تنتظر !! إقترب منها .. إجلس بجوارها .. تحدّث إليها .. ضمّها إلى صدرك .. قبّلها فى شفتيها إن إستطعت ..

صافحت الجميع من أجلها هى ، من أجل مصافحتها ، من أجل أن تضع يدها فى يدى ولو للحظة واحدة .. جلست بجوارها وحاولت أن أستمع إلى نصائح القلب وأسراره ، ولكن هيهات .. جاذبتها الحديث وهى غافلة عمّا إستجد فى هذا الخافق بين الضلوع .

شعرت حينها بلذة عجيبة وأنا أتأمل عينيها فى صمت وجعلت أسائل نفسى .. هل هذا المشهد الذى أحياه الآن حقيقة أم ترانى لا أزال فى أحلامى !!

كانت يومها جميلة وجذابة .. ومما ضاعف حُسنها فى عينى هو فرط إحساسى بها ولهفتى عليها .. وكان يوما رائعا.

تلا ذلك اليوم أيام .. وأنا متردد بين الإقدام ومصارحتها بمشاعرى نحوها .. وبين الإحجام والإمساك عن هذا ، وكبح جماح مشاعرى تلك ..

أما سبب الإقدام فمفهوم بداهة ..

أما سبب الإحجام فمرجعه .. رغبتى الحقيقية فى التأكد من صدق مشاعرى نحوها ثم هى زميلتى وصديقتى والعلاقة بيننا على هذا الأساس مفهومة وواضحة ولها حدودها فى هذا الإطار فإذا ما تجاوز الأمر هذا النطاق فلابد أن يكون لى العذر فى التمهّل والتريّث والإحجام والسيطرة على مشاعرى وعدم الإسراع.

إستمرت هذه الفترة ما يقرب من شهر ونصف أو شهران ولكنى بعدها إتخذت القرار

أعلم أنها فترة ليست قصيرة .. ولكن بجوار ما ذكرته من رغبتى فى التأنّى والتمهّل وإختبار صدق مشاعرى كان هناك سبب آخر .. وهو إنه على الرغم من مشاعرى الفياضة نحوها وإحساسى الجارف تجاهها .. كانت عينى لا تزال معلقة و مثبّتة على قائمة الشروط والتعليمات الخاصة بإختيار شريكة الحياة ، التى كان قد أملاها العقل علىّ من قبل ، ووافقت على كل ما جاء بها ووقعت عليها بإمضائى .

ولكن عجبا لسذاجتى وضيق أفقى وقلة خبرتى فى شئون العشق والهوى !! فمنذ متى والقلب يأبه لشروط العقل وأوامره أو يلتفت لنداءه أو يعبأ بتلبية طلباته ..

وماذا يفعل العقل أمام سطوة القلب وجبروته ونفوذه ؟؟

وما حيلتى أنا بينهما ؟؟

فلم يكن أمامى سوى إنكار كل ما سبق وأقررت به فى تلك القائمة .. وإتهمت عقلى بتزوير إمضائى عليها ، وتجاهلتها تماما وإنجرفت مع القلب فى تياره وأسلمت له زمامى يذهب به ويجىء كيفما أحب ، مع علمى بأنه مركب خطر، ولكن هكذا يكون سلوك المُحبّين وديدن العاشقين ، فكان ما أحمله فى قلبى تجاهها

كافيا ليزوّدنى بالطاقة اللازمة لمصارحتها بمشاعرى نحوها.

وإليك نص الحوار الذى دار بيننا فى أحد أيام الدراسة فى الجامعة :-

أنا ... كنت عايز أعرف رأيك فى حاجة مهمة

هى ... حاجة إيه ؟؟ خير

أنا ... لو فى واحد مُعجب بواحدة ولكن مشاعره دى لسّة ما وصِلتش للنضج الكافى .. فهمانى ؟؟ يصارحها بقى بمشاعره دى ولا يحتفظ بيها لنفسه لغاية ما يتأكد ؟؟

هى ... لأ يصارحها بمشاعره

شعرت بإرتياح عميق بعد سماعى لرأيها هذا وقلت لها وقد شجّعتنى إجابتها تلك على الإستمرار ومتابعة الحوار .. طيّب هوّ طبعا مِن الممكن لمشاعره دى تِوصل للنضج الكافى وتبقى حب حقيقى ، بس نِفترض إن ده ما حصَلش أو تخيّلى إن الصورة إختلفت بعد الموافقة المبدئية على العلاقة .. تفتكرى إزّاى ممكن ينهى العلاقة من غير ما يتسبب فى جرحها .. ومن غير ما يخسروا بعض ؟؟

هى ... يصارحها بكل ده ببساطة .. ويستمرّوا بعد كده أصدقاء

غمرنى شعور بالإطمئنان و الإرتياح المهدّىء للأعصاب بعد هذا الحوار القصير.

فقد مهّدت دون أن تدرى بإجابتها تلك الطريق إلى مصارحتها، فقد كنت أشعر قبل حديثى هذا معها بوجود فجوة عميقة بينى وبينها ستجعل من المجازفة والمخاطرة مصارحتها خشية السقوط ، ولكن بعد كلامها هذا شعرت بأنها ألقت على هذه الفجوة قنطرة أو لوح خشبى متين أو شىء من هذا القبيل لردم تلك الفجوة ، وكأنها أوحت إلىّ من طرفٍ خفى .. هلم إلىّ .. أعبُر .. فالطريق ممهّد .. لا تخشى الزلل .. أو هكذا خيّل إلىّ

كان من ترتيب السيناريو الذى وضعته أنا من قبل .. أن أصارحها بعد ذلك بحبّى .. وأضع يدها فى يدى .. وأقول لها إنك أنتِ المقصودة بهذا الأمر، ولكنى أمسكت عن هذا ، وشعرت بذلك الشىء الذى يشعر به عادة المحبّين عند المصارحة بمشاعرهم سمّه حياء .. سمّه حرج .. سمّه حذر.. لا أدرى !!

كل ما هنالك إننى إكتفيت بهذا القدر من الحديث عند هذه النقطة ونظرت طويلا إلى الأرض تحت أقدامى وكأننى أخفى شيئا ما لا أريدها أن تراه فى عينى ، ثم رفعت رأسى ونظرت إليها وأخبرتها أن هذا الأمر فى الحقيقة يخصّنى أنا ، فإبتسمت إبتسامة جميلة أشرق لها وجهها كله وكأنه قطعة من القمر، أو كأن هذا الوجه قد صيغ من النور والثلج .. فلم أتمالك نفسى أن بادلتها أنا أيضا بإبتسامة مثلها وهى تسألنى بإلحاح عمّن تكون تلك الفتاة التى أحببتها، ولكنّى فى الحقيقة كنت قد إستنفذت آخر جرعة من

جرأتى فى ذلك اليوم ، فقررت تأجيل المصارحة إلى يوما آخر...

وسرعان ما جاء هذا اليوم الآخر، وكان اليوم التالى له مباشرة .. وصادف أنه كان يوم خميس و لم أكن موجودا يومها بالجامعة و لم أطق صبرا للإنتظار إلى يوم السبت لرؤيتها ومصارحتها فكلمتها يومها تليفونيا و كان هذا هو نص الحوار:-

أنا ... إزيّك .. أنا إسلام

هى ... آه .. إسلام إزيّك .. عامل إيه ؟؟

أنا ... الحمد لله كويّس .. أنا كنت عايز أقول لك حاجة مهمّة

هى ... قول

أنا ... أنا بحبّك يا ...

هى بإندهاش ... إيه .. إنت إيه !!

أنا ... أنا بحبّك

هى بلهجة متسائلة ... يَعنى الكلام بتاع إمبارح كنت أنا المقصودة بيه .. صح ؟؟

أنا ... أيوة .. أنا كنت أأقصدك إنتِ

و لم أرغب فى معرفة رأيها هكذا عن طريق التليفون ، فقد لجأت إليه كوسيلة للإبلاغ فقط .. لأنّى لم أطق صبرا للإنتظار وتلك الكلمات تحترق فى جوفى .. ولكن من السخف أن أسمع رأيها

هكذا هاتفيا وكأنها فى بلد وأنا فى بلد آخر، فأنهيت معها المكالمة ولنا لقاء قريب فى الجامعة ...

وإنطلقت لأقضى أسعد يوم فى حياتى كلها .. ومن أسعد حالا !! فوق هذه الأرض .. وتحت قبة السماء .. وبين تلك الكائنات والموجودات الفانية مِن إنسان همس لتوّهُ فى أذن حبيبته بأنه يُحبّها ..

لذلك كنت أشعر يومها بأن الأرض قد ضاقت بما رحبت على أن تسعِ ما بقلبى من سعادة وفرح ...

أمّا هى فلم أكن أدرى حينها شيئا عن شأنها .. ولكن يبدو أن ضِحكاتها الصاخبة المجلجلة ، وسخريتها اللاّذعة كانت مدوّية وهى تتخيّل مدى سعادتى الوِهمية بتلك الكلمات الساذجة الجوفاء التى ألقيتها على أذنيها منذ قليل .

ذلك لأنّها فطنت إلى شيء غفلت عنه أنا فى مفهوم السعادة فلكى تكتمل عناصر السعادة لا يكفى أن أهمس لمن أحب بأننى " أحبك " وكفى .. ولكن ينبغى أيضا أن أسمعها منها .. وهذا ما لم يحدث أبدا

فكان للأسف طلب ... قوبل بالرفض

ومحاولة يائسة ... باءت بالفشل

ومشاعر وليدة ... لم يقدّر لها حياة طبيعية

شعرت بحزن عميق ليس للرفض فقط .. ولكن لشديد حرصى على إختبار تلك المشاعر الوليدة ، وإتاحة المجال أمامها فهى لا تصادفنا كل يوم .. وأيضا لأن الرفض يضعنا فى وضع المواجهة مع النفس ويطلب منا إعادة الحسابات فى كل شىء.

فالرفض وما يتبعه من حرمان يكون بمثابة بوادر الثورة وإشعال فتيل الغضب والسخط على كل شىء .. والإيذان بتغيير وتبديل كل شىء .. والإطاحة بكل شىء .

وبالرغم من ذلك .. فقد إستمرّت صداقتنا بعد هذا وأظنّها لم تتأثر بما حدث بيننا .. بل أعتقد إنّها إزدادت قوة وعمق ونضج .

وإنتهى الفصل الدراسى الثانى وجاءت عطلة نهاية العام ومرّت شهورها الثلاثة بطيئة وثقيلة .. وبالطبع من دون أن أراها أو أتحدث إليها .

ولكن كل يوم يمر كان يؤكد لى أن الأمر لم ينتهى عند هذا الحد وما كان له أن ينتهى والقلب لا يزال غارقا فى عِشقها و لم تفتأ خفقاته تهتف بإسمها .. وكانت كل لحظة تمرتقسم لى بغليظ الأيمان بأننى لا أزال أحبها وأنها لا تزال فى قلبى .. وإن إحساسى نحوها متدفق كما كان لم يهدأ و لم يستقر، وأحسست بأن مشاعرى تلك قد خرجت عن طورها السابق وهى على أعتاب مرحلة جديدة.

وبدأت الدراسة فى العام الدراسى الرابع وتقابلنا فى الجامعة

وشعرت بأننى قد نسيت تماما عرضى السابق وما قوبل به من رفض وما سبّب لى من ألم وتحدثت إليها بإسلوب فيه كثير من الجرأة والصراحة والوضوح ليس بينه وبين إعادة المصارحة بحقيقة شعورى نحوها إلاّ القليل .

أذكر أنه دار بيننا حديث فى يوم من أيام الدراسة فى الجامعة كنا واقفين بجوار السور الحديدى المواجه لمبنى الدراسة الخاص بكليّتنا والذى كثيرا ما كنا نقضى أوقاتنا بجواره .. كان قلبى يومها ينتفض داخل صدرى على حد تعبير بعضهم كعصفور بللته قطرة من ماء الندى من فرط السعادة والنشوة لمجرّد وقوفنا معا دون أن يكون لنا ثالث ، كان الحديث بيننا يتصل حينا وينقطع حينا آخر إلى أن قالت لى .. إنها تشعر هذه الأيام ببعض الضّيق والملل وهذا بسبب وقت الفراغ الكبير الذى تعجز عن ملأه فى أغلب الأحيان .. ودون أن تجد ما يشغلها فيه .. وهكذا فهى تكرر نفس الأعمال التى تقوم بها فى كل يوم وإنه لا يوجد جديد كما يقولون مما جعلها فى هذه الحالة الخانقة من السأم والضيق.

فقلت لها ولا أدرى لماذا إنطلق لسانى بهذا الكلام أو مالذى جعلنى أدفع بدفة الحديث إلى هذا الإتجاه .. قلت لها مامعناه إننى لا أشعر بهذا مطلقا أتدرين لماذا ؟؟

فأجابتنى بأنها لا تدرى !!

فقلت لها .. لأننى أحب ودائما فى حالة عِشق، والحب عندما

يملأ قلوبنا فإنه يجدد نظرتنا إلى الحياة وإلى الأشياء فلا يجد السأم والضيق إلى نفوسنا سبيلا .

قلت لها هذا ونظرت إلى عينيها الواسعتين نظرة قصيرة فى شىء من الخجل ربّما لجرأتى تلك وعفويتى هذه فى الحديث معها ، كانت عينى تقول لها .. إن هذا الحب بداخل قلبى أنتِ سببُه، فأطرقت فى صمت وإرتسمت على شفتيها إبتسامة جميلة سرعان ما أزالتها ووجّهت دفة الحديث إلى ناحية أخرى ... فجاريتها إلى ما أرادت ...

إن الحب عندما يملأ قلوبنا تستخِف بنا الفرحة ويجعلنا ننسى أو نتناسى ما يحسن بنا فعله وما لا يحسن فعله .. يجعلنا لا ننظر فى العواقب .. ويجعلنا نتهافت على ما يريده القلب ولا نحفل بما يَجمُل بالعقل والمنطق .

ذلك الكيان الرقيق العجيب الذى لا نعلم له قواما عندما يتنكب قوسه ويُلقى بسهامه علينا فتخترق قلوبنا .. لا ندرى ماذا حلّ بنا !! ننظر إلى كل شىء فنجده جديد كل الجدّة كأننا لم نكن نراه كل يوم ، أو كأنّه إزين لنا خصيصا ليبهر أبصارنا ويجذب قلوبنا ويرضى أذواقنا وليتواكب مع ما إستجد بداخلنا من إحساس ومشاعر ، وعلى قدر الحب بداخلنا ، على قدر الجدّة التى نبصر بها الأشياء ونحرك على أساسها الأحداث

من منطلق هذه الفلسفة أو تلك الرؤيا الذاتية للأحداث

والأشخاص وجدت أنه لا بأس من مصارحتها وإعادة طلبى للمرة الثانية

ولكن حظى لم يكن فى هذه المرة خيرا منه فى المرة السابقة وإليك ما حدث بالتفصيل

كانت ليلة من ليالى شهر رمضان المبارك و كنت جالسا مع أصدقائى فى إحدى المقاهى نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث وإذ بى فجأة أنسحب من بينهم وتحملنى قدماى إلى أقرب تليفون لمهاتفتها ، ذلك لأنه فى النصف الثانى من شهر رمضان يُعتبر فى عُرف طلبة الجامعة أجازة تسبق أجازة العيد وتضاف إليها ، فلم أكن أراها و لم أطق صبرا للإنتظار ثلاثة أسابيع حتى تنتهى أجازة العيد ، لذلك إختصرت المسافة الزمنية والمكانية بينى وبينها .. ووجدت نفسى أطلب رقم تليفونها وأنتظر بشغف سماع صوتها على الطرف الآخر ...

أنا ... إزّيك

هى ... الحمد لله كويّسة

أنا ... كنت عايز أكلمِك فى موضوع مهم بس مش بلاقى فرصة مناسبة فى الكليّة

هى " وأنا اتخيلها تبتسم " ... موضوع إيه ؟؟

أنا ... لمّا أشوفك هتعرفى

هى ... طيّب أنا نازلة مع فلانة وفلانة زمايلنا فى الكلية الأسبوع ده .. لو كده نتفق ونتزل مع بعض

وإنتهت المكالمة ... وكدت أن أطير من الفرحة

فهى بالتأكيد تعرف الموضوع الذى أريد أن أتحدث معها بشأنه .. وهاهى قد وافقت على أن نتقابل وبالتالى فهى على إستعداد لأن تسمع .. ومن يدرى !! فربما تضمر النية لقبول طلبى .. وإلاّ فعلام الموافقة وفيم كان الترحيب باللقاء !!

ولكننا لم نتقابل كما وعدتنى ...

وهى لم تعر طلبى هذا أدنى قدر من الإهتمام .. أتريد أن تعلم ماذا حدث على وجه الدقة ؟ لقد تقابلت هى وصديقاتها بالفعل وكانت كل واحدة منهن قد واعدت صاحبها .. حتى هى كانت قد واعدت صاحبها على اللقاء .. وبالتأكيد لم أكن أنا هذا الرفيق وإنما شخصا آخر

أخبرنى بهذا صديق قريب وثقت بكلامه لأنه كان أحدهم فى هذا اللقاء فى حين كنت أنا الغائب .

شعرت بنار إضطرمت بداخلى .. نار هى مزيج من الألم والدهشة والغضب وخيبة الأمل ، وجعلت أسائل نفسى وأنا أكاد أجن وأتميّز من الغيظ .. لماذا حدث هذا !! إننى لم أخطىء فى شىء .

لماذا يسقط منّى كأس السعادة دوما فى اللحظة الأخيرة ويراق ما بداخله أمام عينى كلما تناولته ودنوت به من شفتاى .. لماذا ؟؟

كنت قد سمعت من صديقى هذا قبل أن أصارحها للمرة الثانية إنها قد إرتبطت عاطفيا بأحدهم وإنها لم تعد خالية العهد فارغة الفؤاد كما كانت من قبل إلاّ إننى شككت فى هذا الكلام لأننى لم أر له سند من الواقع يؤكده ويدعمه، وتأكدت إننى كنت على حق فى ظنى وتقديرى هذا لأننى سألتها قبل مصارحتها للمرة الثانية عن موقفها العاطفى فى هذه الأيام فأكدت لى إنها ليست مرتبطة بأحد .. مما شجعنى على تكرار طلبى وإعادة المصارحة .. فلماذا حدث هذا إذن ؟؟

أكون كاذبا إذا قلت إنها وعدتنى بشىء يمنحنى حق مطالبتها بتنفيذ ما وعدت به .. ولكن ، لماذا لم تصدّنى وتحول بينى وبين المضى فى طريقى هذا ؟؟

عندما أحببتها صارحتها هى بجى لم أجعل بينى وبينها وسيط ولو لمجرد التمهيد .. وعندما رفضت طلبى إنسحبت من أمامها كأى إنسان مهذب وإتفقنا على أن نظل دوما أصدقاء وعندما أردت أن أتأكد من موقفها العاطفى سألتها هى و لم أقتنع بكلام صاحبى على الرغم من قربه منّى وثقتى فيه.

كنت صادقا معها .. فلماذا لم تكن صادقة معى ؟؟

لماذا لم تحترم مشاعرى ؟؟

ليس من حقى أن أطلب منها الحب إذا كانت لا تستطيعه ولكن أظن أن من حقى أن أطلب منها إحترام مشاعرى على الأقل.

أى إهانة ألحقتها بى هذه الفتاة عندما واعدت صاحبها على اللقاء فى نفس اليوم وفى نفس الوقت وربما فى نفس المكان الذى كان من المفترض أن نتقابل فيه .

تألمت لإحساسى بأننى شيء صغيروتافه لا وزن له .. لا يَحفل به مَن حوله .. وتضاعف ألمى لأنه أصابنى ممن كنت أنتظر منهم الرأفة والعطف .

وعلى الرغم من هذا فقد تحاملت على نفسى وتحدثت معها عن طريق الهاتف بعد هذا الذى عرفته من شأنها و كلمتها بصوت هادىء يشوبه الألم وينطوى على الغضب .. وسألتها لماذا لم نتقابل ؟؟ ولماذا لم تعر طلبى أدنى إهتمام ؟؟

وكان ردها بأنها كانت مشغولة فى أمور أخرى جعلتها تسهو عن لقاءنا .. وأنها لا تذكر شيئا عن طلبى هذا ...

إلى هنا لم أستطع أن أخفى غضبى أكثر من هذا فحدثتها بلهجة تنطوى على الغضب والسخرية فى آن وأخبرتها بأننى سأكون فى إنتظارها وتحت أمرها .. عندما تتذكر .

ومرت الأيام وإنتهت أجازة نصف العام ، وبدأت الدراسة فى

الفصل الدراسى الثانى وتقابلنا وكنت قبل ذلك قد عاهدت نفسى على أنه مهما يكن من شأن المشاعر داخل قلبى فسوف أحتفظ بها لنفسى وسوف أحترق بها وحدى .. وأيقنت إنها كانت على خطأ عظيم عندما نصحتنى بألاّ أحتفظ بمشاعرى هذه لنفسى ...

ولكن على الرغم من هذا .. فإننى لم أرغب أو قل إننى لم أستطع أن أخسرها كصديقة جمعت بيننا الزمالة والصداقة منذ العام الجامعى الأول ، وتربط بيننا ذكريات وأصدقاء مشتركين وتفاصيل ليس من السهل نسيانها ، وصورمن العسير على النفس تمزيقها .. ولن يهون علىّ أن أنساها أو أتجاهلها وكأنها شيئا لم يكن .

شخصها هذا الذى تمنيت دوما أن أكون بالقرب منه وإنطبعت صورته داخل القلب لم أستطع أن أفقده هكذا وقلت لنفسى شىء خير من لا شىء .. من المُحال أن أتحمّل خروجها من حياتى بهذه الطريقة .. وأردت أن أحافظ على علاقتى بها كصديقة بعد أن فشلت فى إحتوائها كحبيبة .

ولكن ألهذا السبب وحده فقط إتخذت هذا القرار ؟؟ ألمجرد رغبتى فى الحفاظ على زمالتها وصداقتها وقديم صحبتها هى فقط التى دفعتنى إلى إتخاذ هذا القرار ؟ أليس هناك سبب آخر ؟

بالتأكيد كان هناك سبب آخر .. إنه ذلك السبب الذى نخجل جميعا من مجرد ذكره حتى ولو بيننا وبين أنفسنا .. إنه الضعف ..

نعم الضعف الذى يُصيبنا فى مَقتل .. الضعف الذى يورثه الحب فى القلب .. الضعف الذى يشعر به الإنسان أمام من يحب حتى فى حالة الحب المتبادل بين طرفين .. فما بالك بالحب الذى يكتوى به طرف واحد ولايكاد يشعر به الطرف الآخر أو يحس له وجود ؟؟

أتريد أن تعرف يا صديقى كيف توصلت إلى هذه النتيجة المخجلة للأسف ؟؟ سأخبرك

قبل أن نتقابل فى لقاءنا هذا الذى سأصوره لك عما قليل أذكر أننى رأيتها فى الجامعة فى أحد الأيام ولاأظنها رأتنى فقد كانت واقفة فى مكان ما يبعُد عنّى بعض الشيء .. بحيث يمكننى من رؤيتها ويحول بينها وبين رؤيتى .

وكنت كما قلت لك من قبل إننى قد عاهدت نفسى على أنه مهما يكن من أمر المشاعر بداخلى فسوف أحتفظ بها لنفسى .. إلى نهاية حديثى هذا .

وأريد أن أقول لك .. عندما يقدّم أحدنا مشاعره إلى الآخر على طبق من فضة على حد تعبير بعضهم ويتم رفض تلك المشاعر بغض النظر عن إسلوب الرفض وطريقته أقول إن رفض تلك المشاعر لا يسبب الحزن فقط ولكنه يسبب بجوار الحزن شعور عميق بالغضب والجفاء والقسوة والعناد ، ويورث مرارة فى النفس تذوب مع الوقت وتخف حدّتها مع الأيام ولكن بعد أن تكون خلفت أثرا لا يُمحى مثلها كمثل الضرس الذى تزيله بعد أن يكون السوس نخر

بداخله حتى إكتفى .. فتظل تلك التجربة المؤلمة ماثلة فى ذاكرتك ولا تزول منها على الرغم من زوال الضرس من الفم وإن كان يبدو فى الظاهر إن تلك الآلام ذهبت عبثا بلا أثر .. ولا مفر من هذه الحقيقة .. وإلاّ كانت جميع آلامنا وأحزاننا لا تزيد عن مجرّد سخرية ووهم وخداع.

القصد رأيتها يومها فى الجامعة بتلك المشاعر المختلفة المتناقضة ، وكنت فى تلك الاثناء لا أريد ستر مشاعرى بداخلى وكفى وإنما كنت أريد وبكل قوة نزع هذه المشاعر من داخل قلبى وإلقائها بعيدا عنى على طول ذراعى، أو سحقها بحذائى .. هذا إن إستطعت.

ولكن إذا إطلع علىّ أحدهم فى تلك اللحظات وأنا أنظر إليها من بعيد .. ونظر إلى عينى وأحاط علما بما يقع عليه بصرى لأيقن منهما بأقل جهد إننى واهم ومخدوع فى ظنى هذا فلقد كانت إحدى عيناى ملهوفة عليها ، مشوقة إلى رؤيتها وإختلاس النظر إليها .. لا تستطيع أن تغمض عنها ولا أن تهمل موضعها، فى حين كانت العين الأخرى لا تزال فى ثورتها وسخطها تعيد على نفسها حديث الجفاء والعناد .

وظللت على حالتى تلك حتى عدت إلى منزلى يومها .. لا أشعر بشىء .. أو قل إننى لا أريد أن أشعر بشىء .. وكأننى أردت الهروب من نفسى ومن أفكارى .. فتسللت إلى سريرى وأنا أرجو

أن يُسرع النوم إلىّ وألاّ يُسلمنى لحديث نفسى ولو لطرفة عين وبالفعل لم يخيّب النوم رجائى فسرعان ما إحتوانى بين ذراعيه وحال بينى وبين التفكيرفى أى شىء .. فأنا لا أذكر إننى إنتظرت وقتا يُذكر لكى أسقط فى هوّة النوم ولكننى أذكر جيدا إن لحظات إستيقاظى كانت طويلة ولها معنى عميق وعِبرة متصلة ودائمة.

أتدرى تلك اللحظات التى تسبق الإستيقاظ مباشرة تلك اللحظات التى يكون الإنسان فيها بجسده وذهنه ووعيه وحاضره وماضيه بين النوم واليقظة .

تلك اللحظات التى لا يكون للإنسان فيها كامل سيطرته على حواسه وملكاته وأفكاره ومشاعره وقراراته وفلتات لسانه

أتدرى تلك اللحظات ؟؟ إنها أصدق وأعمق لحظات يحياها الإنسان ...

ذلك لأنه فى تلك اللحظات، يتخفف الإنسان من حِمل ما نسمّيه سُلطان الإرادة على ملكاته وإمكانياته فيرتد إلى طبيعته وفطرته وتزول عنه كل مقاومة للحقيقة .. هذا الحِمل الذى يرتدى الإنسان بمقتضاه الأقنعة الكثيفة المتعددة التى تحجب الحقيقة ففى تلك اللحظات تتساقط جميع تلك الأقنعة .. وتبدو الحقيقة حينها واضحة جلية لا يشوبها غموض ولا يعتريها إبهام

تكون الحقيقة لحظتها واضحة ... كوضوح كف اليد فى ضوء الشمس

وكانت هذه هى حالتى عندما إستيقظت من نومى أدركت ساعتها إننى لازلت أحبّها وإننى لن أستطيع أن أنزع حبّها من قلبى كما توهمت من قبل .. وكأننى كنت أخشى أن أعترف لنفسى بهذه الحقيقة وأنا يقظان ومنتبه إلى نفسى وأفعالها وذلك للأقنعة الكثيرة التى كنت أرتديها أمام نفسى .. قناع الكرامة المجروحة .. قناع المشاعر التى لا يأبه لها أحد .. قناع الجفاء والعناد والغضب .. إلخ

ولكن فى لحظات ما بين النوم واليقظة .. سقطت تلك الأقنعة التى كانت تحجب الحقيقة .. الواحد وراء الآخر

وإستبانت لى مشاعرى الحقيقية ... كوضوح البدر فى ليلة التمام

وهزمنى قلبى شر هزيمة .. وسألت قلبى يومها كما فعل كامل الشناوى فى قصيدته المشهورة

أنت قلبى .. فلا تخف .. وأجب .. هل تحبها ؟؟

وإلى الآن لم يزل نابضا فيك حبها !!

لست قلبى إذن .. إنما أنت قلبها

وكان هذا قبل لقائنا فى الجامعة

وكنت أظن أن أول ما ستفعله هى رأب الصدع الذى حدث بيننا، وإزالة الخلاف الذى وقع ، وتطبيب الجرح الذى أحدثته بيديها وبعدها نعود كما كنا من قبل أصدقاء وزملاء دراسة لا خلاف بينهم.

ولكنها كالعادة أخلفت ظنى، فقد فوجئت بها تقابلنى وكأن شيئا لم يحدث وجاذبتنى أطراف الحديث وكأنه لم يكن بيننا خلاف أو ما يشبه المخاصمة ، وتعمدت أن تتجاهل سبب غضبى كأنها أرادت أن تقول لى .. لاتكن ساذجا .. لم يحدث شىء .. إنه مجرد ألم وجرح وإهانة خفيفة سرعان ما تزول فلننس ما حدث .. ولتعد المياه إلى مجاريها .. ونظل أصدقاء

ولكنى لم أجبها إلى طلبها .. وأوصدت دونها هذا الباب وأغلقت أمامها الطريق الذى أرادت وأعرضت عنها وتحدثت معها بلهجة لم تكن بأى حال من الأحوال تستحق غيرها وعاملتها بإسلوب لم تعتاده منى ومع ذلك فقد أحسست إننى آذيتها بسلوكى هذا فشعرت بالسخط عليها وعلى نفسى وعلى كل شىء .. وقبل أن أغادر مكانى نظرت إليها فوجدتها قد إنكمشت فى مقعدها وإستحالت إبتسامتها ذهولا ونشاطها خمولا وحركتها سكونا ذلك لأنها لم تعتاد منى على مثل تلك المعاملة .. ولكنى أردت أن أقول لها إن ألمى له ثمن، ولقد تسببتِ من قبل فى قتلى وإزهاق روحى بذلك السلاح القاسى سلاح الإهمال واللامبالاة وها أنا ذا أحاربك بنفس سلاحك .

ولكن عندما ذهبت يومها إلى منزلى، وبعد أن مرّت ساعات النهار أو المتبقى منها وحل الظلام ، شعرت بتبدّل داخلى، شعرت حقيقة بأننى لم أكن سعيدا أو راضيا عمّا حدث .. وأصابتنى حالة

من الخجل والشعور بالذنب عندما تذكرت إسلوبى فى الحديث معها ونظرتى القاسية تجاهها وإعراضى عنها .. وتحدثت إلى نفسى لائما وعنفت بها معاتبا، بأنه لم يكن من اللائق أن أعاملها بهذه الطريقة مهما كان من أمرها معى وقسوتها علىّ .. أنسيت إنها فتاة وصديقة وإنسانة ما زال حبّها متأجج بداخل قلبى ؟؟

وكأن ذهاب بياض النهار .. قد آذن بزوال سحابة الغضب من داخلى

كان فى اليوم بقية فحدثتها تليفونيا وشعرت بلهجتها الغاضبة عندما سَمَعَت صوتى ولكنى بادرتها بالإعتذارعن سلوكى معها اليوم .. وبأننى لم أكن أقصد أبدا أن أجرحها أو أسوءها .. ولكننى كنت غضبان منها حقا .

وأحسست بلهجتها تلين هى الأخرى وأخبرتنى بأنها هى أيضا لم تقصد إغضابى وأنهينا المكالمة على أن نظل دوما أصدقاء

لم أطق أن أتسبب فى إيلامها أو جرحها ولو لمجرد ساعات من اليوم فسارعت إلى إرضائها ..لم أتحمّل أن يمر اليوم من دون أن أعيد إلي وجهها الجميل إبتسامته الصافية البديعة التى طالما إشتقت إلى رؤيتها والإستمتاع بها .

هكذا يفعل المحبّون ..

وفعلا عادت المياه بعد ذلك إلى مجاريها ..

وقضينا ما تبقى من أيام فى الجامعة على أحسن حال ...

كنت أعلم أننى لا زلت أحبّها وكنت أعلم أيضا أنه بإنصرام هذه السنة سيكون من النادر أن نتلاقى أو نتقابل أو على وجه الدقة والتحديد ستنقطع تلك اللقاءات بإنتهاء الدراسة .. لذلك كنت شديد الحرص على أن لا يمر يوما دون أن نتقابل ، وكنت فى غاية السعادة بتلك اللقاءات ..

كنا نتقابل تارة فى مكتبة الكليّة .. نجلس فيها سويًا بجوار بعضنا البعض .. هى تقرأ فى كتب التاريخ الفرعونى وتقلب فى صور الآثار وغيرها وأنا أتشاغل بمساعدتها والبحث معها فيما تبحث عنه وإن كنت فى الحقيقة لا أفعل شىء سوى مجرد رغبتى فى البقاء معها والجلوس بالقرب منها وإطالة النظر إليها أطول وقت ممكن .

وكنا نتقابل تارة أخرى فى قاعة المحاضرات .. وتارة أخرى فى أحد الممرات .. كنت أشعر بالسعادة الصافية المجردة من أى غرض و البريئة من أى مطلب سوى مجرد بقائى بجوارها لا أريد أكثر من ذلك وماذا يريد العاشق أكثر من هذا !! فلكل محب نصيب .. وكان نصيبى من حبها لقاء عابر .. وسلام باليد .. وإبتسامة فى الوجه .. وآهة فى القلب الحزين ..

شعرت حينها بالألم الذى يشعر به المُحب عندما يجلس بجوار من يحب ومع ذلك يعجز عن بثها أشواقه وحبه كثيرا ما إشتقت إلى رؤيتها ولكن لم يكن إلى رؤيتها من سبيل فكنت دوما أنتظر أن

تجود الصدفة بلقاء .. وكثيرا ما إشتقت إلى سماع صوتها فكنت بين الحين والآخر أختلس فرصة أو مناسبة لأحادثها هاتفيا، وأتعلل بأى سبب لمجرّد سماع صوتها ذلك لأننا إتفقنا على أن نظل دوما أصدقاء .. وللصداقة حدود .. وأنا كنت ولا أزال أعرف حدودى جيدا .

تخيّل معى الحب ذلك الكيان الأهوج الطائش الهمجى والمجنون فى أغلب الأحيان الذى لا يعترف بالحدود ولا يؤمن بالعوائق والعقبات ولا يأبه بالفوارق والمسافات .. تخيّل معى عندما نضع فى سبيله الحدود والإشارات ، ونقيّده بالمكابح والعلامات ...

إن المنارة على شواطىء البحار تهدى السفن فى مسيرها وإرسائها .. ولكن منارتى أضلتنى و لم تهدنى السبيل

إن الحب بلا أمل شعور مؤلم .. ولكن ما يُضاعف إيلامه هو عدم وجود قلب يشعر بك أو يحس بوجودك ..

كان لسان حالى معها فى تلك الأوقات دليل صدق على قول الشاعر الشريف الرضى حين قال ...

الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك غير مدمعى الباكى

كثيرا ما تفقدت مواطن ذكراها سواء داخل الجامعة أو خارجها، وكنت أمر دوما بالأماكن التى جمعتنى بها منفردين أو مع بقية الرفاق فتطغى علىّ ذكراها وتزداد لهفتى عليها وكنت أتمنى حينها لو عاد بى الزمن إلى الوراء وتكررت تلك المشاهد والأحداث التى جمعتنا سويّا

.. وأن يتوقف عندها الزمن ولا يأتى حِراكا ..

وكنت أتغنّى دوما مع الشاعر حين قال ...

قد يهون العمر إلاّ ساعة   وقد تهون الأرض إلاّ موضعا

ولكن كما قلت لك يا صديقى من قبل .. لكل مُحب نصيب

إنتهت الحدوتة

على الهامش

أنا أعلم أن كل ما ذكرته هنا فى هذه الحدوتة قد لا يثير خيال الأكثرين ، و لا يرضى أذواقهم .. ذلك لأن ما ذكرته قد لا يُذكر قياسا بقصص الحب التى يكون أبطالها فتيان درجوا على معاملة الفتيات وتمرسوا على إجتذابهن ومشاغلتهن .

وهم على حق فى هذا .

ذلك لأنهم ينظرون إلى كم الأحداث والمغامرات والمفارقات التى تنطوى عليها قصة الحب ، أمّا أنا فإننى أنظر إلى كم المشاعر التى إنتفض لها قلبى وذهنى وعقلى .. أنظر إلى كم الأحاسيس التى أثلجت فؤادى وألهبت جانبى .. أنظر إلى كم اللهفة والشوق والنشوة واللذة التى كنت أشعر بها عندما أراها أو أسمع صوتها أو أستدعى صورتها من خيالى لأناجيها ..

وأى إحساس يشعر به الإنسان فهو قيمة فى حد ذاته .. وحدث

هام فى حياته لا يصح أن نتجاهله ...

وبعد ... فهى كما قلت لك من البداية إنها مجرد حدوتة لا أكثر ولا أقل يأخذ بها من يأخذ ويَعرض عنها من يُحب ونأسف عن إضاعة وقته فى قراءتها ..

ميت على قائمة الإنتظار

المشهد الأول

الناس يجتمعون أمام بوابة المقابر فى إنتظار العربة التى تحمل الفقيد ، ينقسمون فيما بينهم إلى فريقين رجالا ونساءا ، أما النساء فمتشحة بالسواد ما بين باكية فى صمت مرير ومعددة بصوت يرتفع إيقاعه تدريجيا ، وصرخة تصدر من إحداهن بين الآونة والأخرى سرعان ما تكتمها تحت ضغط و إلحاح نظرات الرجال الرادعة، أما الرجال فواقفون فى صمت وقور حزين ينتظرون وأغلبهم يجاهد لحظات الإنتظار الكئيب بحرق السجائر التى يخرج دخانها ممزوجا بكلمات وأحاديث تقليدية فى أمثال تلك المواقف.

وبعد ساعة أو أقل من ساعة على وقفتهم تلك ، أقبلت عليهم العربة الطويلة الكئيبة التى يوحى منظرها بالشؤم ويثير أبشع الذكريات ويهيج مياه الحزن الراكدة فى قاع النفس والتى لاتحوى فى باطنها سوى اللفافات البيضاء التى تغلف الأموات ، فهى بمثابة قبر متحرك أو قبر مؤقت ، سار وراءها عشرات من الأشخاص مابين شباب ورجال وشيوخ مطأطئين الرؤوس حانى الهامات فى مشهد صامت حزين وموقف خاشع يطوى الأنين ومصير موعود به إبن

آدم وهو لايزال جنين، ودلفت العربة إلى داخل المقابر ومن خلفها الجميع وسرعان ما هجم الرجال هجمة رجل واحد على العربة فى تناسق فطرى عجيب أوحى به جلل الحدث، وإنتزعوا من داخلها اللوح المعدنى الذى يحمل اللفافة البيضاء ووضعوها على الأرض أمامهم ، وإصطف الرجال جميعهم فى لحظات لتأدية صلاة الجنازة فى حين إنتحت النساء جانبا باكيات صارخات معددات مولولات بعد أن ذهلت عنهن أعين الرجال.

فرغ الرجال من صلاتهم ، وحملوا اللوح المعدنى الذى إستوت فوقه اللفافة البيضاء فوق الأكتاف والأعناق ، وأخذوا يستحثون أنفسهم وأقدامهم ويتفاهمون فيما بينهم بمجرد النظر وكأنهم يتحدثون بلسان واحد ويستمعون بأذن واحدة " هيا بنا يا جماعة لا ينبغى التأخير ، فإن إكرام الميت دفنه ، إستديروا به من هنا .. نعم هكذا .. إجعلوا رأسه إلى الأمام .. إلخ " وسار الرجال بين ممرات المقابر يحملون فى المقدمة اللفافة البيضاء ، ومن يراهم فى تلك اللحظات من علِ يشعر وكأنها جماعات من النمل الأسود تحمل فى مقدمتها حشرةً بيضاء أو ما شابه ذلك، وقادهم أحد عمال المقابر وهو ينبههم بين الآونة والأخرى " من هنا ياجماعة .. حذار هذه المقبرة فإنها مفتوحة، نعم من هنا .. إنتبه إلى هذه الصبّارة لا تدوسوا عليها بأقدامكم .. إنتبهوا " وبلغ الرجال المقبرة وقد إلتفت من حولها نساء الفقيد مع بعض الشيوخ .. فى حين وقف عامل المقابر داخل المقبرة المقصودة وسرعان ما تناول اللفافة البيضاء من بين أيدى الرجال وإستقبلها برأسها فهو تماما كطبيب الولادة الذى يستقبل المولود برأسه مع فارق بسيط فهذا يستقبل حى فى حين إن

هذا يستقبل ميت .. ووضع العامل اللفافة داخل القبر وإختفى لحظات عن الأنظار ثم أخرج رأسه و لم يبدو على ملامح وجهه أى إنفعال أو تأثر لما حدث .. فهذا هو عمله ومصدر رزقه وطالما إنتهى الصراع داخل ذهنه بغلبة العادة وتراجع دور الدهشة .. ثم خرج منها وسد فتحة المقبرة بلوح حجرى مربع الشكل وسد الثغرات والفتحات الجانبية ببعض الحجرات الصغيرة ثم أهال التراب الأصفر من فوقها وناوله أحدهم برميل مياه صغير فسكبه فوق التراب حتى إستحال إلى عجينة سوداء تشبه المونة ، أخذ بعدها يسوى فيها بقدميه ويديه حتى تساوت بأدم الأرض ذلك الذى كان يظنه أبا العلاء من قبل إنه من هذه الأجساد.

وإلتف الجميع حول المقبرة ، وعلاهم شيخ مسن ، يرتدى جلباب أزرق داكن من فوقه جاكتة بنية اللون ونظارة سوداء غليظة وأخذ يشتد ويلين فى الدعاء والإستغفار.

إن هذا الرجل يا إخوانى قد إنقطع اليوم عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له إنى داع فأمنوا

اللهم ثبته عند السؤال فأنت الذى تثبت الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة

يا عبد الله إذا سئلت عن ربك فقل بلسان طلق ربى هو الله

وإذا سئلت عن دينك فقل بلسان طلق دينى هو الإسلام

وإذا سئلت عن الرجل الذى بعث فيكم فقل بلسان طلق هو محمد بن عبد الله

اللهم أسألك أن تغفر له ذنوبه وأن تتجاوز عن سيئاته وأن تمحو له زلاته

اللهم إنى أسألك أن تستره تحت الأرض كما سترته فوق الأرض

اللهم إن كان محسنا فجازيه خيرا بإحسانه وإن كان مسيئا فتجاوز عن سيئاته

اللهم إنى أسألك أن تجعل قبره روضة من رياض الجنة وأعوذ بك يا ذا الجلال من أن تجعله حفرة من حفر النار

اللهم إنى أسألك أن تجعل هذا اليوم هو أسعد أيامه يوم أن يلقاك فيه يا أرحم الراحمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وتفرق الجميع آحادا وأزواجا .. وهرع بعض الرجال إلى بوابة المقابر وهم يهمسون بعضهم لبعض أن العزاء على باب المقابر وسرعان ما إصطف أقارب الفقيد الأدنون عند باب المقابر يتلقون العزاء ومر من أمامهم الجميع وصافحوهم وهم يتبادلون فيما بينهم تلك العبارات التقليدية المألوفة

البقية فى حياتك .. حياتك الباقية

البقاء لله .. ونعم بالله

الدوام لله وحده .. سعيكم مشكور

المشهد الثانى

{ من داخل المقبرة بعد ثلاثة أيام }

اللفافة البيضاء قمتز وترتج وتتمايل وتتثنى وتتلوى بصورة مدهشة وعجيبة لو رآها أحد الأحياء لولى منها فرارا ولملأ منها رعبا ، والرجل بداخلها يهمس لنفسه وكأنه يستيقظ من نوم عميق أو من غفوة خاطفة بعد وجبة عشاء ثقيلة .. ما هذا !! من وضع هذا الغطاء الثقيل فوق وجهى !! أكثر من مرة أحذرهم ألا يفعلوا هذا لأننى أشعر بالإختناق والضيق ولكنهم يقولون لى دوما نخشى عليك من البرد .. أغبياء .. ومالهم هكذا أحكموا الغطاء من حولى وكأهم يضعون ميت فى كفن ومالى أنا هكذا خامل وأطرافى خائرة ولا أستطيع الحركة .. أنا ضائق أشد الضيق بهذه الرقدة .. أين أنا ؟؟ هل هى غرفتى أم غرفة الأولاد ؟؟ وما هذا الظلام الشديد وما هذه البرودة القاسية !! أين أنا ؟؟ يا مريم .. يا مريم .. أين هى ؟؟ ألا تسمعنى !! أتكون مشغولة فى المطبخ كعادهّا .. ولكن لماذا لاتسمعنى أم أن صوتى لا يصل إليها ولا يبلغ أذنيها .. هؤلاء الأغبياء وضعوا الغطاء فوق فمى وأنفى هل يريدون حقا حمايتى من البرد أم يريدون قتلى مخنوقا .. يا يوسف .. يا أدهم .. أين الأولاد ؟؟ هل لايزالون نائمين إلى الآن .. أم ذهبوا إلى مدرستهم .. كم الساعة الآن ؟؟ هل نحن بالليل أم بالنهار ؟؟ ما هذا الذى يحدث ؟؟ أنا لا أستطيع الحركة ولا أستطيع النداء ولا أدرى أين أنا ولا أعرف

كم الوقت الآن !! وهذا الغطاء المحكم من حولى كالجاكتة الجبس .. تبا لهذه الرقدة البشعة المؤرقة المرهقة ، هل أنا فوق سرير من قطن أم من حصى !! أين أنا ؟؟

وظل صاحبنا هذا يجاهد اللفافة البيضاء ويكافح الغطاء الثقيل من فوق وجهه وجسده حتى تمكن أخيرا بعد لأى من تحرير إحدى ذراعيه وكشف عن وجهه الغطاء .. وسرعان ما صدمت أنفه رائحة عفنة خانقة وعطلت عينيه ظلمة حالكة قاتمة .. فأحس برجفة شديدة هائلة وفزع عظيم ، وأخذ يتحسس جسده ووجهه وهو لا يزال لا يدرى أين هو وأخذ يتساءل بصوت مسموع وبنبرة خافتة خائرة .. أين أنا ؟؟ وما هذه الرائحة العفنة البشعة !! وما هذا المكان ؟؟ لا يمكن أن يكون هذا هو بيتى .. أين مريم وأين الأولاد .. ماذا حدث ؟؟ أنا .. أنا .. آخر ما أذكره إننى شعرت ببعض التعب والإرهاق بعد عودتى من العمل وبصداع شديد مؤلم وأحسست بجسدى خائر وضعيف فأخذت دواء السكر ذهبت بعدها فى النوم وهى طريقتى المعتادة لمواجهة هذه النوبة المرهقة .. ولكن ماذا حدث بعد ذلك .. أنا لا أدرى ولا أذكر

وفى أثناء تفكيره هذا وتلفته يمنة ويسرة فى ذعر وقلق إصطدمت إحدى يديه بالأرض من تحته فلامس التراب والحصى فصرخ صرخة عالية مدوية .. أين أنا ؟ ما هذا التراب وما هذه الرائحة العفنة الكريهة وما هذه البرودة الشديدة التى لا يقينى منها هذا الغطاء

الثقيل الغليظ .. وأين ملابسى ؟؟ وما هذه الظلمة ؟؟ أنا أشعر وكأننى نائم فى قبر .. ثم تمهل قليلا بتفكيره عند هذه النقطة وصرخ صرخة عالية مدوية كادت أن توقظ الأموات الراقدون من حوله وتزعجهم عن مضاجعهم القبر!! أنا فى قبر !! لماذا ؟؟ هل أنا توفيت دون أن أدرى !! لماذا دخلت القبر ؟؟ هل أنا ميت ؟؟ أيكون هذا هو الموت ؟؟ من يدرى !! ولكن .. لا .. لا .. أنا لست ميت ، أنا حى، نعم أنا حى ، أنا لم أجرب الموت من قبل حقا ولكنى جربت الحياة وأعلم يقينا بأننى حى .. أنا حى .. فلماذا إذن دخلت القبر !! كل ما أذكره إننى شعرت ببعض الصداع والإرهاق فذهبت إلى النوم وبعدها أستيقظ لأجد نفسى داخل قبر !! لماذا !! هل فى زماننا هذا الذى يشعر ببعض التعب والإرهاق يذهب توا إلى القبر .. كيف هذا ؟؟ ولكن ما العمل الآن ؟ كيف أخرج من هنا ؟ أنا لا أعرف أين هى رأسى من قدمى ولا أدرى أين هى فتحة المقبرة ، يا نهار أسود .. نهار أم ليل !! والله لا أدرى .. لماذا حدث هذا ؟ وكيف حدث ؟؟ كيف وضعنى أهلى وأسرتى وأصدقائى فى هذا المكان ؟ ولماذا تركونى هنا وحدى ورحلوا من دونى ؟ أهنت عليهم إلى هذا الحد ؟؟ ولكن .. ماذا أفعل الآن ؟ هل أصرخ بأعلى صوتى مستغيثا وطالبا للنجدة ؟ولكن هل سيسمعنى أحد فوق الأرض وأنا هكذا تحتها ؟ ولكن لماذا أنا الآن تحت الأرض وهم فوق ؟ ولكن لا مفر .. سأحاول .. لاسبيل أمامى سوى المحاولة ، يا ناس يا هو .. إلحقونى إنجدونى إسعفونى .. أنا هنا تحت الأرض أنا لست ميتا ..

أنا حى أنا حى .. لماذا وضعتمونى هنا ! لماذا! يا نهار أسود .. لافائدة .. يجب أن أعتمد على نفسى لدفع هذه البلوى وصرف هذه المصيبة السوداء.

أين هى فتحة المقبرة ؟؟ إنهم على حد علمى يدخلون الميت إلى جوف المقبرة من رأسه .. إذن فرأسى أنا فى آخر المقبرة وقدمى هى التى عند مدخلها .. الحمد لله الذى هداهم إلى هذا الحل .. هذا سيسهل المسألة علىّ وييسطها كثيرا .. لأنه لو كان العكس لتطلب منى الأمر حينها الشقلبة فى داخل المقبرة لجعل قدمى عند مدخلها حتى أستطيع دفعها .. والآن لابد من تحرير قدمى حتى يتسنى لى دفع فتحة المقبرة

وأخذ الرجل فى تحرير قدميه من اللفافة البيضاء الثقيلة وبعد نجاحه فى الإفلات من هذا القيد بشق الأنفس أخذ يتحسس بقدميه الأرض من فوقه عله يجد نتوء أو ثغرة أو ما شابه يصل منه إلى غطاء الفتحة ، ولكنه لم يجد شىء .. أخذ يتحسس الأرض بيديه وقدميه ولم يجد شيئا ، وهكذا لحظات .. فإنتابته حالة عصبية جنونية وظل يصرخ بأعلى صوته ويضرب الأرض من فوقه بيديه وقدميه وبمنتهى القوة والعنف وقد إشتد هياجه وخوفه وفزعه .. وفى أثناء ذلك إصطدمت قدمه بجزء من الأرض فوقه فأحس بأنها أجابته بصوت مختلف عن باقى النواحى ، وأنها طبقة أرق من غيرها وأكثرهم لينا وأقربهم إستجابة لداعى النجاة ، فهدأ قليلا وعاد يتحسس هذه

النقطة من الأرض بقدميه .. وضربها ضربات رفيقة متأنية وكأنه يجسها حتى إستشعر بأنها من الممكن أن تكون تلك النقطة هى غطاء المقبرة .. فأخذ نفسا عميقا وشحذ أطرافه بعزم جنونى وحمل عليها حملة عنيفة مستميتة ثم صفع هذا الغطاء بضربة شديدة قاسية وسرعان ما تتابعت الضربات واللطمات حتى أحس بأن الغطاء بدأ يهتز ويتحرك .. فإرتج صاحبنا بفرحة جنونية شديدة .. وظل يدفع الغطاء بقوة وعنف حتى أحس بسقوط بعض الحجرات الصغيرة فوق قدميه وإستطاع رؤية بصيص ضعيف متهافت من النور يتسلل إلى داخل المقبرة ، فشعر بسعادة غامرة وكأنه رأى من على البعد بوادر العودة إلى الحياة ، وظل يدفع بقدميه غطاء المقبرة الحجرى وكلما إتسعت الثغرة كلما أحس بالسعادة والنشوة وهو يشق رحم الأرض رجوعا مرة أخرى إلى الحياة الدنيا .. وأخيرا أخذ نفسا عميقا نظيفا بعد أن طهر الهواء خارج المقبرة الهواء داخلها ، وأحس بلذة عجيبة وهو يرفع قدميه فى الهواء وكأنه يرسل إلى الدنيا والحياة شيئا منه .. وبعدها أخذ يدفع جسده إلى الخارج ويتسلل من المقبرة برفق وحذر .. وأطراف مستميتة مقاتلة وأخرج قدميه عن آخرها من المقبرة ثم أخرج وسطه منها وظل متعلقا لحظات على هذا الوضع وقد أحس بصعوبة بالغة فى رفع بقية جسده وإخراجه من المقبرة وهمس لنفسه حينها قائلا لو كنت أعلم أنه فى يوم من الأيام سأحتاج إلى هذا القدر من المرونة والرشاقة لإنقاذ نفسى لإشتغلت بهلونا بالسيرك القومى حتى أستطيع أن أتثنى وأتلوى وأخرج من هذا

المأزق .. وظل يسائل نفسه وهو على هذا الوضع .. لماذا قدر على أن أخرج إلى الدنيا مرتان ، مرة من بطن أمى ساقطا برأسى عاريا ، ومرة أخرى خارجا من بطن الأرض ولكن بأقدامى هذه المرة وليس برأسى .. وعاريا أيضا أو على الأقل يسترنى هذا البشكير القطنى الكئيب.

وظل يجاهد ويقاوم حتى أخرج بقية جسده من فتحة المقبرة وظل لحظات جاثيا فوق ركبتيه وهو ينازع ضيق شديد فى صدره وضربات عنيفة ترج قلبه وتكاد تمزق ضلوعه .. ثم رفع رأسه إلى السماء ضارعا وقال بصوت مسموع وهو يلهث بشدة .. الحمد لله.. ثم إنتابته حالة فرح جنونية .. فوثب من مكانه فى سرعة خاطفة .. وظل يركض ذهابا وإيابا بأقصى قوة ويقفز فى الهواء من فرط نشوة العودة إلى الحياة وأخذ يصرخ بشدة وعنف ولكن صوته كان مكتوما من فرط إستهلاكه فى النباح والصراخ وهو بداخل المقبرة .. وفجأة إكتشف إنه عاريا .. فقد سقط الكفن الأبيض من فوق جسده دون أن ينتبه لذلك فأحس ببعض الخجل والحياء .. ثم فطن لسذاجته وساءل نفسه فى دهشة .. ممن أخجل !! أمن الأموات أم من الليل .. أم من الله !! ثم سارع نحو فتحة المقبرة حيث جلس وأطال الجلسة وظل يبحث عن البشكير الأبيض فى ظلام الليل حتى عثر عليه فإلتف به وستر نفسه من جديد .. وسار على غير هدى يبحث عن المخرج من هذا المكان البشع ..

وفى أثناء بحثه عن بوابة الخروج من المقابر وجد غرفة مضاءة يصدر عنها صوت خافت ضعيف لراديو أو لتليفزيون .. توسم فيها الرجل الغرفة الخاصة بعامل المقابر .. فسار نحوها حتى إذا ما إقترب منها سمع أغنية فريد الأطرش تلك التى يقول فيها " الحياة حلوة بس نفهمها .. الحياة حلوة محلى أنغامها " .. فتنهد بعمق وسعادة غامرة وهمس لنفسه قائلا ... حقا ما أجمل العودة إلى الحياة !! وأسرع الخطى نحو الغرفة حتى بلغها ووقف عند بابها .. ونظر بداخلها فوجدها غرفة حقيرة فقيرة لاتحتوى على أكثر من كنبة متداعية تجلس فوقها إمرأة يبدو أنها ريفية ساذجة تهدهد طفل صغير ملفوف فى قماشة قذرة ويجلس على الأرض رجل فى العقد الرابع من عمره يرتدى جلباب مهلهل قد رفعه إلى أعلى حتى كشف من تحته عن بنطلون بيجاما قصير ممزق الأطراف ويلصق بأذنيه راديو ترانزستور كبير الحجم وقد أخذ يهتز ويتمايل ويترنح فى جلسته ويشدو ويدندن مع فريد " الحياة حلوة بس نفهمها ".. وقف صاحبنا لحظات أمام باب الغرفة دون أن يشعر به أحد فالمرأة مشغولة برضيعها والرجل هائم فى عالم وهمى .. فإفتر ثغر صاحبنا عن إبتسامة رضا وقد أثبت له هذا المشهد الساذج المتواضع أنه حقا قد عاد إلى الحياة ..

ثم تنحنح فى وقفته وألقى عليهم التحية وهو يبتسم .. مساء الخير يا جماعة

فرفعت المرأة وجهها ونظرت تجاه الصوت لتجد رجل نصف عارى يقف أمامها فى الظلام الحالك شعر رأسه ثائر هائج وشعيرات ذقنه طويلة ومتناثرة فى فوضى وعدم تنسيق وقد توارى سوادها فى بياضها .. وجسده ملطخ بالطين والتراب .. فألجمها الخوف والفزع وظلت مشدوهة وفمها مفتوح عن آخره .. أما زوجها فيبدو إنه لم يسمع تحية الرجل فقد ظل فى مكانه كما هو يتمايل على أغنية فريد " الحياة حلوة بس نفهمها " فأعاد الرجل إلقاء التحية بصوت أعلى كأنه يوجهها نحو زوج المرأة بعد يأسه منها .. فقال بصوت أعلى ،،، مساء الخير يا جماعة .. هل سأظل هكذا فى مكانى ألقى عليكم التحيات طوال الليل دون إجابة

فنظر إليه زوج المرأة ففزع لمرآه لأول وهلة وسقطت من يده كوب الشاى وألقى بالراديو فى الهواء وتراجع مذعورا إلى ركن من أركان الغرفة وهو ينظر إلى الرجل برعب عظيم ويستغيث بزوجته تلك المفزوعة المذعورة ، وظل على هيئته تلك حتى قال له الرجل وهو مندهش بعض الشىء من سلوكه هذا وسلوك زوجته تجاهه .. مالك يا أخ !! .. أبك شىء ؟؟

فقال له عامل المقابر بلهجة مرتجفة ونبرة خائرة ذاهلة ،،، بى أنا يا سيدى!!

فجاوبه الرجل ،، نعم بك أنت .. يبدو عليك الإضطراب والهلع أنت وزوجتك تلك التى من لحظة رؤيتها لى وهى مشدوهة هكذا

كما الصنم وكأنها رأت عفريت أو شيطان

فقال له عامل المقبرة بنفس اللهجة المرتجفة ،،، كأنها .. ثم سأل الرجل وهو يبادل النظر بينه وبين زوجته المشدوهة وقال له وهو يذدرد ريقه بصعوبة من فرط الرعب والهلع ،، من أنت يا سيدى ؟؟

فقال له الرجل بلهجة عادية ،، أنا ، أنا ، دعنى أتذكر .. آه قد تذكرت الآن .. أنا الأستاذ مكرم سعيد محاسب ببنك مصر

فقال له عامل المقبرة ،،، وما الذى جاء بك الليلة إلى هنا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل يا سيدى المحاسب

فأجابه الأستاذ مكرم بنفس اللهجة العادية ،،، لاشىء ، أنا لا أدرى .. ولكن من قال لك إننى أتيت هنا الليلة .. قد أكون أتيت أمس أو أول أمس من يدرى أنا لا أعلم ولا أذكر.. فأنا جائع جدا ويبدو أننى بقيت بلا طعام عدة أيام

عامل المقبرة وهو ينظر إلى الكفن الأبيض ،،، بقيت أين ؟؟

الأستاذ مكرم بلهجة عادية ،،، فى المقبرة .. فقد خرجت منها لتوى .. لقد أتيت هنا عن طريق الخطأ .. فقد ظن أهلى إننى قد فارقت الحياة فجاءوا بى إلى هنا ووضعونى فى المقبرة ولكنى لم أكن قد فارقت الحياة بعد وإنما كنت نائما أو فى غيبوبة لا أدرى .. وعندما إستيقظت وتنبهت لحالتى وتبين لى أين أنا .. خرجت .. وأتيت إليك هنا لأجد عندك شىء أستر به جسدى وطعام أسد به

جوعى وشراب أرطب به جوفى وجلسة طيبة كجلستكم تلك أروح بها عن نفسى .. فأنا أشعر بجوع فظيع وعطش لا يقاوم وغربة موحشة

فأجابه عامل المقبرة فى ذهول وإندهاش وهو يبتسم إبتسامة ساذجة حمقاء ،، إذن فأنت يا سيدى ميت خرجت من المقبرة لتوك وأتيت إلى هنا لكى تأكل وتشرب وتأخذ ملابسى وتجلس معنا جلسة سمر وأنس .. إنه شيء بديع حقا يا سيدى أمهلنى لحظة واحدة من فضلك ولا تؤاخذنى .. وفجأة سقط عامل المقبرة على الأرض مفارقا فيما يبدو للحياة .. وما أن رأته زوجته يسقط تلك السقطة المنكرة مغشيا عليه حتى فارقها ذهولها وألقت الطفل بجوارها فوق الكنبة وأخذت فى الصراخ والعويل ،،، ياهوى .. ياليلة سوداء فاحمة ، زوجى مات الرجل الميت .. خرج من المقب .. المقبرة .. ياهوى .. وسقطت هى الأخرى بجوار زوجها فاقدة للوعى أو للحياة لا يستطيع أحد أن يجزم بشيء .. ولم يسمع صوت بالحجرة سوى صوت الطفل الصغير يصرخ ويبكى وأغنية فريد تنبعث من الراديو.

إنتابت الرجل دهشة عظيمة من هذا الذى حدث وظل يسائل نفسه .. لماذا يفعل هؤلاء الأشخاص هذا ؟؟ ماذا فعلت لهم ؟؟ مالذى أنكروه من شخصى أو من سلوكى نحوهم !! شيء عجيب .. وبعد لحظات من حيرته تلك .. وقع بصره على طبق بلاستيكى

كبير مغطى بورقة من جريدة تنضح ببقع الزيت وبجواره بصل أخضر ورغيفين من الخبز البلدى الأسمر فذهل الرجل عن كل شيء .. داس عامل المقبرة وزوجته بقدميه و لم يعبأ بصراخ الطفل الصغير وإنقض فوق الطعام كالطير الجارح وكشف عن الطبق ليجد سمكة رنجة ذهبية لامعة ممدة فأمسكها بين يديه وعض عليها بأنيابه وأخذ ينهشها بأسنانه كما تفعل القطط الهائمة على وجهها فى شوارع المدينة وظل يمزقها ويلتهمها وبين الحين والآخر يعض رغيف الخبز بقوة وينتزع البصلة بقسوة ، وظل يناجى نفسه بصوت مسموع .. ألا ما أجمل الحياة وما ألذ العودة إليها .. ثم إنتبه إلى صوت الراديو وهو يعيد ويزيد فى أغنية فريد فأخذ يتمايل مع الأغنية ويهتز ويدندن بصوت عالى .. الحياة حلوة بس نفهمها

بعد أن فرغ الرجل من طعامه .. هب من مكانه واقفا وأراد بكل شوق الخروج من هذا المكان الموحش والعودة مرة أخرى إلى بيته .. وهم بالخروج من الحجرة ولكنه تذكر إنه لن يستطيع العودة إلى بيته والسير فى الطرقات بهذا البشكير الأبيض الملطخ بالطين .. وأحس بحيرة .. وفى أثناء تفكيره نظر إلى باب الحجرة فرأى بنطلون قماش مهلهل وممزق من بعض نواحيه وقميص شكله غريب معلق بجواره فوق الباب .. فإمتدت يده بلا تردد إليهما ونزع عن جسده الكفن الأبيض ووقف عاريا كما ولدته أمه وسرعان ما حشر نفسه فى ملابس عامل المقبرة تلك فوجد أن البنطلون ضيق عليه بعض

الشيء والقميص طويل أكثر من اللازم فإستاء لهذا الموقف .. وساءل نفسه فى حيرة ،، أأنا أرتدى مثل هذه الملابس القذرة المهلهلة .. ماذا يقول عنى الناس .. ماذا لو رآنى أحد زملائى أو بعض مرؤسى فى البنك وأنا بتلك الهيئة الرثة المزرية ، ولكنه لم يجد من هذا بد فليس هذا وقت للتفكير فى أناقة وذوق هندام .. إنها على كل حال ظروف طارئة خارجة عن إرادته ، فتوجه الرجل خارجا من باب الحجرة وقبل أن يتجاوزها إلتفت إلى حيث سقط عامل المقبرة وزوجته بجواره وقال مخاطبا لهما بصوت مسموع ،، أشكرك يا أخ على كرم ضيافتك .. سمكة الرنجة ممتازة والبصلة كانت طازجة والعيش طرى ولذيذ .. والشرب من القلة منعش وبديع .. وأشكرك أيضا على ملابسك تلك رغم أننى لا أطيقها فوق جسدى ولكن هكذا حكمت الظروف .. وعندما أرجع إلى بيتى سوف أعيدها إليك مرة أخرى مرفق بها بعض النقود مقابل ما أسديته نحوى من معروف وما طوقت به رقبتى من حسن صنيع .. السلام عليكم

خرج الرجل من بوابة المقابر وهو فرح كالمذهول لا يكاد يصدق أنه نجا مما كان فيه .. وسار فى الطريق يحث خطاه نحو بيته فى هرولة جنونية وركض نشيط .. وظل يتخيل ويرسم فى ذهنه مقدار السعادة التى ستحط على أهل بيته من مفاجأة ظهوره لهم بعد يقينهم بأنه قد مات .. ولم ينتبه من سرحانه وخيالاته تلك إلا على

صوت خشن جعله يفيق رغما عنه مما هو فيه وإنتبه ليجد نفسه أمام لجنة شرطة من تلك اللجان التى تنتشر ليلا فى أنحاء المدينة .. إستوقفه ضابط الشرطة بإشارة متعالية من يده .. ونظر إليه بإذدراء قائلا له فى لهجة إتهام ونبرة قاسية عنيفة .. قف عندك يا هذا .. أين تظن نفسك ذاهبا ؟؟

فقال له الأستاذ مكرم سعيد متلجلجا .. وقد شعر بحرج بالغ من موقفه هذا بتلك الهيئة الرثة .. لاشىء يا حضرة الضابط .. إننى عائد إلى بيتى إن شاء الله تعالى

فقال له الضابط بلهجة ساخرة .. وأين كنت حضرتك فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟؟

فقال له الأستاذ مكرم بنفس اللهجة المتلجلجة وهو يعانى تأتأة الإرتباك .. أنا .. فى الواقع كنت .. كنت هناك .. كما تعلم .. كنت

فضاق الضابط من لجلجته تلك .. وشك فى أمره .. وقال له فى لهجة آمرة .. أرنى بطاقتك الشخصية يا هذا!؟؟

فتحسس الأستاذ مكرم ملابسه فى حركة غريزية ثم تذكر وأجاب الضابط وهو يعانى حيرة بالغة ،، ليس معى بطاقة شخصية الآن يا حضرة الضابط

الضابط فى ضيق .. كيف ؟؟ أين ذهبت بطاقتك ؟؟

الأستاذ مكرم فى إستسلام .. أخذوها منى

الضابط .. من هم ؟؟

الأستاذ مكرم .. الذين أخذوا ملابسى ؟؟

الضابط .. هل تعرضت لعملية سطو

الأستاذ مكرم .. شىء مثل هذا

الضابط .. ماذا تقصد يا أحمق ؟؟ من هم الذين سرقوك

الأستاذ مكرم .. أهلى وعائلتى

الضابط .. لماذا ؟؟ هل هى مسائل عائلية ؟؟ هل إختلفتم حول الميراث

الأستاذ مكرم فى لهجة شاردة .. أنت ذكرتنى الآن بموضوع الميراث يا حضرة الضابط .. يا ترى ماذا فعلوا به !!

الضابط فى ضيق .. إذا لم تتحدث معى بوضوح أيها المخبول فسوف أقودك إلى قسم الشرطة

الأستاذ مكرم فى دهشة .. بأى تهمة !!

الضابط فى تحدى .. التشرد والتسول

الأستاذ مكرم بنفس الدهشة .. ولكنى لم أرتكب شىء منهما

الضابط فى عناد .. وأيضا لم تجيبنى على أسئلتى

الأستاذ مكرم فى حيرة .. أى أسئلة !!

الضابط .. إسمك وعملك ؟؟

الأستاذ مكرم .. يا حضرة الضابط أنا الأستاذ مكرم سعيد موظف ببنك مصر فرع سموحة

الضابط بدهشة وشك .. أنت موظف بنك

الأستاذ مكرم .. نعم

الضابط فى تهكم .. وهل هذه ملابس وهيئة موظف بنك !

الأستاذ مكرم فى لهجة جادة .. لا يا سيدى .. إنها ملابس حانوتى

الضابط بعنف .. أتمزح معى

الأستاذ مكرم .. لا والله يا سيدى الضابط .. أنا لا أمزح معك إنما هى الحقيقة .. إنها ملابس الحانوتى

الضابط بصبر فارغ .. أى حانوتى يا مخبول

الأستاذ مكرم .. الحانوتى الذى وجدته فى المقابر

الضابط فى نبرة تهكم .. وماذا كنت تفعل فى المقابر فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ هل كنت فى زيارة لأحد الأعزاء ؟؟

الأستاذ مكرم .. صدقت والله يا سيدى الضابط .. كانت زيارة .. زيارة خاطفة .. أحمد الله بأنها لم تطل أكثر من هذا

الضابط فى ضيق وصبر نافذ ... ماذا تقصد بهذا يا أحمق

الأستاذ مكرم فى لهجة عادية ... كنت ميت بشكل مؤقت

الضابط فى دهشة .. ماذا ؟؟ ماذا قلت يا هذا ؟؟

الأستاذ مكرم فى نفس اللهجة .. كنت ميت

الضابط .. أتعبث معى مرة أخرى يا مخبول !!

الأستاذ مكرم فى لهجة دفاع عن النفس .. لا والله يا سيدى أمهلنى دقيقة واحدة لأوضح لك الأمر بالتفصيل .. لقد إستيقظت من نومى يا سيدى لأجد نفسى فى داخل مقبرة لا أدرى كيف حدث هذا !! ولا أتذكر ماذا حدث .. ولا أذكر شىء .. وخرجت منها بعد صراع عنيف مع الظلام وصدام أعنف مع طبقة من طبقات الأرض لأجد نفسى عاريا لا يسترنى شىء سوى البشكير الممزق الملطخ بالطين .. فلم أجد بد من إستعارة ملابس الحانوتى .. أعلم أنها لا تليق بمقامى ولكن ما باليد حيلة كما يقولون .. ولا تظنها سرقة أو إغتصاب يا سيدى الضابط كل ما هنالك إنها مجرد إستعارة لا أكثر ولا أقل وسوف أعيدها إلي الرجل بمجرد عودتى سالما إلى البيت.

الضابط وهو يتأمل الأستاذ مكرم مليا ويطيل التفكير فى هذا الذى سمعه منه .. كيف تركوا مجنون خطر مثلك يسير هكذا فى الطرقات .. ماذا شربت يا رجل من المكيفات أو المخدرات لتحيا

فى مثل هذا الوهم .. لا أخفيك إننى كثيرا ما أتعاطى الحشيش فى لفائف الدخان ولكنى لم أبلغ يوما تلك النشوة التى بلغتها أنت .. ما هذا الخيال !! .. إما إنك مجنون حقا .. وإما إنك صاحب مزاج من الطراز الأول، ثم قال له الضابط بعد أن نفذ صبره .. أترى هذا البوكس الرابض هناك يا سيد مكرم ؟

الأستاذ مكرم فى لهجة عادية .. نعم أراه

الضابط فى لهجة آمرة وهو يحاول إخفاء ضحكته بصعوبة .. إذهب بنفسك إلى هناك يا هذا وإقفز بداخله

الأستاذ مكرم فى فرحة ساذجة .. أشكر لك شهامتك يا حضرة الضابط .. هل سيوصلنى هذا البوكس إلى بيتى سالما غانما

الضابط فى مكر .. طبعا .. طبعا .. سيوصلك إلى بيتك ولكن قبل ذلك ستأتى معى إلى قسم الشرطة لنسوتفى بعض الإجراءات الشكلية .. ألديك مانع ؟؟

الأستاذ مكرم فى ترحيب ساذج .. أبدا أبدا يا سيدى .. لا مانع أبدا .. ولكن أرجو ألا تطول هذه الإجراءات لأننى كما تعلم يا حضرة الضابط أريد العودة إلى بيتى .. وبأقصى سرعة

الضابط يبتسم ولا يقول شيئ

بعد دقائق معدودة .. وجد الرجل نفسه يجلس القرفصاء بجوار إحدى المكاتب بقسم باب شرقى فى إنتظار التحقيق معه بتهمة لا

يدرى عنها شيء أو إستبقاءه فى الحجز لحين الإفراج عنه بضامن أو ما شابه .. وظل الرجل يسائل نفسه فى همس يعلو وينخفض ، ويضرب كف بكف وهو يقول لنفسه .. ماذا حدث !! ما الذى فعلته حتى يأتوا بى إلى هنا ؟؟ ماذا جنيت حتى يفعلوا بى هذا ؟؟ هل هذا هو إستقبال الحياة لى بعد عودتى إليها فرحا مستبشرا ؟؟ وظل على هذا الحال عدة ساعات .. حتى لمحه بالصدفة أحد الضباط الكبار وكان فى طريقه إلى مكتبه .. فقال له بعد أن تأمل حاله هنيهة .. مَن أنت يا رجل ؟؟ ومن الذى أتى بك إلى هنا ؟؟

فرد عليه الأستاذ مكرم قائلا فى حيرة عظيمة .. والله لا أدرى يا سيدى .. لا تسألنى أنا هذا السؤال إنما من المفترض أن تسألهم هم

فسأله الضابط الكبير فى دهشة .. هم !! هم من؟؟

فقال له الأستاذ مكرم وهو يشير إلى الضابط الذى إستوقفه فى اللجنة وكان على قيد خطوات منهما .. الذين أتوا بى إلى هنا بلا ذنب أو جريرة

فإندهش الضابط الكبير من طريقة رد الأستاذ مكرم عليه ولاحظ أن به شيء ملفت للنظر وغير منسجم مع شكله العام فهيئته تكذب لسانه ولسانه يكذب هيئته .. فقال له الضابط الكبير فى لهجة متغطرسة .. إتبعنى يا هذا إلى المكتب .. وأشار إلى الضابط المقصود ليتبعه هو الآخر

فنهض الأستاذ مكرم فى تثاقل .. وتوجه نحو المكتب فى خطوات منهكة مكدودة .. ووقف أمام الضابط الكبير الذى إستوى فوق مقعده كالملك فوق عرشه وبجواره وقف ضابط اللجنة الليلية والذى لابد وقد أحاط الضابط الكبير علما بشأن الأستاذ مكرم .. وظل الضابط الكبير يتأمل الأستاذ مكرم لحظات قبل أن يسأله فى حدة .. هل صحيح ما قلته للضابط فلان " وأشار إلى الضابط الذى أتى بالأستاذ مكرم إلى القسم " .. من إنك محاسب ببنك مصر؟؟

الأستاذ مكرم فى لهجة عادية .. نعم يا سيدى .. هذا صحيح

الضابط الكبير وهو يكتم ضحكته .. وهل صحيح ما أخبرته من إنك كنت فى المقابر ميت بشكل مؤقت ؟؟

الأستاذ مكرم بنفس اللهجة .. وهذا أيضا صحيح

الضابط الكبير فى حزم ساخر .. هل تتعاطى شىء يا رجل

الأستاذ مكرم فى دهشة ... شىء !! شىء مثل ماذا يا سيدى الضابط ؟؟

الضابط الكبير وهو يغمز بإحدى عينيه فى مكر .. شىء يا أخى مثل .. الحشيش أو الأقراص المخدرة أو ما شابه .. ألا تدرى ماذا أقصد بشىء أيها المحتال !!

الأستاذ مكرم بصبر نافذ .. معاذ الله .. أما هذا فغير صحيح يا سيدى .. لماذا لا تريد أن تصدقنى

الضابط الكبير فى حدة .. أصدق من أيها المعتوه .. تريدنى أن أصدق إنك كنت ميت بشكل مؤقت .. ثم عدت مرة أخرى للحياة وسرقت ملابس الحانوتى وسرت بها فى الطرقات حتى أتيت بها إلى هنا

الأستاذ مكرم .. هذا ما حدث بالضبط

الضابط الكبير فى تهكم .. وأين دليلك على هذا !!

الأستاذ مكرم فى حيرة شديدة وغضب أطلق لسانه بما لا يليق .. وكيف أعطيك دليل على هذا يا سيدى !! إلا إذا كنت أعلم إننى سوف أموت بشكل مؤقت لمدة يوم أو إثنان والله وحده يعلم كم لبثت فى القبر .. ثم أتفق معك على ميعاد لنتقابل سويا عند فتحة المقبرة حين خروجى .. لترانى بنفسك وتصدقنى

الضابط الكبير فى حزم غاضب .. أتعبث معى يا هذا ؟؟

الأستاذ مكرم فى ضيق .. لقد أتعبتمونى وأرهقتم أعصابى

الضابط الكبير وهو يحاول جاهدا السيطرة على إنفعاله وظل يتأمل الأستاذ مكرم هنيهة ويراجع نفسه .. ثم قال له وكأنه أراد أن يثبت بالحجة مدى صدق أقوال مكرم من كذبها .. بينى وبينك الدليل يا سى مكرم

الأستاذ مكرم فى لهفة .. وكيف هذا يا سيدى ؟؟

الضابط الكبير فى تأكيد .. محل عملك

الأستاذ مكرم فى ترقب .. كيف ؟؟

الضابط الكبير وهو يبتسم إبتسامة ماكرة .. نطلبهم تليفونيا ونسأل عنك وأى رد على سؤالى سيكون حجة لك أو عليك ما رأيك فى هذا ؟؟ هل أنصفتك ؟؟

الأستاذ مكرم فى فرحة من أتاه الفرج بعد الضيق .. بكل تأكيد.. موافق جدا

الضابط الكبير .. أعطنى الرقم

الأستاذ مكرم .. أى رقم !!

الضابط الكبير فى إلحاح .. رقم محل عملك ، رقم فرع البنك الذى تعمل به ؟؟

الأستاذ مكرم وهو يهرش رأسه ويصفع جبينه بعنف كى يتذكر.. الرقم هو يا حضرة الضابط .. الرقم هو .. نعم تذكرت .. ٤٢ ثم .. ثم .. ٣ أو ٢٢ .. أو

فقاطعه الضابط الكبير وهو يتأمله بنظرة شك عميق وقال له ساخرا .. أنسيت رقم محل عملك يا سيد مكرم !!

الأستاذ مكرم فى حيرة وضعف .. لا تؤاخذنى يا حضرة الضابط فالذى رأيته هذه الليلة ينسى المرء إسمه وليس فقط رقم محل عمله

الضابط الكبير وكأنه يمنحه فرصة أخيرة .. ولا يهمك .. سوف

نأتى بالرقم بمنتهى السهولة .. أنت هنا مع الحكومة يا سيد مكرم.. ثم طلب الضابط الكبير تحويله إلى بنك مصر فرع سموحة .. وردت عليه إحدى موظفات خدمة العملاء قائلة فى لهجتهم المهذبة المعتادة.. صباح الخير يا أفندم

فقال لها الضابط الكبير دون أن يكشف عن شخصيته .. صباح الخير يا آنسة .. أريد والله الإستفسار عن شيء بسيط

موظفة خدمة العملاء بنفس اللهجة المهذبة .. أى شيء يا أفندم.. تفضل

فقال لها الضابط الكبير وهو ينظر إلى الأستاذ مكرم بنظرة نافذة ويتأمل حاله وهو على وشك كشف خدعته وإفتراءه .. هل عندكم موظف بالبنك إسمه الأستاذ مكرم سعيد

فقالت له الموظفة فى لهجة سريعة .. الأستاذ مكرم سعيد .. نعم.. أمهلنى لحظات يا سيدى وسوف أجيبك حالا

فسأله الأستاذ مكرم فى لهفة ... هل تأكدت يا سيدى

الضابط الكبير وهو يضع يديه على السماعة .. لا تتعجل يا بطل كلها لحظات ونتبين جميعا الحقيقة

موظفة خدمة العملاء فى لهجة هادئة يشوبها الحزن أو التظاهر بالأسف .. نعم يا سيدى كان عندنا موظف بهذا الإسم

الضابط الكبير فى توجس وإهتمام مفاجىء .. كان !! ماذا

تقصدين ب " كان " هذه يا آنسة ؟؟

الموظفة بنفس اللهجة الآسفة .. لقد توفى يا سيدى منذ ثلاثة أيام.. رحمة الله عليه .. هل أستطيع أن أقدم لحضرتك خدمة أخرى

الضابط الكبير فى لهجة هادئة .. لا .. أشكرك .. ثم وضع سماعة الهاتف

ظل الضابط الكبير لحظات سارحا شاردا قبل أن ينظر إلى الأستاذ مكرم .. الذى ظل طوال المكالمة ينظر إلى الضابط الكبير وهو يتحدث مع الموظفة فى لهفة ولكنه كان فى نفس الوقت مطمئن إلى هذه النتيجة .. ثم قال له الضابط الكبير فى لهجة هادئة .. كلامك صحيح

الأستاذ مكرم فى نبرة إنتصار .. هل صدقتنى الآن يا سيدى ؟؟

الضابط الكبير فى إستسلام .. نعم

الأستاذ مكرم فى ترقب .. وبعد ؟؟

الضابط الكبير فى حيرة .. والله لا أدرى .. إنك حالة عجيبة وإستثنائية يا سيد مكرم ، لا أدرى ماذا أفعل بك !! ولكنك قانونا لست مذنب .. أو قل إنك قانونا أصبحت غير موجود من الأساس.. سوف أتركك ترحل فى سلام فليس عندى ما يستدعى بقاؤك هنا ويكفى ما حدث لك .. وما سيحدث

الأستاذ مكرم فى إرتياح .. أشكرك يا سيدى .. فهل أستطيع

التحرك الآن ؟؟

الضابط الكبير وهو يبتسم .. نعم تستطيع .. وعندما هم الأستاذ مكرم بالتحرك إستوقفه الضابط الكبير وتحرك نحوه وأخرج من جيبه ورقة مالية ووضعها فى جيب الأستاذ مكرم الذى بوغت بهذه الحركة وأنف أن يأخذ صدقة من الضابط الكبير وقال له فى حزم .. لا سيدى .. كله إلا هذا .. لم يكن ينقصنى سوى أن آخذ صدقة

فقال له الضابط الكبير وهو يكتم ضحكته .. أنسيت يا سيد مكرم إنك إستوليت من قبل على ملابس الحانوتى وطعامه ؟؟

فقال الأستاذ مكرم وهو يدارى خجله .. نعم يا سيدى حدث.. ولكنى هناك كنت مضطر .. كنت عاريا وجائعا وخائفا .. ثم إننى أخبرتك إنها أشياء أخذتها على سبيل الإستعارة وسوف أعيدها إليه بمجرد عودتى إلى منزلى.

الضابط الكبير وهو يبتسم فى رفق .. إعتبر هذه النقود إذن دين عليك وسوف أنتظر ردها لى

فقال له الأستاذ مكرم فى لهجة إمتنان وخجل وقد أوشك على البكاء .. أشكرك يا سيدى .. إسمح لى بالإنصراف

بعد لحظات .. وجد الأستاذ مكرم نفسه حرا طليقا يسير فى الطرقات التى ألفها طوال حياته ولكنه يراها اليوم مختلفة بعد ما حدث له ، وجد كل شىء من حوله مبتكر وبديع ، السماء صافية

فى زرقة حانية ونسمة الهواء بديعة رطبة ومنعشة ودفء الشمس ممتع ويوحى بألذ الأفكار ووجوه الناس مؤنسة مشرقة وعيونها ضاحكة مستبشرة والبسمات تنضح بالأمل والرحمة وضوضاء العربات توحى بالثقة ومنظر الطلبة والموظفون وهم يتحركون هنا وهناك فى سرعة وخفة ويعدون خلف الأتوبيسات وعربات الأجرة يثير الضحك ويغرى بالتأمل همس بعدها لنفسه قائلا .. الحياة بديعة لاشك فى هذا ولكننا لا نعرف قيمتها الحقيقية إلا بعد التلويح والتهديد بإحتمال فقدانها والحرمان منها .. ثم نظر جانبا فوجد بجوار إحدى الجدران شيخ عجوز يرقد فى إستسلام بائس وبجواره زوجته الضريرة يتسولان ومنظرهما يوحى بقمة الفقر واليأس والحرمان والمتربة فتأمل هذا المشهد مليا ثم قال لنفسه بحماس زائد ودون تردد .. مهما يكن .. فالحياة بكل تأكيد أفضل بكثير من الموت

إنطلق الرجل تجاه بيته وهو يتخيل مدى وقع المفاجأة السعيدة التى ستحدثها عودته إلى البيت بعد ما حدث له إرتقى درجات السلم فى سرعة جنونية ووقف أمام باب شقته وهو يلهث بشدة ويدق جرس الباب مرات متكررة فى مجون وعنف وسمع من الداخل صوت أنثوى يسأل فى ضعف وتوجس .. مَن الطارق ؟؟

فرد عليها بنبرة صوت مختلفة كثيرا عن لهجته العادية نتيجة المجهود النفسى والبدنى الذى عاناه طوال الليلة الماضية .. فقال لها

بهذه اللهجة وقد تبين من صوتها إنها حماته .. إفتحى يا طنط

فظنت المرأة أنه أحد أفراد الأسرة جاء للإطمئنان عليهم وهم فى ظروفهم الحزينة تلك أو ما شابه .. ففتحت الباب فى رفق .. وأطلت برأسها .. وفزعت أيما فزع حينما رأت ذلك المخلوق العجيب الواقف أمامها .. وقالت له فى لهجة مرتجفة .. مَن أنت ؟؟

فقال لها مبتسما وهو يدفع الباب أمامه بما تبقى له من قوة لم تستطع المرأة العجوز الثبات أمامها .. أدخلينى قبلا يا حماتى فأنا مرهق جدا

فقالت له فى دهشة عظيمة ممزوجة بخوف شديد .. ماذا قلت يا إبنى !! .. حماتك .. أنا حماتك !! كيف يا إبنى ؟؟ وأنا ليست لى سوى إبنة واحدة !!

فقال لها وهو يلقى بجسده فوق المقعد العريض فى مدخل الشقة.. أنا أعلم هذا جيدا يا حماتى .. فليس لمريم إخوة فهى وحيدتك كما أنى زوجها الوحيد

فقالت له المرأة فى ذعر لم تستطع إخفاؤه .. زوجها !! زوجها من !! .. زوجها كيف !! .. إن زوجها مات يا إبنى من ثلاثة أيام.. من أنت يا ولدى .. هل أتيت إلى هنا لكى تعبث بنا ؟؟

فقال لها الأستاذ مكرم وهو يقدر مدى وقع المفاجأة على المرأة العجوز فأراد أن يهون عليها الأمر قليلا فقال لها برفق بالغ .. يا

حماتى أرجوكى تأمليني جيدا .. من هذا الذى يجلس أمامك الآن؟؟ ألا تعرفيني !!.. ماذا حدث لك يا حماتى !!

المرأة فى ذعر وفزع .. نهار أسود .. أتصر يا إبنى إننى حماتك .. يا ولدى إن زوج إبنتى الوحيدة قد توفاه الله منذ ثلاثة أيام .. فكيف أكون حماتك أنت أيها الشقى

الأستاذ مكرم فى غضب وإستياء .. أهذا هو إستقبالك لى يا حماتى بعد عودتى إلى الحياة .. إكرميني على الأقل كما تكرمين الضيف .. أليس إكرام الضيف واجب ؟؟

المرأة فى حيرة شديدة .. يا إبنى سبق وأكرمناك من قبل فأنت إكرامك دفنك وليس ضيافتك

الأستاذ مكرم فى ضيق وصبر نافذ .. يبدو أن الحديث معك لن يجدى أيها العجوز الخرف .. أين مريم فقد إشتقت إليها أيما إشتياق وأين الأولاد ؟؟ أين أدهم وأين يوسف ؟؟

وفى تلك الأثناء قامت مريم من نومها على إيقاع تلك المناقشة الحادة بين الأستاذ مكرم أو زوجها سابقا وبين أمها فخرجت إلى الصالة وقد إختلط عليها الأمر فظنت الحلم حقيقة والحقيقة حلم فرأت زوجها ينظر إليها فى سعادة بالغة وفرحة غامرة وإشتياق لا يقاوم .. فإنقض عليها فى سرعة خاطفة وأغرقها بقبلاته وإعتصرها بين أحضانه .. فوجئت مريم بهذا الهجوم الخاطف المباغت، فلم

تنبس ببنت شفة من وقع الصدمة وهى تجد نفسها بين أحضان هذا الكائن العجيب الذى يضمها إلي صدره ويعتصرها بذراعيه .. فظلت تهذى وتهمس له قائلة .. مَن أنت ؟؟ مَن أنت ؟؟ هل أنت مكرم ؟؟ ولكن كيف !! مكرم مات .. مكرم مات .. ثم إنهارت وهوت من بين يديه.

إنكب الأستاذ مكرم فوقها وحاول بكل طريقة أن يجعلها تفيق ولكن بلا أمل .. وحماته تصرخ بعنف وتستغيث بما تملك من قوة وقد إنقضت فوقه كالطير الجارح لتدفعه عن إبنتها ، ثم تعدو تجاه باب الشقة وتفتحه عن آخره وتستغيث بالجيران لإنقاذها وإنقاذ إبنتها من هذا المجنون .. وأصابت الرجل حيرة عظيمة ما بين زوجته المغمى عليها وتلك المرأة الحمقاء التى سوف تفضحه فى العمارة ورغبته الجارفة فى رؤية أولاده وضمهم إلى صدره .. فلم يدرى ماذا يفعل وإشتد عليه الأمر وسرعان ما ترك كل شىء خلف ظهره وهرع نحو غرفة الأولاد فوجدهم نائمين ، فأحس بفرحة شديدة ونشوة عجيبة نسى أثنائها صراخ حماته وإغماء زوجته وأقبل نحوهما يقبلهما ويضمهما إلى صدره وهم لا يزالون نائمين ..

وفى تلك الأثناء فوجىء بلفيف من جيرانه السابقين ما بين رجال ونساء وشباب وأطفال ينقضون عليه ويخرجونه من حجرة أولاده بعنف وقسوة والرجل يصرخ بأعلى صوته مستغيثا بهم ومتوسلا إليهم .. يا ناس !! ماذا تريدون منى يا ناس !! .. دعونى وشأنى ..

ألا تعرفوني أنا مكرم سعيد جاركم أنسيتم من أنا فى ثلاثة أيام .. وظل ينظر إلى جيرانه ويرجوهم ويستعطفهم ويناديهم بالإسم والصفة .. إتركني يا أستاذ عوض رجاءا ألا تعرفني .. أفلت يدى يا سى صلاح أتظنني لصا .. دعيني وشأنى يا ست عطيات هل تظنيني زوجك أبو حسام .. يا عالم يا هو .. دعونى .. هذا بيتى وهؤلاء أهلى وأولادى وزوجتى .. يا مريم يا يوسف يا أدهم

ولكن لا فائدة .. الجميع يتجاذبونه ويخرجونه من الحجرة بعنف وقسوة .. وإستيقظ أولاده على هذا المشهد الكئيب المحزن فأفزعهم هذا الذى يحدث وسرعان ماشاركوا جدهم فى الصراخ والإستنجاد.. فشعر الرجل بالسخط والإحباط عندما لاحظ أن أولاده هم أيضا لا يعرفونه .. وساق الجيران الرجل خارج الغرفة فوقعت عيناه وهو لايزال فى قلب الحدث بين الشد والجذب على برواز كبير ضم صورته وقد توجت بشريطة قاتمة سوداء تغنى عن الرثاء .. فدهش لهذا الشيء كأنه كابوس بشع يأبى أن يفارقه .. وجذبه الجيران على السلم وذاق الأمرّين وهو يجاهدهم ويتحمل أذاهم درجة درجة ويتلقى صفعاتهم وشتائمهم وسبابهم ولكماتهم حتى بلغوا به باب العمارة وكانوا قد عقدوا العزم على تسليمه إلى قسم الشرطة ورغم ذهول الأستاذ مكرم من هذا الذى يحدث له ، إلا إنه سرعان ما تحايل على الموقف برمته ودفعه عنه وأفلت من بين أيديهم .. وظل يعدو فى الطريق والجيران وراءه ومن شاركهم من

أهل الحى والمارة فى الطريق وهم يصيحون بين الآونة والأخرى .. المجنون اللص .. اللص المجنون .. وإستمرت المطاردة لمدة طويلة .. حتى تمكن الرجل أخيرا من الإختفاء والهروب من أمام أنظارهم بشق الأنفس.

ظل الرجل يسائل نفسه فى ذهول وحيرة .. ما هذا الذى يحدث!! هل هذا هو إستقبال الناس لعودتى سالما مرة أخرى إلى الحياة !! كنت أنتظر منهم الفرحة والسعادة فوجدت الحزن والدموع كنت أتوقع منهم الحفاوة والتكريم ففوجئت بالمطاردة والتعنيف ما هذا الذى يحدث !! قالوا عنى مجنون .. وقالوا لص وماذا قالوا أيضا !! لا أذكر .. ماذا فعلت بهم أو بغيرهم حتى يحدث لى كل هذا ؟؟ هم من أخطأوا فى حقى .. هم من دفنونى حيا .. هم من سلبونى حقى فى الحياة .. هم من أسلمونى ليد الموت قبل الأوان .. هم من حرّموا علىّ العودة إلى الحياة .. ماذا أفعل الآن !! أين أذهب ؟؟ لم يبق لى سوى بيت أخى .. أخى الكبير .. لم يبق لى غيره.

وسار الرجل فى الطرقات وقد بلغ به التعب والإرهاق النفسى والبدنى أقصى ما يمكن .. وذهب به الجوع والعطش مذاهب شتى ، وتذكر الورقة المالية التى أعطاها له الضابط فى قسم الشرطة ووجد على مرمى البصر محل لبيع ساندوتشات الفول والفلافل وخلافه على بعد خطوات منه فإقتحمه على عجل .. وطلب من البائع عدد

من الساندوتشات .. فنظر إليه الرجل بإحتقار وإذدراء وقال له فى لهجة وقحة .. وهل معك نقود ثمن الساندويتشات يا هذا ؟ فبوغت الأستاذ مكرم من هذه الطريقة الوقحة وهذا الإسلوب المبتذل الذى يعامله به الرجل وساءل الأستاذ مكرم نفسه فى دهشة وعجب .. ماذا حدث للناس اليوم ؟؟ هل فى هيئتى ومظهرى ما يشجع الناس ويغريهم بالتطاول والتجرأ عليّ بهذا الشكل المؤسف وهذه الطريقة المهينة !!

ولكنه أسرها فى نفسه ولم يبدها له .. وأجاب البائع بغيظ مكتوم وحنق مكظوم وهو يصر على أسنانه الخلفية .. نعم معى نقود .. ومد يده بالورقة المالية تجاه البائع الذى قال له فى سخرية لاذعة .. من أين سرقتها يا رجل ؟؟

فبلعها الأستاذ مكرم هى أيضا فى صمت وكتمها فى نفسه وأخفاها فى صدره وأحس لوقعها ألم وكأنها الجمرة فى الحلق وظل البائع يقلب فى الورقة المالية وهو لايكف عن التبكيت والإستهزاء بالأستاذ مكرم .. وظل يسائله وهو يتأمل النقود دون أن ينظر إليه.. هل هى مزورة يا أخينا أم ماذا ؟؟ولم ينتظر الرد فقد قالها فقط من أجل التنغيص والتكدير والمضايقة والتشكيك لا أكثر .. ثم ألقاها فى الدرج أمامه .. وقذف بالسندوتشات فى وجه الأستاذ مكرم مع باقى النقود، فإلتهمها صاحبنا فى نهم وشهية مبالغ فيها ثم خرج من المحل مشيعا بنظرات إحتقار وقرف من البائع وبعض

الزبائن.

أحس بأن قدمه لن تقوى على حمله أكثر من هذا .. فنظر لبقية النقود بين يديه ثم أشار لعربة تاكسى كى تحمله إلى بيت أخيه .. فلم تعبأ به .. وأشار لثانية وثالثة وعاشرة فلم تتوقف له واحدة منها ولم يتلق من سائقى العربات سوى نظرات قاسية متجهمة ، وتطاول عليه أحد سائقى التاكسيات السفهاء وأخرج رأسه من نافذة السيارة وقال له وهو يلاعب أصابعه بحركات خليعة مستهترة.. لا ينقصنى سوى أن تركب معى فى سيارتى يا مجنون يا قذر.

أدرك الأستاذ مكرم بأنه لامفر من السير على الأقدام فمضى فى طريقه إلى بيت أخيه حزينا مهموما .. وفى الطريق وجد نفسه بالقرب من فرع البنك الذى كان يعمل به فدفعه حنينه وشوقه التلقائى إلى الذهاب إليه ودخوله كما كان يفعل دوما ولكنه تذكر هيئته الرثة بملابسه تلك فكبح جماح رغبته وإتخذ لنفسه ساتر لكى لايراه أحدهم ويتعرف عليه ، وإكتفى بمراقبته من بعيد .. وتأمل سلوك زملاءه من على بعد وما طرأ على أحوالهم من تغيير .. وظل يسائل نفسه فى نبرة حزينة ويأس مرير .. هل حدث شىء مختلف ؟ هل إستجد شىء لم يكن موجودا من قبل ؟ هل أنكر من أمرهم شىء ؟ أبدا ، كل شىء يسير على ما يرام .. حركة الموظفون والعملاء كعهدى بها دائبة ونشيطة ومستمرة ومتدفقة .. والبنك لم

تتوقف حركته وعمله لموتى كما كنت أظن من قبل .. ولم ينكس الأعلام حدادا علىّ ولم يعلق الشرائط السوداء رثاءا لى .. هذا هو حظنا إذن ونصيبنا من تكريم الأحياء .. ما الفائدة إذن !! لماذا كنت أتخيل دوما بأن الحياة مستمرة مادمت موجود وحى ومستمر فإذا ما مت ذهبت بذهابى وفنيت بفنائى .. لماذا كنت أظن دوما أن هذا البنك يستمد وجوده من وجودى فإذا ما مت إنهارت أركانه ومادت أعمدته ومالت جدرانه .. لماذا كنت أشعر دوما بأن الناس تحيا فقط من أجلى وما دمت حيا ستظل أبدا تدور من حولى فإذا مامت إنتهت حياتهم وتوقف دورانهم هههه لا فائدة .. هذا هو حظ الأموات من تكريم الأحياء ، وإستأنف سيره إلى بيت أخيه ، وطرق بابه وقد بلغت به الحيرة والحزن والغيظ والغضب أقصى حد..

إستقبله أخاه إستقبال بارد خلا من أى عاطفة أو شعور أو إحساس خاص .. بوجه جامد لا تنم ملامحه على شيء من تأثر أو تعاطف ، وكان قد أحيط علما بكل ما حدث له فى بيته وما وقع بينه وبين الجيران فتحدث معه بحذر بعد أن إنفردا معا فى غرفة مكتبه

بهت الأستاذ مكرم وإندهش أيما إندهاش من هذا الإستقبال البارد الذى حظى به من أخيه .. وسار خلفه إلى حجرة المكتب صامتا مصدوما .. وألقى بنفسه فوق أقرب مقعد، وقال لأخيه فى

لهجة لاهثة ونبرة مرتجفة متقطعة يخنقها البكاء أبلغك ما حدث لى يا حسين .. أيرضيك هذا ؟؟

حسين فى لهجة جافة قاسية .. ماذا جاء بك إلى هنا ؟؟

الأستاذ مكرم فى دهشة عظيمة .. هنا .. هنا !! هنا بيت أخى حسين.. أليس كذلك ؟؟

حسين فى جفاء .. وهل أنا أخوك يا رجل !!

الأستاذ مكرم وقد عقدت الدهشة لسانه .. أنسيتنى أنت أيضا يا حسين ؟؟ .. فى ثلاثة أيام يحدث كل هذا !!

حسين بعناد .. أنا لا أعرفك من الأساس يا رجل حتى أنساك .. من أنت أصلا حتى أذكرك أو أنساك !!

الأستاذ مكرم بعناد مضاد .. ولماذا تستقبلنى إذن فى بيتك وهنا فى حجرة مكتبك ما دمت لا تعرفنى

حسين فى صراحة قاسية .. تجنبا للفضائح

الأستاذ مكرم فى حزن مرير .. كونى أخوك صارت فضيحة

حسين فى إصرار عجيب .. إسمع يا هذا .. إن أخى مكرم قد توفى منذ عدة أيام وحزنت عليه أيما حزن ولا أزال .. وأظن أن حزنى عليه سيدوم طويلا .. هذا هو شعورى تجاه أخى الراحل .. ولكن ما شأنك أنت بهذا !!

الأستاذ مكرم متشبثا ببقايا أمل .. إن أخوك مكرم لم يمت يا حسين .. إننى كما ترى حى أمامك .. هكذا كما ترى لم أمت بعد .. لقد كانت كما تعلم غيبوبة وأنتم ظننتمونى ميتا هذا كل ما حدث

حسين فى ضيق وغضب .. أنت حقا مجنون يا هذا ما فى ذلك شك ، إسمعنى جيدا .. منذ أربعة أيام توفى أخى مكرم وإستخرجنا له شهادة وفاة وإقرار دفن .. ورأيته بعينى هذه وهو يترل إلى حفرة ضيقة فى باطن الأرض .. وأغلقت أمامى بإحكام .. وكنت أنا أحد المشاركين فى عملية الدفن تلك تريد منى بعد ذلك أن أنكر كل هذا وأصدق شخص مجنون معتوه مثلك

فنظر إليه الأستاذ مكرم نظرة ثاقبة لم يثبت لها أخاه فأدار رأسه متشاغلا بإشعال سيجارة .. وقال له فى لهجة عميقة أتصدق حقا هذا الذى تقوله يا حسين .. أنظر إلىّ جيدا ألست أنا أخاك مكرم ؟؟ أنظر إلىّ جيدا يا أحمق .. ألست أنا أخاك مكرم ؟ أحقا نسيتنى بهذه السرعة يا حسين !!

حسين ينظر إليه صامتا ولا يجيب

الأستاذ مكرم يهز أخاه فى عنف ويستحثه للإجابة ، فيضيق به حسين وينفعل إنفعال مضاد ويصرخ فى وجهه قائلا له صارخا هائجا فى ثورة يجاهد فى مشقة من أجل كبتها .. قلت لك يا أحمق إن أخى قد مات منذ أيام .. أما أنت فمن أدرانى من أنت !! قد

تكون شبحه جاء ليهزأ بنا أو مدعى يريد أن يسلب شيء ليس من حقه ويخدعنا جميعا .. أو مجنون يريدنا جميعا أن نجن مثله

الأستاذ مكرم فى ذهول .. أهذا ما تظنه بى حقا ؟؟

حسين يأخذه من يده ويدفعه أمامه تجاه المرآة الكبيرة المتواجدة فى ركن مستتر بحجرة المكتب ويقول له فى غلظة .. أنظر إلى نفسك وأجب أنت عن سؤالك بنفسك .. أأنت أخى !! أهذا هو أخى مكرم !! أجبنى يا أحمق .. أأنت أخى ؟؟

ونظر الأستاذ مكرم لأول مرة منذ خروجه من المقبرة إلى هيئته فى المرآة .. فصرخ صرخة عالية مدوية رغما عنه .. عندما رأى صورته لأول وهلة .. ويا هول ما رأى .. وجد وجهه قد زادت تجاعيده بصورة غير معقولة وراءه إنكماش جلده بشكل ملفت والشحوب الذى علا ملامحه والضمور الذى أصاب عيناه وكأن عمره قد قفز للأمام عشرات السنوات دون أن يدرى بها أو يشعر بمرورها .. وشعر رأسه وذقنه قد شاب معظمه .. وجسده قد أصابته نحافة عجيبة غير مسبوقة .. والجروح تملأ يديه وذراعيه ووجهه .. وأظافر يده طويلة وقذرة .. وهيئته فى ملابس الحانوتى بشعة.

ظل الأستاذ مكرم يقول لنفسه فى تأتأة ملفتة ونبرة مرتجفة متقطعة .. من هذا ؟؟ أهذا هو أنا ؟؟ أهذا هو مكرم سعيد ؟؟ لا يمكن .. لا يمكن أن تكون هذه هى الحقيقة .. أنا لست هو ذلك

الشخص .. أنا لا أعرفه .. من هذا ؟؟ أين أنا ؟؟ أين مكرم سعيد ؟؟ أين هو ؟؟ وإنفجحر فى البكاء.

ظل حسين يرقبه فى صمت دون أن يبدو منه أى تعاطف نحوه.. صبر عليه حتى فرغ من بكاءه ثم قال له فى لهجة رفيقة لينة مراعاة لحالته .. أرأيت ؟؟ أنت نفسك تنكر ذاتك .. فما بالك بالناس من حولك .. هل صدقتنى الآن ؟؟

الأستاذ مكرم فى حزن عميق .. ولكن كيف !! فأنا أشعر بأننى هو ذلك المكرم سعيد .. أنا لا أزال أصدق إننى أنا هو تقولون إنه مات .. ولكن أنا أقول إنه لايزال حيا يرزق .. من يحكم بيننا !! من الصادق ومن الكاذب ؟؟ من العاقل ومن المجنون ! ألم يكن مكرم هذا شخصية حقيقية لها وجود وأحقية فى البقاء فى يوم من الأيام ؟؟ ماذا حدث له إذن ؟؟ أم إنه لم يكن موجودا من الأساس وكان وهما من الأوهام ؟؟ هل كان حقيقة أم كان حلما ؟؟ فإذا كان حقيقة فأين هو الآن ؟؟ وإذا كان وهما فمن أنا إذن ؟؟إذا لم أكن أنا هو فمن أين عرفتكم جميعا ؟؟ كيف عرفت بيتى وأسرتى وكيف عرفتك أنت وأتيت إليك فى بيتك وناديتك بإسمك .. ماذا تسمى ما نحن فيه الآن ؟؟ هل هى حقيقة أم خيال ؟؟ حلم أم كابوس ؟؟ ماذا يكون ؟؟ أخبرنى يا حسين .. أرجوك أخبرنى .. وإنتابته مرة أخرى نوبة بكاء عنيف

فقال له حسين مترفقا به وحازما فى آن .. فلنفترض إنك مكرم

كما تزعم .. ولنفترض أيضا من باب الجدل والهزل إنك مت وعدت مرة أخرى إلى الحياة .. أقول لك مجرد فرض لا أكثر ولا أقل .. ماذا تريد بعد هذا ؟؟ أخبرنى .. ماذا تريد ؟؟

الأستاذ مكرم فى دهشة وقد بدأ يكف عن البكاء وعاوده شىء من أمل .. تسألنى ماذا أريد !! أريد أن أعود كما كنت حيا بين الأحياء .. أريد أن أعود إلى زوجتى وأولادى وعملى وحياتى كما كنت من قبل

حسين فى لهجة ساخرة .. أتظن المسألة بهذه السهولة !!

الأستاذ مكرم بحماس مفاجىء .. إنها فعلا بهذه السهولة والبساطة وكانت من الممكن أن تتم على خير وجه لولا حماتى تلك المرأة الحمقاء المجنونة التى أبت تصديقى وإستغاثت بالجيران وأهل الحى لطردى من بيتى .. أتصدق هذا يا حسين طردى من بيتى .. لولا هذا التصرف السخيف منها .. لكنت الآن أنعم بدفء بيتى .. وفى حضن زوجتى مريم وبين أولادى يوسف وأدهم

حسين مقاطعا فى حدة .. أنت مجنون بلا شك .. أتظن حياتنا عبثا أم مزاحا أيها السيد المحترم !! ألا تعلم أن هناك نظام وقانون لا يستطيع أحد إختراقه أو العبث به .. قانون نعلم من بنوده أن للحى حقوقه وواجباته كما أن للميت حقوقه وواجباته .. ولا يصح مهما حدث وتحت أى مسمى أو تلبية لأى عاطفة خلط الأوراق بعضها ببعض .. وإلا لفسدت حياتنا الدنيا

الأستاذ مكرم فى حيرة .. ماذا تقصد بهذا ؟؟ .. أما حقوق الحى وواجباته فمفهومة .. ولكن ماذا تقصد بواجبات الميت وحقوقه ؟؟

حسين برؤية عجيبة لتلك الأمور .. حقوقه ألا نسىء ذكراه من حق الأموات علينا أن نذكر لهم محاسنهم وألا نذكر عيوبهم ومثالبهم أبدا .. وأما واجب الأموات نحونا ألا يعودوا .. لأن فى عودتهم فساد للحياة التى نحياها ما بعده فساد .. لا تصدق كل من مات له عزيز أو قريب وظل يدعو الله ليل نهار وهو يتمنى عودة ذلك الميت مرة أخرى إلى الحياة .. صدقنى إنه يكذب على نفسه ويخدعها ويغرر بها .. إنه لن يتحمل ولن يطيق أبدا عودة ذلك الميت للحياة مرة أخرى.. وسأضرب لك مثلا .. تخيل إنك وقفت أمام صورة عزيز عليك فقدته منذ زمن طويل .. ونظرت للصورة بعين دامعة وقلب خافق وحزن عميق .. ثم إستدرت بعدها لتجد هذا الميت الذى فقدته منذ زمن يقف أمامك وقد عاد مرة أخرى إلى الحياة يريد أن يستأنف حياته كما كانت من قبل .. يريد أن يأكل ويشرب ويبتسم ويتكلم ويتشاجر ويناقش ويشارك برأيه ويفعل وينفعل بكل أحاسيس ومشاعر الأحياء .. مَن يطيق هذا ؟؟ هذا إذا حدث ، ستشعر دوما بأنك تحيا مع شبح أو خيال مخيف .. لا يمكن أن يكون حقيقة أبدا

الأستاذ مكرم فى حزن عميق وهو يشعر بفوات الفرصة وتسرب الأمل .. وكيف هذا ؟؟

حسين .. إن الحزن الذى يعانى منه البشر ويتمنوا زواله من الأرض هم أنفسهم فى أمس الحاجة إليه لا يستطيعون أبدا الإستغناء عنه ولو ليوما واحدا فى هذه الحياة .. إن الحزن رغم آلامه وقسوته وضريبته الفادحة إلا أنه فى حد ذاته خلاق ، الحزن خلاق ومبدع وعجيب .. الحزن الناتج عن الفراق مرير ولكنه مبدع وخلاق .. الحزن الناتج عن الموت عسير على النفس ولكنه يغرى بالتأمل والتفكير .. لولا الحزن والذكرى ما كانت للحياة معنى أو هدف .. الحزن هو الذى يهون علينا الإنتظار.

الأستاذ مكرم فى رجاء واهى .. أليس هناك إذن أى أمل فى العودة ؟؟

حسين فى صراحة عنيفة .. إسمعنى جيدا يا هذا .. سأضرب لك مثلا آخر وأملى أن تفهم وتستوعب حقيقة الأمر ، إذا كنت راكبا فى أتوبيس نقل عام ، والأتوبيس ممتلىء ومكتظ عن آخره بالركاب المحشورين كالسردين فى علبته .. وينظرون إليك شذرا فى غيظ وحقد لأنك تجلس مستريح فى مقعدك ومطمئن ولا تعبأ بمن حولك .. وتخيل أن جاءت محطة نزولك فقمت من مقعدك وتوجهت ناحية باب النزول ثم إكتشفت خطأك بأنها ليست محطة النزول التى كنت تنتظرها .. وأردت العودة إلى مقعدك مرة أخرى فهل ترى من حقك مطالبة ذلك الجالس فى مقعدك بالقيام وإعادته لك وتمكينك منه .. أم ينبغى أن تدفع ثمن خطأك وتقف بين الواقفين ..

وتتعرض لما يتعرض له الركاب الواقفون المشتتون التائهون ؟؟

الأستاذ مكرم فى خفة وسذاجة .. ولكن !! لماذا لا يترك لى المقعد مرة أخرى .. أليس هذا من باب اللياقة والذوق ؟؟

حسين فى ضيق .. يا أيها الجاهل إن صراع الحياة لا يعرف اللياقة والذوق أو الأدب والتفاهم وإنما يعرف القتال والخدعة وإنتهاز الفرص والأنانية .. فأنت كنت أنانى عندما كنت جالسا مستريحا وغيرك واقف يتألم .. وها قد حان دورك لتنال نصيبك من الألم والمعاناة وتذوق بأس السلاح الذى كنت تحارب به دوما .. فلا تندهش عندما يبادلك صاحبنا هذا أنانية بمثلها .. هذه هى الحياة وهذا هو قانونها

الأستاذ مكرم فى حزن عميق وكآبة موجعة.. وأنت يا أخى كنت دوما عملى ومنطقى ودنيوى إلى أبعد حد وأقصى مدى كنت دوما بلا قلب أو عاطفة وقد أتيت إليك اليوم وأنا بين الشك واليقين ولكن ظننت أن ما حدث لى قد يغرى قلبك بالرقة والعطف وببعض الرحمة والحنان ولو للحظات معدودة ولكنى كمن يستجدى الماء الزلال من قلب الحجر الأصم

حسين فى ثبات عجيب .. إسمعنى جيدا وإعقل قولى .. ماذا تريد بعودتك تلك ؟؟ تريد بيتك وزوجتك وأولادك وعملك بهذه السهولة .. أتظنها فوضى !! إن المقاعد قد دارت دورتها والطابور قد تحرك خطوة إلى الأمام وتم إعتماد الأوراق الجديدة فمن أنت

أيها السيد المحترم وما هى صلاحياتك لإلغاء كل هذا زوجتك أيقنت بأنك ميت وروضت نفسها على هذا الأمر وحزنت عليك بما فيه الكفاية فكيف تقول لها دعى كل ترتيباتك هذه جانبا فإننى لم أمت بعد .. ماذا يكون حينها معنى أو قيمة الحزن والأسى والذكرى .. لكل شيء ثمنه يا عزيزى .. هى حزنت وبكت وصرخت وجفت مآقيها وذبلت أجفانها ، أليس لهذا كله ثمن !! بكل تأكيد له ثمن .. وثمنه أن تختفى أنت إلى الأبد لتظل لتلك الدموع قيمة ومعنى ويظل الحزن خلاق ومبدع كما كان دوما ..

وأنت نفسك .. أظنك قد رأيت نموذج مصغر لما يمكن أن يحدث لها نتيجة عودتك تلك أو مجرد التلويح بهذه العودة ، لقد أخبرونى منذ قليل بأنها قد أصيبت بإنهيار عصبى وإن حالتها بالغة السوء .. أيعجبك هذا ؟ أهذا ما تريده لها حقا أيها القاسى المجرد من الإنسانية والرحمة

الأستاذ مكرم فى رجاء أخير ... وأولادى ؟؟

حسين فى قسوة متناهية .. أولادك ؟؟ ماذا تريد أن تفعل بهم هم أيضا !! تلك الزهور النضرة البريئة .. تريد أن تقول لهم إن أباكم الذى مات منذ ثلاثة أيام كان يلهو معكم وهاهو ذا قد عاد الآن إلى الحياة .. أتريد أن تعبث بمقدسات الحياة والموت فى ذهن أولادك .. صدقنى إذا حدث هذا فلا تستبعد أن يلقى أحدهم بنفسه من النافذة وهو يؤكد لها بأنه سوف يعود بعد أيام كما عاد أبيه ..

أتريدهم أن يستهينوا بالموت ويظنونه لعبة ؟؟ أنت مجنون بلا أدنى ريب .. وخذ مثلا آخر أنظر إلى إستقبال الناس لك .. حماتك .. الجيران والناس فى الطرقات .. ماذا تريد ؟؟ أخبرنى .. ماذا تريد ؟؟

حتى عملك أتظن أنك تستطيع العودة إليه بسهولة كما تصور لك خيالاتك المريضة وأوهامك العليلة .. إنك تهذى بكل تأكيد .. كل خبرتك فى العمل وقدراتك ومهاراتك لم يعد لها وجود لأنها ذهبت بذهابك أنت شخصيا .. ولو إفترضنا جدلا قدرتك على إثبات وجودك وذاتك فى محل عملك .. سوف يرفضك الجميع .. أتدرى لماذا ؟؟ إنها نفس اللعبة يا صديقى ، لعبة الحياة التى حدثتك عنها منذ قليل، هناك موظف صغير رقى إلى مقعدك وشاب كان ينتظر على بوابة البنك إحتل مكانا أصبح برحيلك شاغرا .. أتريد أن تحطم أحلام وآمال كل هؤلاء بعودتك .. ألهذه الدرجة أنت قاسى وأنانى .. هذا طبعا إذا إفترضنا جدلا إنك أنت هو مكرم سعيد

الأستاذ مكرم فى مرارة .. وأنت ؟؟

حسين فى ترقب .. مالى أنا ؟؟

الأستاذ مكرم فى إصرار .. ما مصلحتك أنت فى موتى ؟؟

حسين فى لهجة عملية إلى أبعد حد .. أنا لا مصلحة لى سوى إتباع سنة الحياة والموت والحفاظ على قانون وطبيعة الأشياء

والأحداث .. ومنع تسرب الجنون والخرف إلى نظام حياتنا .. كل نصيبى من موت أخى هو ذلك العبء الذى ألقاه على كاهلى عندما أوصانى قبل موته بشهر واحد بأن أكون وصيا على أولاده وعلى ميراثه الذى تركه عهدة وأمانة فى رقبتى .. ثم تابع وكأنه يتحدث إلى نفسه .. مسكين مكرم وكأنه أوحى إليه من طرف خفى بما سيحدث له

الأستاذ مكرم فى أسف مرير .. وزوجته .. ألم يوصيك بها هى الأخرى ؟؟

حسين فى غضب مفاجىء ... لا مزيد .. لقد تجاوزت كل حدودك .. ويبدو أننى كنت مخطىء عندما أضعت وقتى مع مجنون مثلك لا صفة له ؟؟

الأستاذ مكرم فى إبتسامة ساخرة .. لا تغضب هكذا .. ولا تؤاخذنى .. فأنا كما تقول مجنون .. ولا حرج علىّ .. ثم تابع وهو ينظر إلى عين حسين مباشرة ويتنهد .. إذن .. فهذه هى نهاية المطاف .. لا أمل أبدا .. أليس كذلك ؟؟

حسين وقد هدأ إنفعاله قليلا .. هذا هو القانون .. لقد قمت من مقعدك سواء أكانت هذه غلطتك أنت أو غلطة غيرك .. المهم إنه قد صار هناك مقعد خالى وفارغ .. والحياة لا تطيق المقاعد الخالية ولا تتحمل الفراغ .. إن قانون رفض الفراغ قانون ثابت من قوانين الطبيعة .. أنت قمت من مقعدك فإحتله شخصا آخر فيجب

إذا أردت البقاء بين الركاب أن تظل واقفا بلا مقعد محدد وبلا صفة أو هوية .. فالصفة حكر فقط للجالسين المطمئنين فى مقاعدهم أما الواقفين فلا صفة لهم فقد تجد من بينهم من ركب وهرّب من دفع ثمن التذكرة ومنهم من رثى الكمسارى لحاله وأعفاه من دفع الثمن ، ومنهم سىء الحظ الذى دفع ثمن التذكرة ولكنه لم يجد مقعدا خاليا يجلس عليه فظلت عيناه تترقب فرصة خلو مقعد .. إفعل مثله ومن يدرى فربما تصبح لك صفة بعد حين ويصبح لك مقعد وكيان.. أما مقعدك القديم وإسمك وصفتك فينبغى أن تنساهم إلى الأبد.

وبعد من يجد فرصة مثل فرصتك تلك .. إن الأقدار تمنحك فرصة ثانية لتغيير وإختيار كل شىء من جديد إسمك وصفتك وذاتك أتدرك معنى ذلك ؟ بيت جديد ، أسرة جديدة .. عمل جديد .. شكل جديد .. هدف جديد .. معنى جديد للحياة والله أنا أغبطك وأحسدك على هذه الفرصة العظيمة التى قلما تجود بها الحياة لأحدا من الأحياء.

تحرك الأستاذ مكرم سعيد تجاه باب الشقة ليغادرها إلى الأبد .. وفتح الباب .. ثم إلتفت تجاه أخاه حسين وعيناه تملأها الدموع وصوته يخنقه البكاء وقال لأخاه فى لهجة ضعيفة مستسلمة راجية .. قبل أن أغادر يا حسين ألا تريد أن تضمنى إلى صدرك ضمة الوداع كما يفعل الإخوة بعضهم ببعض

وكاد حسين أن يستجيب لنداء الضعف الإنسانى الفريد من نوعه ولكنه تماسك فى اللحظة الأخيرة مجاريا طبعه فى قدرته العجيبة فى السيطرة على مشاعره وترويض ما يشذ عن طبيعته العملية .. فقال للأستاذ مكرم فى لهجة حاول جهده أن تبدو طبيعية .. لا فائدة .. سبق وأن بكيت على أخى بما فيه الكفاية يوم موته أما الآن فليس لى أخ أضمه إلى صدرى أو أشفق عليه أو كما يقولون الحى أبقى من الميت

الأستاذ مكرم سعيد فى نظرة إذدراء .. ما أقسى قلبك !!

وفتح الباب .. وتحرك تجاه السلالم .. فأحس بيد أخاه حسين توضع فوق كتفه برفق وسمع صوته يقول له فى نبرة هادئة خاشعة .. صدقنى يا أخى .. إن حياتنا تلك لا تنتهى فقط بترولنا إلى حفرة المقبرة .. وإنما تنتهى أيضا عندما ينتهى دورنا وعطاؤنا لمن حولنا ، تنتهى عندما يفترضون زوالنا ، حينها فقط نسقط من نظر الأحياء .. تنتهى حياتنا عندما يرفضنا الناس ونموت فى أذهانهم وقلوبهم .. حينها نكون متنا حقا ونحن لا نزال على قيد الحياة ، حينها نصير مجرد صورة باهتة فقدت لونها ملفوفة بعناية فى شريط أسود قاتم أو ذكرى قديمة تهز قلوب من أحبونا فى يوم من الأيام هذا هو نصيب الميت لدى الحى ولا يصح أن تطمع فى أكثر من هذا .. وبمرور السنين سوف يلحق بك هذا الذى يحمل لك فى قلبه الذكرى ولا يبق لك أثر بعدها ، وحينها ستكون الدهشة العظيمة ، هل كنت

حقا كائنا فى يوم من الأيام !! هل حقا مررت بالحياة الدنيا من قبل !! لا أحد يذكر .. هذه هى حياتنا .. أنت تقول بإحساسك إنك حى ولكن الناس يقسمون بأنك ميت شهادة مَن التى من المفترض أن يؤخذ بها .. أشهادة الأحياء أم شهادة فرد لا يصدق هو ذاته إن حياته كانت حقا فى يوم من الأيام .. إذهب يا أخى وحاول أن تجد لنفسك مقعدا عوضا عن هذا الذى أضعته وسلبه غيرك

نزل الأستاذ مكرم سعيد على السلم ببطء وتمهل وهو يفكر فى هذا الذى سمعه من أخيه، وقال لنفسه هامسا .. لأول مرة تصدق يا حسين .. حقا فأنا قد مت عندما إعتقد الناس إنتهاء دورى فى الحياة بصفتى مكرم سعيد وليس هناك معنى لإستئناف الحياة بتلك الصفة ، ولكنى حى وأصدق إنى حى وإذا أقسم الناس بأنى ميت ، سوف أقسم أنا الآخر وأبر بقسمى بأننى حى .. حى .. لا يشترط أن أعود إلى الحياة بصفتى القديمة .. لا يشترط أبدا .. سوف أبحث عن مقعد آخر بجوار السائق أو خلفه أو حتى فى نهاية الأتوبيس .. المهم أن يكون لى مقعد .. لن أرفض الحياة أبدا .. ولن أكفر بها أو بقانونها فأنا حى .. لا أزال حيا .. ولن أيأس من المحاولة أبدا



مجنون الإسكندرية



في أواخر حقبة الثمانينيات وحتى منتصف حقبة التسعينيات من القرن الماضى وعلى وجه الدقة والتحديد ما بين عامى ١٩٨٨ و١٩٩٦، ظهرت فى مدينة الإسكندرية شخصية من أغرب وأعجب وأظرف الشخصيات التى من الممكن أن يصادفها المرء فى حياته .. هى شخصية رجل أشبه ما تكون بالشخصيات الكاريكاتورية لفظا ومعنى، إتخذت من كورنيش الإسكندرية الممتد من قصر المنتزه بحى المنتزه إلى رأس التين بحى الجمرك مسرحا لظهورها .. تلك الحقبة الزمنية التى سبقت الثورة الإصلاحية التجديدية التى نهض بها المحجوب فى تلك المدينة الساحرة الرابضة على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

لا أحد يدرى على وجه الدقة أو التقريب من أين جاء هذا الرجل أو ما هى قصته أو حقيقته، ولا أحد يدرى إن كان قد هبط من السماء أم نجم من الأرض!! لا أحد يدرى .. ولا أظن أن أحد سعى أو إهتم للبحث عن حقيقة هذا الكائن البشرى .. ومن يكون

هو حتى يجد من وراءه أحد يسعى لمعرفة حقيقته أو محاولة إكتشاف وتتبع تاريخه !! إن هو إلا شخص مجنون مخبول من بين عشرات المجانين المخابيل المنتشرين فى مدينة الإسكندرية رجالاً ونساءاً .. تعرفهم بسيماهم المعهودة المألوفة من التشرد والعرى وقذارة الملبس والملمس ، تجد أحدهم يسير بملابس بالية مهلهلة ممزقة لا تكاد تكفى لستر جسده المتهالك المتداعى الأسود اللون ، الذى لا تدرى هل هو لون طبيعى موروث أم لون مكتسب نتيجة التعرض الدائم لأشعة الشمس وحرارتها الشديدة القاسية .. هذا فضلا عن طبقات الطين والقذارة المتراكمة فوق جسده على صورة طيات تعلوها طيات.

تجده يحمل فى يده شوال أو أكياس قماش أو ما شابه ذلك قد حشاها هو أو حشاها له الزمن كراكيب ومخلفات وقمامة وبقايا مأكولات وأشياء لا قيمة لها ولكنه يحملها فوق كتفيه أو يجرها على أرض الطريق أينما توجه أو أينما وجهته الأقدار وتنتابه حالة من الجنون والفزع إذا نازعه أحد فى ملكيتها ، وتجد ذقنه طويلة متشعبة مسترسلة وشعره طويل مفرط فى الطول إلى الدرجة التى قد يلتف فيها عند نهاياته على صورة ضفائر عنقودية من تلقاء نفسه لفرط إهماله وقلة تهذيبه .. وقدم حافية قذرة المظهر مشققة من كافة جوانبها لكثرة الحل والترحال ودوام التنقل والتجوال ، تلك الكائنات البشرية أو التى كانت بشرية فى يوم من الأيام والتى لم تعد تحمل من بقايا الآدمية وظلال الإنسانية سوى مجرد ذكريات باهتة وصور شاحبة ، تلك الكائنات المتجولة فى أرجاء المدينة برا وبحرا تراهم مستلقين بجوار دور العبادة وتحت الكبارى ومطروحين أرضا

عند السكك الحديدية أو مكومين فى عرض الطريق .. لا أحد يدرى من أين جاءوا أو ما الذى فعل بهم هذا !! أو.. ما هو تاريخهم الحقيقى الذى إنتهي بهم إلى مثل تلك الحالة؟؟

وإذا ذاع صيت أحدهم أو أصابه على غير علم منه أو سعى شئ من الشهرة ، ترى الناس يلفقون له ما شاءت لهم أوهامهم وخيالاتهم .. وما تراءى لخواطرهم من الأكاذيب والإختلاقات وقد يكون لها نصيب من الصحة أو يعتريها شئ من الحقيقة ، من يدرى !! فيشيرون إلى أحد هؤلاء المجانين ويقولون لك كان وكان .. كان ثرى من الأثرياء وكان جبار من الجبابرة كان من أكثر الوحوش الآدمية ضراوة ، أنظروا ماذا فعلت به الأيام والأحداث!! أنظروا إلى قدرة الله جل شأنه وتسلطه على الجبابرة العتاه .. ويشيرون إلى إحدى النساء اللآتى على تلك الشاكلة من الجنون والعته ويقولون لك .. لقد كانت فى زمانها جميلة الجميلات وفاتنة الفاتنات ،كانت عاهرة فاجرة .. راقصة داعرة .. كانت وكانت ، أنظروا إليها الآن كيف أصبحت وإلى أى حال صارت!! ويظلوا يتسلسلون فى خيالاتهم ورواياتهم حتى ينتهوا بك إلى المقابلة المفزعة بين ما كانوا عليه وذلك الذى صورته لك أحاديثهم ورواياتهم التى تنهض على مقدار ضخم من الأكاذيب مختلط بشئ يسير من الصدق، وبين ما صاروا إليه وهو ما تراه رأى العين بمجرد النظر دون حاجة إلى شرح أو تعقيب .. تارة هى الخيانة ، خيانة الزوجة أو الأولاد أو شركاء العمل وتارة أخرى هو تعرض هذا الرجل أو تلك المرأة لصدمة من

صدمات القدر وكارثة من كوارث الحياة فلم يثبت لها العقل ولم تحتملها النفس فإختل توازنهما، فصار إلى ما صار إليه ذلك الرجل أو تلك المرأة.

وهكذا تجد حكايات الناس معظمها أو كلها تدور بك فى إطار وفلك الإرادة الإلهية والمشيئة الربانية "إن بطش ربك لشديد "..

وأنا معهم فى ذلك فأنا عندى يقين بأن وراء كل واحد من هؤلاء قصة وحكاية وتاريخ .. قد تكون قصة مؤثرة أو عجيبة أو متشابكة أو غريبة .. وقد تكون قصة بسيطة .. وأحيانا قد تكون قصة تافهة فى نظرك أنت ولكن لا أظنها كانت هكذا بالنسبة له بأى حال من الأحوال فهى التى دفعته إلى تلك الحالة الجنونية وأمسكت به من تلابيبه وألقت به إلى حياة التشرد والخبل .. فأمثال هؤلاء لم يهبطوا من بطون أمهاتهم ليجدوا أنفسهم فى الشوارع ينطلقون مهابيل مخابيل ، وإنما فى يوم من الأيام كانت لهم حياة .. أى حياة .. لابد أن كان لهم زوجة وكان لهم أولاد وكان لهم عمل، ومن يدرى!! فربما يكون بعض ما يتناقله عامة الناس عنهم صحيح من ناحية أنه كان لديهم ثروة ونجاح وطموح ونصيب من الوجّاهة الإجتماعية من يدرى !! إن هؤلاء وأمثالهم هم النموذج البارز والصارخ لبطش اليد الإلهية والإهانة المقصودة للآدمى الذى تجاوز وأسرف، وهى تلميح بسيط غاية فى البساطة لمراد الله جل شأنه عندما يريد بالبعض " العذاب المهين " وهم لا يزالون على قيد

الحياة الدنيا.

أحيانا عندما يصادفني أحدهم فى الطريق أجده يهذى بكلمات ليس لها معنى أو مفهوم واضح .. وأجد هذا شئ بديهى وطبيعى وليس مستغرب من شخص مثله مجنون ومعتوه ولكن من بين تلك الكلمات أجده يسب شخص بعينه ويذكره بالاسم ويلح فى ذكره ليل نهار.. لنا أن نقول إنها تخاريف وتفوهات صادرة عن مجانين لا يؤخذ بها، ولكن لنا أيضا أن نتأمل فى حال بعضهم ونتساءل! من يكون هذا الشخص الذى يسبه المجنون ؟؟ هل هو مثلا ذلك الرجل الذى إستولي عل أمواله أو على زوجته كما يروى بعض العامة ، هل هو الرجل الذى حال بينه وبين مصدر رزقه وحطم حياته ومستقبله كما تتناقله الألسن وتخوض فيه الخواطر والظنون ، يجوز لم لا، وتجد أحدهم يسب الحكومة وأغلبهم يسب الناس عامة جمعاء بلا سبب أو مبرر .. وقد تجد أحدهم يسب أفراد أسرته أو عائلته أو أمه .. وأذكر إننى رأيت أحدهم من قبل يصرخ بأعلى صوته قائلا " أنا الزانى إبن الزانية " ويكررها كثيرا ويصرخ بها صراخا طويلا مريرا .. يصم الآذان ويشق الآفاق كأنه يستنجد برحمة الله أو يستمطر لعنات السماء .. أليست كلمة مثل تلك وصرخة كهذه من الممكن أن تكون بمثابة بقعة ضوء عريضة وعميقة .. وضوء كاشف بعيد المدى يهدينا ويأخذ بأيدينا إلى سر هذا الرجل وحقيقة مأساته وبدء شأنه.

ولن أنسى أبدا منظر رأيته وأنا طفل صغير لإمرأة كهلة دميمة الوجه .. سوداء اللون .. ثقيلة الوزن تسير فى الطرقات عارية تماما لا يكاد يستر جسدها سوى قطعة من القماش المهلهل الممزق الذى

بالكاد يكفى لستر خصرها.. ولنا أن نتساءل كيف تردّت هذه المرأة إلى تلك الحالة المهينة وكيف صارت إلى هذا الوضع المخجل؟ الله وحده أعلم .. وهؤلاء المجانين المخابيل يشتركون جميعا فى تقليب محتويات صناديق القمامة وسب الناس المارين أمامهم وبجوارهم بأقطع الشتائم وأفظع الكلمات النابية بلا داعى أو مبرر، وقذفهم بالحجارة والبصق عليهم ، وأحيانا الفزع منهم والفرار من طريقهم ، هذا هو عالم المجانين .. هم مجانين مخابيل .. ولكن وراء كل واحد منهم تستتر قصة وينطوى تاريخ.

أما صاحبنا هذا أو بطل قصتنا تلك فقد كان مختلفا عن كل هؤلاء تمام الإختلاف ومفارقا لهم فى المظهر والمخبر ولولا أرضية مشتركة ثابتة وحلقة وصل متينة ربطت بينه وبينهم وطوته وأدرجته تحت قائمتهم لربأنا به أن نجعله منهم أونسمه بسيماء المجانين والمخابيل.

كان أشبه كما قلنا من قبل بالشخصيات الكاريكاتورية فى ملبسه ومظهره .. وإسلوب حياته وطريقة بقاءه بين الأحياء والأشياء .. كان كائن برمائى يقضى حياته ما بين التسكع على كورنيش الإسكندرية وبين الخوض فى مياهها، يقضى نصف يومه فى مياه البحر ويقضى النصف الآخر سائرا متسكعا مترنحا كالثمل على الكورنيش.. كان شاب فى الثلاثينات من عمره لا تستطيع أن تحدد على وجه الدقة إن كان فى أوائلها أو نهاياتها .. وكان عارى الجسد لا يستره سوى شورت قصير أسود اللون ، ودائما تجده

يرتدى فى قدميه حذاء مهلهل وبالى ولكنه لا يسير حافيا أبدا لا صيفا ولا شتاءا، وفى أيام وليالى الشتاء الباردة القاسية تجده يرتدى جاكت بدلة ممزق ومهلهل لا تدرى من أين أتى به أو كيف حصل عليه ولا تستطيع على وجه الدقة أن تحدد له لون أو معالم!! جسده طويل ممشوق القوام كأجساد الرياضيين وأظنه إستطاع الحفاظ على قوامه هذا بسبب وجوده الدائم فى مياه البحر مما أكسبه القوام الرياضى الممشوق والجسد النظيف .. يحيا على فضلات الطعام التى تتخلف عن المصطافين ومن الوجبات التى يلقيها إليه أصحاب القلوب الرحيمة والنفوس التقية.

أما وجهه فأنا أتحدى أى شخص ينظر إليه ويطيل النظر أيضا أن يستطيع أن يصف لى شئ من ملامحه أو من معالمه فهو صاحب شعر رأس أسود غزير كثيف إذا إبتل تساقط فوق جبينه وإنسدل خلف رأسه حتى يبلغ منتصف ظهره .. وإذا جف صار أشعث الرأس ثائر الشعر لا يستقر شعره على جانب ولا يطمئن إلى ناحية من نواحى رأسه فهو دائم الحركة دائب النشاط كصاحبه تماما .. ومظره عموما له مهابة عجيبة تخطف البصر لمن يراه لأول وهلة .. وتحار وتتساءل كيف تسنى لهذا المجنون أن يؤتى هذا القدر من المهابة .. هذا عن مظهر الرجل ولا أظن أن مظهره وشكله قد أصابه إختلاف ذا خطر أو أن الزمن قد ناله بأقل تغيير يذكر طول تلك السنوات التى راقبته وعرفته فيها .. وعرفته فيها مدينة

الإسكندرية.

أظن قد إنتابكم بعض العجب وراودتكم الحيرة والدهشة عندما قلت لكم أننى ظللت أرقبه وأراقبه طوال سنوات عدة ، وأرقب ما يصيبه من تغيير وما يناله من إختلاف، ولا أظن أننى كنت الشخص الوحيد الذى فعل هذا ، فغيري عشرات ومئات بل وأكثر ، وليس هذا أيضا بالأمر العجيب أو المستغرب سواء بالنسبة لى أو لسكان الإسكندرية جمعاء .. فليس من شخص فى مدينة الإسكندرية سواء كان يسكن بالقرب من الكورنيش أو يتوافد عليه فيمن يتوافدون طوال موسم الإصطياف وأيام الشتاء إلا وهو يعرف من يكون مجنون الإسكندرية.

فبعد عدة سنوات من ظهور هذا الرجل على كورنيش الإسكندرية .. صار نجما لامعا أطبقت شهرته الآفاق وأصبح بمرور الوقت إحدى السمات الرئيسية المميزة التى يعرفها سكان الإسكندرية والمصطافين المتوافدين عليها فى كل عام.

فليس من أحد فى مدينة الإسكندرية سواء كان من سكانها الأصليين أو من زوارها العابرين يذهب إلى أحد شواطئ المدينة للإستحمام أوللإستجمام و الإسترخاء على رمال الشاطئ أو للجلوس على الكورنيش إلا وهو يترقب ظهور ورؤية مجنون الإسكندرية ، فقد إتخذ هذا الرجل من مياه الإسكندرية وشوائطها وكورنيشها مسرحاً لظهوره كما علمنا من قبل، فقد يراه بعض الناس يسير متمهلاً مترنحاً على شاطئ ميامى وبعد قليل يراه البعض

الآخر يسبح فى مياه سيدى بشر وإذا إنتظرنا ساعة أو بعض ساعة سنجده يسير متأنياً متهادياً على كورنيش إستانلى أو كامب شيزار أو الشاطبى.

وقد إكتسب صاحبنا هذا شهرته تلك من عوامل عدة فالذى ينظر إليه للوهلة الأولى يوقن بأنه مجنون من أولئك المجانين الذين يسيرون فى شوارع المدينة وطرقاهم .. تحملهم أقدامهم المنهكة وتسوقهم أقدارهم المحجوبة .. فهو بمظهره وهيئته يؤكد لمن يراه ولا يعرفه أنه مجنون مخبول لا فرق بينه وبين أى مجنون آخر من مجانين المدينة.

ولكن سلوا عنه أهل الإسكندرية ستجدهم يقولون لك كلام مختلف تماماً إلى الدرجة التى قد تجد منهم من ينكر كونه مجنوناً من الأساس.. فهم ينظرون إليه نظرتهم إلى ثائر أو عاشق أو حالم أو رجل بلا عقل أو قل إنه رجل فضل وإختار أن يكون بلا عقل .. ستجد من يصفه لك بأنه حلم من الأحلام أو فلسفة أو وجهة نظر، أو كل تلك الصفات مجتمعة وممزوجة فى شخص رجل واحد ، فهم يرونه بإختصار شديد أسطورة سكندرية قد تجمعت فيها كل هاتيك الصفات والمناقب الشخصية الغريزية.

فهو رجل عشق مكان بعينه فلم يفارقه ولا توجد قوة على ظهر الأرض قد تجبره على مفارقة هذا المكان ألا وهو مدينة الإسكندرية بشكل عام .. ومياهها وكورنيشها بشكل خاص فهو يقضى نهاره

سابحاً فى مياه البحر، مياه ميامى أو مياه المندرة أو مياه إستانلى.. حتى إذا أذنت الشمس بالغروب والزوال وآوت إلى مضجعها فى ناحية من نواحى الأرض وجانب من جوانب السماء تجد صاحبنا هذا قد غادر مياه البحر وقرص الشمس البرتقالى المحترق يتساقط خلفه رويداً نحو الأفق المجهول .. فيرتمى بجسده العارى فوق رمال الشاطئ اللامعة الدافئة ويظل يتقلب ويتشقلب عليها حتى يجفف نفسه من قطرات الماء العالقة بجسده، وكثيراً ما تراه يجرى على الشاطئ ويهرول ويعبث بالرمال وينثرها فى الهواء تماماً كما يفعل الصبية اللاهين العابثين.. وبعد غروب الشمس بلحظات ومع أول منازل القمر وأولى درجات الليل التى يهبط فيها الظلام على الأحياء والأشياء، تجده قد فارق الشاطئ وصعد إلى الكورنيش ليسير أمام الناس وبينهم لا هو ينكرهم ولا هم ينكرونه ، هم لا ينكرونه لأنه مختلف عن بقية المجانين الآخرين، فهو نمط فريد ونموذج مختلف ونسيج وحده فى عالم المجانين والمخابيل.. فقد منح صاحبنا هذا للجنون مذاق خاص وأغدق على إنعدام العقل والمنطق نكهة فريدة.

فهو نظيف الجسد مفرط النظافة لبقاءه الدائم فى المياه، وهو أليف وودود لا يؤذى الناس والمارة ولا يخيفهم ولا يسبهم ولا يقذفهم بشئ .. ولا يتحدث إلى أحداً منهم ولا يزعجهم ولا يتدخل فى أمر من أمورهم أو فيما لا يعنيه .. وإذا نظر إلى أحدهم فهى نظرة عابرة غير متفحصة وغير عابئة بشئ بل العكس هو ما يحدث عادة فإنك تجد أحيانا البعض يسعى إليه ويراودونه بلطف

ورقة ليجلس بينهم لإلتقاط بعض الصور الفوتوغرافية ، فيضطر صاحبنا مرغماً إلى الخضوع لرغبتهم فتجده قد جلس بينهم ونظر غير عابئا إلى المصور ، حتى إذا ما إنتهى الأمر وقضيت الحاجة تجده يتعجل الحركة والإنفلات من بينهم وكأنه واجب ثقيل يريد الخلاص منه والإنطلاق من قيده وأسره .. وقد رأيت بعض الصور التى تمكن أصحابها من سياسية صاحبنا المجنون هذا لإلتقاطها معه .. أرأيت إلى أى حد ذاع صيت هذا المجنون وأطبقت شهرته الآفاق وملأ أسماع وأذهان أهل الإسكندرية والمصطافين الذين يأتون إليها فى كل عام من كل مدينة فى مصر.

وإذا عبث به بعض الصبية تركهم يعبثون به كيفما أحبوا حتى يملوا هم أنفسهم .. أما إذا زاد عبثهم عن حد إحتماله فإنه يفر منهم ويهرول ويركض .. أو يحتمى ببعض المارة الذى يتطوعون للذود عنه والحيلولة بينه وبين عبث الصغار، وأحياناً يستوقفه بعض المارة المتطفلين لمحاولة إستدراجه إلى بعض الحديث أو لتفحص وجهه .. ذلك الوجه الذى لا يبدو منه سوى عينان واسعتان دامعتان على الدوام ووجنتان غائرتان وشفتان ممتلئتان تخفى تحتها أسنان بيضاء متناسقة لها بريق عجيب ووهج خاطف، ولكنه صامت لا يتحدث إليهم بشئ وينظر إليهم نظرة من يقول لهم "دعونى وشأنى" حتى إذا ما أثقلوا عليه وأعجزه الفرار من بين أيديهم تجده قد برك فوق الأرض ووضع رأسه بين يديه وظل ينتحب ويرتجف جسده ويرتفع صوته تدريجياً ببكاء مكتوم ونشيج مكظوم يفطر القلوب ويحرق الأكباد.. حتى إذا ما إنصرف عنه أولئك المارة العابثين من تلقاء أنفسهم إشفاقا به أو إكتفاء بهذا القدر

من السخرية والعبث به ، أو صرفهم عنه بعض المارة العقلاء ينهض صاحبنا من موضعه هذا ويستكمل طريقه الدائم الدائب الذى لا ينتهى على مدى سنوات بين البر والبحر.

وهذا الرجل الصامت الخجول الأليف البرئ براءة الأطفال.. يصير من أشعر الشعراء وأفصح البلغاء وأمهر صناع الكلام وأحذقهم إذا ما رأى من على القرب أو من على البعد غادة حسناء أو جميلة فيحاء .. حينها يهرع إليها ويشق الصفوف من أجلها ويركض تجاهها حتى إذا ما بلغها.. ركع أمامها وإرتمى عند أقدامها وظل يشبب بها وبجمالها ورقتها وعذوبتها وبهائها وروعتها ولا يفتأ يتأمل فى معالم سحرها ومفردات حسنها.. وهى تنهره وتصفعه وتشيح بوجهها عنه وهو لا يزال يشبب بها وبفتنتها وروعتها ويختم حديثه إليها قائلاً .. ما أبهى جمالك يا ميار! ما أروع سحرك يا ميار! فكان هذا الاسم هو الأيقونة أو التميمة المباركة المقدسة التى لم تفارق لسانه طوال تلك السنوات التى لمع فيها شهابه وإحترق فى سماء الإسكندرية.. حتى كنت تجد من يطلق عليه مجنون الإسكندرية ومن يدعوه أحيانا بـــ "مجنون ميار".

وصاحبنا هذا لا يتوقف عند أى فتاة حسناء ولا يفعل ما يفعل مع أى امرأة جميلة والسلام .. وإنما هو يتوقف عند نماذج الجمال الفريدة وتماثيل الفتنة البديعة بحيث إذا حصرنا تلك الفتيات والآنسات والسيدات التى توقف عندهن مجنون الإسكندرية وركع

عند أقدامهن وتحمل صفعهن وإعراضهن لصنعنا العقد الفريد من أولئك الجميلات الحسناوات ، لا من الكلمات والعبارات كما فعل ابن عبد ربه .. فلصاحبنا هذا قدرة فريدة وموهبة فطرية عجيبة وخارقة ليس لها مثيل فى الإحساس بالجمال والقدرة على إنتقاء أجمل الجميلات بحيث نجد كل واحدة من هؤلاء تمثل وحدها نموذج فريد للحسن والبهاء لا يضاهى وليس فوقه مرتقى لراق أو مطمح لطامح فأولئك اللاتى يختارهن المجنون هن عنوان الجمال الذى تندرج تحته جميلات أخريات قامتهن أقصر من قامة صاحبتنا تلك ، ووزنهن أخف منها وزناً فى ميزان الحسن والجمال.

تجده يختار الطويلة ممشوقة القوام فاتنة الجسد ذات الوجه الساحر اللامع والبشرة البيضاء ناصعة البياض والفم الواسع باسم الثغر والصدر الممتلئ فى تماسك والردف المكتنز فى رشاقة...

ويفيض شعراً ويذوب غزلاً أمام قصيرة القوام المتوسطة فى جسدها الممتلئة بإعتدال .. صاحبة البشرة السمراء والأنوثة التى لا تضاهى والإغراء الذى لا يعادله إغراء التى تسير وتتهادى فى الطريق وكأنها ملكة متوجة على عرش البهاء والجمال...

ويترك كل هؤلاء ويهرع للركوع أمام الشقراء ذات الشعر الذهبى والعيون الملونة والبشرة البيضاء والجسد الدافئ اللدن.

ويفقد صوابه ويطيش لبه إذا ما وقعت عيناه على ذات البشرة الخمرية والعين الواسعة والنظرة الداعية الراجية والحركة المتأنية

المتمهلة والإشارة الساحرة الفاتنة .. ويصرخ بأعلى صوته ويجرى بأقصى قوته ليلحق بفتاة صغيرة قد غافلت سنها الحقيقى وإنطلقت من إساره وقيده وسابقها عمرها فسبقته فتبدت لنا فى جسدها الصغير البديع الثائر أنثى مكتملة قبل الأوان فى نهديها الممتلئين فى ليونة وخطوهما الثابتة الواثقة الجامعة بين إنطلاقة الطفولة ورشاقتها وبرائتها.. وبين إغراء الأنوثة وتسلطها وتجبرها.

ويسقط على الأرض ويكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة إذا صادف فى طريقه الأنثى التى تقدم بها العمر تلك التى بلغت أقصى أنوثتها وذروة ثورتها وفورة جموحها وإنطلاقها .. تلك التى تسابق الزمن بأقصى ما تملك من قوة وجرأة ذلك لأنها استشعرت بغريزتها بداية العد التنازلى لجمالها فهى تعرض آخر ما عندها من بضاعة وتزينها للناظرين وتلح فى عرضها للمارة، وهى على أتم إستعداد للتفاهم والتفاوض للوصول إلى إتفاق مرضى للطرفين وذلك إستغلالا وإنتهازا لموسم الرواج وإشفاقاً من بلوغ بضاعة حانوتها مرحلة الكساد.

وهذه .. وتلك .. وهذه .. وتلك .. ماذا أقول !! فما أكثر جميلات الإسكندرية وأبرع جمالهن وأشد سحرهن سواء فى موسم الإصطياف أو فى أيام الشتاء .. فالإسكندرية تملك ببناتها ونسائها كنوز من البضائع الساحرة القيمة الكافية والقادرة على تغطية كافة مواسم البيع والشراء فى أسواق الجمال والشباب.

تجد صاحبنا هذا قد توقف أمام إحداهن وخر راكعاً، ويظل يقول لها ويعيد كيفما أفاضت به قريحته وجادت به فصاحته إرتجالاً بغير إعداد أو إستعداد.

ما أروع جمالك يا سيدتى!! وما أبهى ضيائك!!

ليس من المعقول أو المقبول أن تسير مثلك على سطح الأرض وتتساوى قامتك بقامات أخريات ..

فمثلك خلقت للسماء لا للأرض ..

مثلك يا سيدتى أخلق بأن يحلق بجناحيه فى جو السماء .. لا أن يعفر قدميه بتراب الطريق ..

ولا أقول لك يا جميلتى أن ترهقى جسدك الرائع وقوامك البديع بخفقات الأجنحة وتشغلى عيناكى بمسارات السماء.

إنما قصدت أن تحملك الطيور الوديعة وتحلق بك إلى الآفاق وقد إستوى جسدك الساحر فوق ريشها الناعم المريح..

وإمتد بصرك من علياءه إلى أمثالى من العشاق المخابيل..

ولكن أقسمت عليكى يا سيدتى ألا تتركينى فى هذه الأرض وحيدا من بعدك ..

خذينى معكى إلى السماء فالحياة على الأرض بدونك لا حياة بها..

خذيني معكي وسوف أتشبث بريش الأجنحة .. أو إجعليني فى حواصل الطير أو عالقاً بأرجلها ... أقول لكي يا مولاتى إجعليني أنا الطائر وأنتِ الراكبة .. تسلقى بأقدامك الرقيقة كتفى الغليظ وباركى ظهرى بإمتطائه ودعينا نترك هذا الكوكب ونرحل عن هذه الأرض ونحلق فى الجو ونرتفع إلى السماء.

وسأظل طائرك وعاشقك إلى الأبد

دعينا نحاول ياسيدتى

ويجد المارة على الكورنيش هذا المجنون المخبول وهو يحرك ذراعيه فى الهواء بعنف وقوة كأنه يستعد فعلا للطيران .. وقد إنتفض جسده وإنتشر شعره بشكل لا يستطيع من يراه أن يتمالك نفسه من الضحك والسخرية والعبث.

وتضيق به الفاتنة ولكن بعد أن تأخذ نصيبها من آيات البلاغة فى جمالها وروائع أدب المخابيل فى حسنها وتظهر علامات الضيق والغضب وتكسو وجهها بدلائل الإعراض والإشاحة والتأفف وينطلق لسانها ببعض كلمات وألفاظ تلقيها أمام المجنون وتقصد بها المارة لدفع الملامة ولتغطية موقفها أمام هذا المجنون وكأنها لم يكن فى إمكانها تجنب وقفتها تلك .. أو كأنها أجبرت على الإنتظار والتمهل تعللا بأنه هو من إعترض سبيلها وإنما الحقيقة أن الأمر برمته جاء على وفاق إرادتها ورغبتها وهواها.

ويندفع صاحبنا تجاه الأخرى ويظل يردد كلمات وأشعار وإرتجالات تبهر المارة وروادى الكورنيش ويتساءلون فيما بينهم من أين لهذا الرجل المجنون مثل تلك الفصاحة والبلاغة والقدرة على إتقان الغزل وإطلاق التشبيب !! ولا يملكون إجابة على أسئلتهم تلك ، فيظلوا يقولون ويعيدون فيما قاله المجنون وهم مبهورين لا يملكون سوى التعجب والإندهاش وضرب الكف بالكف.

يا فاتنتى إن جمالك وحسنك وروعتك ليست من هذا الكون فى شئ

لون شعرك ياجميلتى لم أجد له مثيل بين ألوان قوس قزح أو ليل السماء أو ذائب الشمس ومصهورها إذا ما بلغت نهاية مطافها وغاية مسعاها

وبياض عينيك يا سيدتى لا مثيل له بين لون الثلج أو اللبن

وهذه الأيقونه الساحرة السابحة فى بياض الثلج وليونة اللبن هل هى من نجوم الليل أم من حبات الكريز!!

وتلك البشرة الناعمة الملساء هل هى من الحرير أم صفحة من صفحات جدول مائى يمضى متهاديا متمهلا!!

وذلك الجسد الممشوق المتألق الثائر الجامح المتسلط هل هو من تضاريس الأرض أم من مسارات السماء!!

أخبرينى يا سيدتى

فقد أوشكت على الجنون

وقد تصدق بى الظنون

فهم يقولون عاشق أو مجنون

وقد أحاطت بى العيون

أنقذينى يا سيدتى وإرفقى بى

إذا كنتى من هذا العالم فإصفعينى على وجهى حتى أفيق

وإذا كنتى وهما من الأوهام وحلما من الأحلام فدعينى نائما ولا توقظينى فليس لى فى الحياة أرب حتى أفيق من أجله

ولا أنتظر من الدنيا منفعة لأتعجل من أجلها القيام

وإذا كنتى من عالم آخر فخذينى معكى

وعلمينى يا سيدتى كيف أكون من عالم آخر

دعينى راكعا عند قدميك...

إذا كنتي حلما فدعيني نائماً...

وإذا كنتي وهما فذريني تائها هائما...

وإذا عدتي إلي عالمك فإجعليني معك.. هائما في فلكك .. سابحا في مدارك .. مجذوبا إلي جوارك.

ويختم حديثه إليها وقد إلتفت بجانب رأسه تجاه السماء وسدد

طرفه نحو القمر ووجه الحديث إليه قائلاً.. ألا تستحي أيها القمر!!
إنك تحاول عبثا لفت نظري وتشتيت إنتباهي وإغوائى بحسنك
وإغرائى بدلالك، ولكن هيهات.. فقد إستحوذت هذه الحسناء
علي ما تبقي من عقلي.. وسرقت قلبي.. وإحتلت وجداني..
وسحرتني فلم أعد أري سواها ، أين حسنك أنت من حسنها ؟؟
وماذا يكون جمالك وبهائك بجوار جمالها وبهائها ؟؟ ثم يوجه حديثه
إلي الساحرة الحسناء قائلاً لها في همس خافت .. إرفقي بالقمر يا
سيدتي فقد تزين الليلة في أبهي حلله وأروع صوره وأجمل حالاته ..
فلا تخجليه وإنصرفي من هنا سريعا .. حتى يسترد القمر وضعه
ونفوذه وهيبته أمام أهل الأرض ونجوم السماء.

وقد أتقنت جميلات الإسكندرية هذه اللعبة" لعبة مجنون
الإسكندرية" فهن يذهبن إلي الشاطئ أو الكورنيش ويمسحونه
ذهاباً وإيابا.. سيراً علي الأقدام أو إمتطاءا للعربات.. من أدناه إلي
أقصاه .. أملاً في لقاء مجنون الإسكندرية .. ليس مجرد لقاءه وإنما
إيقاعه وإغراءه للتعرض لهن واعتراض سبيلهن حتى يختبرن مدي وقع
أثر جمالهن عليه .. ويظللن واقفين أمامه يتلقين آيات الإبداع
وصنوف الوصف وإعادة القول في الجمال والسحر ودروب
السياحة والتجوال في تفاصيل الجمال والبهاء، وبعد أن يقضوا
مآربهن ويتحايلوا علي أغراضهن، تجد منهن من ترفق به فتدع له
مساحته وفرصته الكاملة في الوصف والتصوير ثم تنهي حديثه

واسترساله الذي لا ينتهي بإشارة من يدها أو ببسمة رقيقة من شفتيها وهي تقول له كفاك يا مجنون الإسكندرية.

ومنهن من تظهر التأفف والضيق والغضب .. وتبطن الرضاء والتلهف والتلذذ بالسماع فتظل تقول له وتعيد ..

لا تعترض طريقي يا مجنون الإسكندرية

أتركني وشأني أيها الأبله

لا ينقصني غيرك يا معتوه

كفاك ثرثرة أيها المجنون.

وتظل تقول له وتعيد في أمثال تلك الأقاويل وهي لا تزال واقفة في مكانها لا تتحرك، كل هذا لتطيل وقفتها وبقاءها أمامه حتى تستوفي نصيبها الكامل من الوصف والتشبيب بشكل لا يعرضها للوم أو للتبذل.

ومنهن من تسعي إليه كاشفة النقاب عن نيتها .. وسافرة القناع عن رغبتها .. وقد تنافس صديقاتها علي أيهن ؟؟ سوف يختارها مجنون الإسكندرية للركوع أمامها والإسهاب في حسنها وروائها.

وكلهن يشتركن المتمنعة منهن والمقبلة في إستراق النظر إلي المارة لإختبار وقع حديث المجنون علي أسماعهم وعلي مرأي منهم.

والكثيرات يسعين إليه متبذلات متهالكات عليه ومتهافتات على

نظرة منه حتى يتباهين بها الجميع.. لأن الجميع يعرف من هو مجنون الإسكندرية .. وعند من يحط رحاله.. وأمام من يرتمي ويرفع يديه ضارعا.

ودائماً يختم مجنون الإسكندرية وصفه وتشبيبه قائلاً .. ما أبهي جمالك يا ميار!! وما أروع حسنك!!

وكان الجميع يتساءلون فيما بينهم .. من تكون ميار تلك؟؟؟

ولكن... لا إجابة!!!

ولم يكن عند أحد منهم شك في أن ميار تلك هي التي أطارت لب صاحبنا .. وذهبت بعقله.

وكان هذا مما يثير غيظ وغضب جميلات الإسكندرية ، اللاتي كن يشعرن في مثل تلك اللحظات أن كل هذه الكلمات وعبارات الغزل والتشبيب لم تكن لهن وإنما كانت لميار.. فكأن هذا المجنون يري في كل جميلة من الجميلات وفاتنة من الفاتنات شيء من حسن وسحر ميار.. يري في تلك وقفتها وفي الأخرى نظرتها وفي هذه جسدها وفي الأخرى لفتتها .. وكأن هذا المجنون قد أمسك بغربال ضخم ووضع بداخله كافة جميلات الإسكندرية فلم يغادر منهن واحدة .. وأخذ يغربل ويغربل .. وإستبقي في النهاية منهن أجمل الجميلات وعقد منهن العقد الفريد الذي تحدثنا عنه منذ قليل، فرآه في نهاية المطاف شيء.. مجرد شيء لا أكثر ولا أقل .. لا يكاد يذكر

بجوار جمال وبهاء وحسن ميار.

وهكذا مضت حياة صاحبنا مجنون الإسكندرية ما بين سباحة في مياه البحر.. وشقلبة علي رمال الشواطئ وتسكع وترنح بين المارة علي الكورنيش.. وصب الغزل والتشبيب علي جميلات الإسكندرية.

وفي يوم من أيام الشتاء كنت أسير علي كورنيش الإسكندرية سارحا بخيالي متفكرا.. وكنت قد إقتربت من شاطئ سيدي بشر وكان الجو معتدلا بعض الشيء وإذ بي أرى من على البعد زحاما شديدا علي الشاطئ فقلت لنفسي هي بلا شك حادثة غرق فرد أو بعض أفراد، فباعدت بين خطواتي وأسرعت في مشيتي حتى أشهد بعيني ما يحدث، وكنت قد اقتربت من دائرة الزحام فزدت من سرعتي حتى إبتلعتني تلك الدائرة الآدمية وإخترقت صفوفها وكانت كثيفة وعميقة مما خلق لي صورة عن الحادثة جسّمت في خيالي وصوّرت لي مدي بشاعتها وخطورتها وإلا لما إستدعت وأغرت بكل هذا الزحام الشديد، وإلتقطت أذناي صرخات مكتومة .. وآهات مكظومة ورأيت أعين دامعة ووجوه عابسة تعلوها غبرة وأكف ضارعة وأشياء أخرى لا تفيد ولا تدل سوي علي بشاعة ما حدث بشكل رمزي موجز بلا تفاصيل أو إنباء .. ورأيت شبابا ذكورا وإناثا قد تساقطوا علي الشاطئ الرملي باكين مفطورين من فرط الحزن والرثاء.. فأسرعت في مشيتي وحركتي وإخترقت آخر

صف لأطل علي مشهد الحادثة وموقع الحدث .. وما أبشع ما رأيت.

رأيت جسد شاب أسمر اللون طافيا علي ظهر الماء .. فاردا ذراعيه وكأنه صليب خشبى عائم ظهره للماء ووجهه للسماء وقد أحاطت به ثلة من عمال الإنقاذ وبعض المتطوعين من شباب الشاطئ لإلتقاطه من مياه البحر ثم السعى به نحو الشاطئ .. ظللت واقفا وقلبي يخفق بشدة وصدري يعلو ويهبط فى عنف وترقب وهم يسحبونه إلي الشاطئ الرملي المبتل من أثر ماء المطر حيث وقفنا جميعا نشهد ما يحدث حتى إذا ما كادوا يبلغون به رمال الشاطئ تبينت فيه ذلك العاشق المجنون صاحب الجسد الأسمر القوي والشعر المنتشر الأشعث الثائر.

ذلك الذي كان يسبح في مياه البحر طيله يومه.. وجزء ليس بالقصير من ليله...

ذلك الذي كان يتشقلب علي رمال الشاطئ ويلهو منفردا بعزفه...

ذلك الذي كان ينطلق ويهرول في سيره وركضه وكأنه يسابق شيء غير مرئي أو يسعى نحو المجهول...

ذلك الذي كان يقبع إلي الأرض ويبكي كالأطفال إذا اعترضه معترض أو ضايقه وعبث به فضولي...

ذلك الذي طالما أطال الغزل والتشبيب بجميلات الإسكندرية وركع عند أقدامهن...

مات مجنون الإسكندرية

ولا أظن أنني كنت الوحيد الذي شعر بغاية الحزن والأسى العميق علي موت هذا الرجل .. بل أعتقد أن جميع من حضر هذا الموقف الأليم قد شعر وأحس بأبلغ الحزن والكآبة وهم يحيطون بالجسد الهامد الملقي علي الرمال وقد سكنت حركات جسده القوى المنطلق، وهمد شعر رأسه وذقنه بعد أن إبتل وسكن سكونه الأخير.

وبعد لحظات لا أدري أطالت أم قصرت .. تساقط علينا من السماء رذاذ فجائي خفيف بلا مقدمات أو إنذار.. وكأن السماء تبكيه هي الأخرى وتنعيه إلي الحاضرين وإلي مدينة الإسكندرية.. وإلي كل من عرفه وسوف يفتقده بعد اليوم، وجاوبناها بعبراتنا نحن الواقفين في حلقات ودوائر صغيرة حول الجسد الهامد العاري تحت السماء الباكية والأعين الدامعة والأمواج الهائجة الصاخبة الثائرة في رثاء صامت حزين وبكاء مكتوم أليم.

مات الرجل.. وغرقت الأسطورة قبل أن نعرف سره وحقيقته...

وإنتهي الأمر بشاهدي الحادثة عند هذا الحد.

وإنتهي الأمر عند مدينة الإسكندرية بأكملها عند هذا الحد أيضاً.

ولكن الأمر عندي لم ينتهي وما كان له أن ينتهي... وإنما بدأ.

أردت بكل صدق وبكل شوق أن أعرف حقيقة هذا الرجل الذي عرف وإشتهر بمجنون الإسكندرية، كيف بدأت قصته؟ وكيف صار إلي هذا الحال؟ وكيف إنتهي مثل تلك النهاية المأساوية؟؟

كيف غرق مجنون الإسكندرية !! كيف ذلك ؟ وهو الرجل الذي وصفه البعض بأنه مخلوق برمائي من فرط إتقانه للسباحة وبقاؤه الساعات تعقبها الساعات في مياه البحر .. إنها ليست حادثة غرق إذن إنما هى حادثة إنتحار ، ولكن كيف ؟ ولماذا ؟

وبدأت رحلة البحث عن الحقيقة ..

كل ما إستطعت معرفته في بداية البحث هو تلك القصة المتواترة عن نهايته .. والتي تناقلتها ألسن عامة الناس وأكثروا من روايتها ممن شهدوا الحادثة وممن إدعي أنه شاهدها.. وممن سمع روايتها ممن شاهدها.. وببعض الربط بين تلك الروايات المختلفة .. وبعد غربلة ما يكتنفها ويلصق بها من الأكاذيب والأحاديث غير المعقولة أو المقبولة .. نستطيع أن نصور لحضراتكم حقيقة ما حدث أو أقرب ما يكون إلي تلك الحقيقة.

كان هذا في نهار يوم بمنتصف شهر يناير عندما يشتد الشتاء ويعنف بمدنية الإسكندرية.. تنظر إلي السماء فتراها ليست صافية وملبدة بالسحب ومؤذنة في أي لحظة بسقوط الأمطار الغزيزة.. تجد البحر وقد هاج هائجة وأخذ يجلد الصخر والرمل بسيل منهمر لا يتوقف من الأمواج الغاضبة الهادرة فيتلقى كلا منهما نصيبه من صفعات البحر وجام غضبه فى تماسك وصبر.. وما يفيض من صفعة الأمواج الثائرة أو نتيجة لرد فعل تلك الصفعة ترتد إلى الكورنيش بعض مياه البحر الطائرة الطائشة يصاحبها رذاذ ثقيل فتصيب المارة وطريق الكورنيش بالبلل وأحيانا بالغرق..

فى تلك الأثناء كان صاحبنا مجنون الإسكندرية يسير مترنحا على شاطئ البحر لا يأبه لبرودة الجو ولا يلتفت لرذاذ الماء الشديد العنيف الذى يتقيه الناس ويفروا منه.. كل ما كان يفعله الرجل فى مثل ذلك الجو العاصف أن يرتدى جاكتته البالية الممزقة يقى بها جسده العارى من قسوة البرودة وعنف الأمطار..

وبعد قليل تحسن الجو قليلا كعادته المتقلبة فى أيام الشتاء ثورة يعقبها هدوء .. وغضب يتعبه ببعض الصفاء والرحمة، فصفت السماء بعض الشئ وكشفت عن ما كانت تحتجزه السحب من أشعة الشمس البيضاء الدافئة.. وأخذ بعض الأفراد من هنا وهناك فى التسلل إلى الكورنيش بعد أن أمنوا غضب البحر وثورة السماء .. وصعد صاحبنا إلى الكورنيش وأخذ يسير ويتهادى فى سيره ..

وكعادته أخذ يغازل تلك ويلاعب الأخرى ويفر من عبث الصغار وتطفل بعض الكبار.. ووجد فيما وجد فتاة رائعة الحسن بارعة الجمال فهرع إليها كعادته وإرتمى عند أقدامها وأخذ يصب عليها وعلى جمالها وحسنها ما جادت به قريحته كيفما أحب .. أخذ يقول ويعيد والحسناء بين يديه وملء عينيه وهو مرتمى بين أرجلها وعند أصابع قدميها.

وفجأة ولأول مرة يستطيع شئ .. أيّا كان هذا الشئ أن يلفت نظر المجنون وهو مستغرق فى الغزل والعشق والتقنن فى ضروب الوصف والتصوير .. وهو الذى كان إذا تملكته تلك الحالة غاب عن الوجود بأكمله وربما عن الحياة بأسرها.. حتى أظن أنك إذا ضربت فوق رأسه بمطرقة ضخمة ما أظنه يتألم منها أو يتأوه أو يحس لوقعها بألم أو شعور.. وإذا إستغرق فى تلك الحالة وزلزلت الأرض زلزالها وإرتجت السماء وسقطت فوق رؤوس العباد كسفا فما أظنه بالمفارق مكانه أو بالخارج عن حالته.

وما هو هذا الشئ الذى إستطاع إخراج مجنون الإسكندرية عن حالة العشق والغزل ؟؟

لقد كان صاحبنا المجنون مستغرق مع جميلته تلك .. وفجأة إلتفت بجانب رأسه فرأى سيدة قد فارقت عنفوان شبابها وخطت أو كادت تخطو عتبة الكهولة .. بينة الإمتلاء تعبر الطريق بأطفالها ما بين الفتى الدارج والفتاة الصغيرة والرضيع المحمول على الأكتاف.

وهى ذاتها ليس بها ما يلفت .. سيدة ليست على شئ من جمال.. أو قل إن حسنها الغابر وجمالها البائد وفتنتها القديمة ليست من اليسر والسهولة الواضحة للعيان وليست غنية عن البحث والتنقيب أو قريبة المتناول للأعين والأبصار والأمزجة وليست على كل حال من صنف الجمال والجاذبية الذى من الممكن أن يلفت نظر أى شخص .. ناهيك إذا كان هذا الشخص هو مجنون الإسكندرية ذاته .. وقد وصفها من روى لى تلك القصة بإنها كانت بدانتها وحمولتها الثقيلة المتمثلة فى أطفالها المتعلقين بها وذلك الرضيع فوق كتفها.. وحقائبها المعلقة بيديها والتى تضع بها حاجاتها ومتعلقاتها وحاجات أطفالها الكثيرة المعقدة وخصوصا الرضيع منهم والتى تنوء بثقل حمولتها كانت أشبه بالقافلة .. وقد أغرى مظهرها هذا وهيئتها تلك بالضحك والإشفاق فى آن وهى تتعثر بحمولتها.. فالفتى أمامها يعتدل فى سيرة تارة ويتعثر تارة أخرى والفتاة بجوارها تعبث ببعض الحقائب.. فضلا عن ذلك الرضيع الذى أنهكها فوق كتفيها..

وقد كسا وجهها الغضب من لهو وعبث أطفالها الصغار وعلامات الحذر والفزع وهى تعبر بهم الطريق ودلائل الجهد والإرهاق الظاهر على وجهها من ذلك الحمل الذى تحمله والمتمثل فى إبنها الرضيع والفتيان المتعلقان فى يديها وحقائبها المنتفخة.. فعبر وجهها عن هذا كله.. فضلا عن الشباب الذى بدأ يولى والشعر الأسود الذى خالطه الشيب والنضارة التى غاض نبعها والحيوية التى إنكسرت شوكتها.. وقلة الإعتناء والإحتفال بمظهرها وملبسها الذى حال بينها وبينه الإنشغال بالأطفال هذا فضلا عن الحالة المادية

المتوسطة أو المحدودة أو الغير متيسرة على كل حال والتى تبدو واضحة جلية من مظهرها وهيئتها ، فكان مظهرها هذا كما وصفه الناس الذين شهدوا هذا الموقف أنها كانت فى سيرها بأطفالها وحقائبها كما وصفها لى الرواة من قبل.. كالقافلة المتهادية المترنحة.

هذه هى السيدة.. وهذا هو المشهد الذى لفت نظر صاحبنا مجنون الإسكندرية!!

ولم يقف الأمر عند حد لفت النظر فحسب وإنما ترك مجنون الإسكندرية الفتاة الرائعة التى كان يغازل فيها وسعى نحو تلك المرأة .. مخلفا وراءه نظرات العجب والدهشة مرسومة على وجوه المارة الذين شاهدوا هذا الموقف من أوله وعلى رأسهم الحسناء موضوع الغزل.

وسار نحو هذه السيدة فى خطوات ذاهلة مترنحة ، ونظرات مشدوهة مبهورة وفم نصف مفتوح مما أضفى علي مظهره الجنونى أبعاد أخرى .. وجعله نموذج مجسم وصارخ للجنون والعته والخبل..

وللوهلة الأولى خافت منه المرأة وهو يقترب منها وخاصة على أطفالها .. وإرتدت إلى الوراء فى حركة سريعة خاطفة وبدا من حركتها تلك بأنها لا تعرف مجنون الإسكندرية ولا تدرى شيئا عن شهرته .. فقد ظنته من مجاذيب الطرق الذين من الممكن أن يشكلوا مصدر خطر على من حولهم فأسرعت السيدة فى مشيتها ورفعت

أولادها الصغار عن الأرض وباعدت بين خطواتها .. ولكنه فى حركة فجائية خاطفة سارع هو الآخر فى مشيته ووقف إزاء تلك المرأة وحال بينها وبين الحركة فإرتسم الذعر على وجهها والعجب والتوجس على وجوه المارة والجالسين على الكورنيش ذلك لأنهم يعرفون مدى وداعة ولطف مجنون الإسكندرية .. وهموا بالتدخل لصرفه عن المرأة وحمايتها تحسبا لأى حركة أو فعل جنونى قد يصدر عنه..

وفعلا تحرك بعضهم نحوه وأمسكوا ذراعه برفق .. ولكنه ثار بهم ونظر إليهم نظرة شذراء مخيفة أبعدتهم عنه فى الحال ولأول وآخر مرة يثور فيها مجنون الإسكندرية مثل تلك الثورة الجنونية .. ولأول وآخر مرة لا يفرق أهل الإسكندرية بينه وبين أى مجنون آخر !!

وهمت السيدة بالفرار

ولكنه أمسك بذراعيها ونظر إليها نظرة طويلة متأملة فقاومته السيدة فى البداية .. ثم سرعان ما لانت بين يديه ..

ويصف المارة الذين شاهدوا هذا المشهد بأنه أعجب شئ رأوه على الإطلاق!!

وجدوا المجنون ينظر إلى المرأة ويطيل النظر إليها .. ويقلب البصر بينها وبين أولادها..

وأعجب ما فى الأمر أن السيدة لم تصرخ ولم تستغيث ولم

تطلب مساعدة من أحد .. وإنما ظلت تنظر إليه هى الأخرى وتطيل النظر كأنها تحاول جاهدة اختراق الشعر الكثيف على وجهه وجبهته للوصول إلى أصل ملامحه وتفاصيل وجهه.

وإنحنى المجنون فوق الفتى والفتاة وأخذ يقلب فيهم برفق أفزع الأطفال فى أول الأمر ثم استسلموا له لمّا رأوا إستسلام الأم له .. وكفوا عن البكاء والفزع.

نهض بعدها مجنون الإسكندرية.. وأعاد النظر إلى السيدة .. وأطال النظر إلى عينيها.

ثم تراجع خطوة إلى الوراء ..

وظل يشير إليها ويقلب كفيه أمام وجهها .. وكأنه يسألها وينتظر منها جوابا؟؟

ونظرت إليه السيدة واجمة ذاهلة .. ودمعت عيناها.. ثم إنحدرت دموعها فوق صفحة وجهها فى صمت أليم..

وأحس المارة ومشاهدى هذا الموقف بأن عقل مجنون الإسكندرية كاد أن يعود إليه ويسترده والسر يكمن فى هذه المرأة .. وفى هذا الحوار الصامت الشجى الذى لا يتجاوز النظرات والدموع.

ولكن فجأة حدث شئ جعلهم يصرفون تفكيرهم وأنظارهم عن هذا الظن صرفا تاما ..

فقد تراجع مجنون الإسكندرية بضعة خطوات إلى الوراء وأخذ

فى الضحك والصراخ العابث الصاخب بأعلى صوته وأخذ يأتى من الحركات بذراعيه وبقية جسده ما لا تدرى هل هو رقص أم هذيان أم ترنح ثمل .. أم هى صدمة الموت !!

وتعلقت أنظار المارة بالسيدة كأنهم يسألونها تفسيرا عن هذا الذى يحدث.. فوجدوها هى الأخرى تنظر إليه فى عطف ورفق وتبكى بكاء صامت مرير.

إنطلق مجنون الإسكندرية بعدها بأسرع ما يكون ، وبكل ما يملك من طاقة .. وبغاية الإندفاع تجاه الشاطئ.. وألقى بنفسه فى مياه البحر على مرأى من المارة والعابرين .. وأخذ يسبح بمنتهى العنف والقوة تجاه الأفق .. حتى طوته الأمواج وأخفته زرقة المياه العميقة .. ولم يره أحد بعد هذا اليوم إلا بما يقرب من شهر كاملا.. رآه البعض طافيا فى المياه بالقرب من شاطئ سيدى بشر.

وفى تلك الأثناء عادت السماء إلى غضبتها الأولى .. وكأنها أمهلت عن قصد هؤلاء المارة ليتابعوا هذا المشهد من الألف إلى الياء أو كأنها لم تشأ أن تغرق المسرح قبل نزول الستار وسماع تصفيق المشاهدين وهتاف النظارة .. فتبلدت بالسحب والغمام وأسقطت بعض الرذاذ الخفيف الذى لم يلبث أن صار مطرا عنيفاً ثقيلا أغرق المارة الذين تحلقوا فى صورة حلقات ودوائر متقاربة ظلت ترقب هذا الرجل الذى ألقى بنفسه فى هذا البحر الغادر وبين تلك الأمواج الغاضبة الهادرة.

وفى تلك الأثناء تسللت المرأة بأولادها تحت ستار المطربعيدا عن الأنظار المشغولة المأخوذة بمتابعة المجنون الذى أخذ يشق مياه البحر شقا.. وقد فطن بعض المشاهدين إلى تسلل المرأة وسعيها نحو الهروب فحاولوا إيقافها وإستدراجها للحديث محاولة منهم لمعرفة حقيقة الموقف أو شئ من هذه الحقيقة ، ولكن السيدة ردتهم عنها فى عنف وقاومتهم مقاومة شديدة فلم يجدوا بدا من تركها ترحل فى سلام.

وإختفت المرأة مخلفة وراءها أغرب مشهد وقع فى الطريق وأمام المارة فى يوم من الأيام

وإختفى مجنون الإسكندرية ولم يره أحد بعد هذا الموقف الأليم إلا وهو جثة هامدة وجسد صامت ساكن ملقى فوق رمال شاطئ سيدى بشر .. وكنت أنا أحد هؤلاء المشاهدين.

وإنطوى السر ما بين المرأة الهاربة.. والرجل الميت.

ونام يومها أهل الإسكندرية ملء جفونهم .. من شهد منهم هذا الموقف ومن لم يشهد .. من سمع منهم ومن لم يسمع ولكن ظل أحدهم متيقظا لم ينم .. وكان هذا الشخص هو أنا

أردت بكل شوق معرفة الحقيقة بكل حذافيرها وتفاصيلها ، كان ما بلغنى عن ذلك اللقاء الذى وقع بين المجنون والمرأة والذى إنتهى بهذا المشهد الدامى الذى أودى بحياة الرجل ، لم يكن مقنعا

بالنسبة لى و لم يكن كافيا.

من هذه المرأة التى قابلها المجنون؟؟ من تكون بالنسبة له؟؟ من هذا المجنون أصلا ؟؟ من يكون!!

شعرت حينها بأن المسألة شخصية إلى حد بعيد.

أحسست إحساس غامض خفى بأن هناك شئ ما.. وصلة ما ، تربط بينى وبين هذا الرجل المجنون .. صلة حدثت ذات يوم ولكنى لم أتنبه إليها و لم أعيرها ما تستحقه من الإهتمام إلا بعد موت الرجل عندما وقفت بين جمهور المشاهدين حول جسد مجنون الإسكندرية الذى إفترش رمال الشاطئ الغارقة بالأمطار وإلتحف بالسماء الباكية.

كنت يومها جالسا على كورنيش شاطئ الإبراهيمية أنتظر بعض رفاقى وبعد بضع دقائق من الإنتظار رأيت من على البعد مجنون الإسكندرية يركض بالقرب منى وهو يحاول الهروب من عبث بعض الفتية الصغار الذين ظلوا يلاحقونه بالجرى حتى أنهكوه ، وبعد أن صار منى على مدى خطوات قليلة إستند بجوارى على السور المعدنى الأزرق الفاصل بين الكورنيش والشاطئ عند الإبراهيمية دون أن يلتفت إلىّ أو يعبأ بوجودى وراقبته أنا فى صمت وقد أخذ صدره يعلو ويهبط بشدة لاهثا فى حركة عصبية من فرط الركض والعدو ، وبعد لحظات قصيرة من إطراقه إلى الأرض رفع رأسه إلى السماء وأخذ يقلب وجهه فيها هنيهة .. وبعد أن أشبع وجهه تقليباً فى

صفحة السماء فى مناجاة صامتة ، وشكوى هامسة ، وعتاب خفى إستدار بجانب رأسه تجاهى ونظر إلىّ مباشرة .. ولأول وآخر مرة تتلاقى عينانا فى نظرة أحسست بأنها طويلة وعميقة أو هكذا خيل إلىّ

رأيت خلف هذه النظرة رجل عاشق مجنون .. ولكنه حزين ومكسور.

رأيت خلف هذه النظرة ذكرى عقل سابح فى الماضى وصورة الأليمة الحزينة.. وقلب غارق فى التعاسة والشجن.

رأيت دمعة تترقرق فى مقلتيه وتكاد تنساب على صفحة وجهه ، ونظرة من عينيه تضرع إلىّ وترجونى وتتوسل إلىّ أحسست حينها كأن الرجل يعرفنى من قبل ويسألنى ويهز ضميرى بعنف ويصرخ ويستنجد بى قائلا .. أيرضيك هذا؟

قام بعدها على الفور هاربا كعادته .. يطارد السراب ويسابق المجهول

شعرت بقشعريرة فى أنفى مؤذنة بدمعة توشك أن تشق طريقها على صفحة وجهى ، فسرعان ما أفقت فيها إلى نفسى ومسحت دمعتى بكفى.. وعنفت بنفسى ولمتها وكأننى أسائلها.. مالى أنا ومال هذا المجنون؟؟

ولكن يوم نظرت إلى جسده وهو ملقى أمامى جثة هامدة

ساكنة على رمال الشاطئ الغارقة بمياه المطر .. شعرت تجاهه بالحزن العميق والأسى القاسى العنيف وأحسست بالذنب لقسوة قلبى تلك التى لامتنى وحاسبتنى على مجرد دمعة ذرقتها عيناى إشفاقا ورحمة بقلب حزين كسير ونفس مجروحة متألمة.

فبكيت على موته بحرارة، وأردت بكل صدق الإنقضاض على حاملى الجسد الهامد وإنتزاعه من بين أيديهم وتحريكه بعنف كى أستحثه على البقاء فى الحياة كما كان دوما منطلقا ثائراً عاشقاً .. ولكنه مات .. أردت أن أنزع عن وجهه ذلك القناع الذى كان يرتديه دوما لأعرف سره وحقيقته .. ولكن لا فائدة فإن الرجل كان قد مات حقا !!

ومن يومها أخذت على عاتقى وألزمت نفسى بمهمة البحث عن حقيقة هذا الرجل .. وكشف سره وهتك القناع الذى غلف به حياته .. مهما كلفنى الأمر.

وإستمرت رحلة البحث عن الحقيقة ما يقرب من عام قضيته تقريبا على شاطئ الإسكندرية وكورنيشها من أقصاه إلى أدناه صيفا وشتاءا ، لم أترك مقهى فاخرة أو شعبية تطل على الكورنيش أو تستقر فوق رمال الشاطئ إلا وجلست عليها وتحدثت إلى روادها صغيرهم وكبيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، أبحث وأنقب وأفتش وأسأل كل شىء ، وكل شخص ، صغير وكبير ، قريب وبعيد ، رجل وإمرأة ، من أهل الإسكندرية ومن المصطافين ، من الباعة الجائلين

على الشواطىء ومن رواد المقاهى والحانات.

إلى أن جاء يوما ظفرت فيه ببغيتى ومطلبى.

كنت أجلس يومها على مقهى من مقاهى الكورنيش على مقربة من شاطئ جليم، فوجدت رجلا مسنا بدا لى من مظهره أنه من رواد المقهى الدائبين ومن أولئك الحاذقين الذين يوحى إليك مظهرهم بأن فى إمكانهم أن يدلوك على أى شئ تود أن تعرفه أو تحيط به علما .. فذهبت إليه وسألته عن مجنون الإسكندرية .. هل يعرفه وهل يعرف كيف بدأت قصته وحكايته ؟؟ فأجابنى الرجل بما أكد لى صدق حدسى، وأنه حقا يعرف أشياء أكثر ممن قابلتهم من قبل ، وأن لديه جديد.

سألنى الرجل وهو يبتسم إبتسامة رقيقة حنونة .. ما الذى تريد أن تعرفه على وجه التحديد ؟؟

فقلت له بنبرة حماسية .. أريد أن أعرف عنه كل شئ.

فقال لى الرجل بلهجة متسائلة .. وهل أنا أول من سألته عن هذا الأمر!!

فقلت له وأنا أبتسم .. أننى قضيت ما يقرب من عام وأنا أسأل كل من أقابله عن هذا الأمر

فسألنى الرجل متعجبا مندهشا.. و لم كل هذا العناء ؟؟

فقلت له وأنا أبتسم .. حاجة فى نفس يعقوب.

فقال لى وقد بدا حينها رجلا حكيما إلى حد بعيد .. لكل شئ أصل وحقيقة وتاريخ .. ولكل حقيقة طرفان أو عدة أطراف، وقد خدعك من قال لك يوما أنه قد أحاط بالحقيقة كاملة أو أنه يملك ويجمع بين يديه كافة أطرافها بين أصابع يديه.

فقلت له بلهجة خاملة وقد فارقنى حماسى السابق وحدثته بنبره يائسة فاترة .. إذا فأنت لا تعرف كل شئ عن هذا الأمر؟؟

فقال لى مؤكدا .. أنا أستطيع أن أحيطك علما بنصف الحقيقة

فقلت له متعجلا وقد عاودنى شيئا من حماسى .. والنصف الآخر؟

فقال لى مبتسما وهو يغالب ضحكة خفيفة .. ستجدها عند زيتونة

فسألته متعجبا .. عند مَن؟

فقال لى مؤكدا وهو يبتسم .. عند زيتونة؟

فقلت له متسائلا مندهشا.. ومن يكون زيتونة هذا؟

فقال لى.. إنه مصور فوتوغرافى جوال ستجده فى عدة شواطئ متجاورة ليس له ميعاد محدد أو مكان بعينه .. إبحث عنه فى شاطئ المندرة أو العصافرة أو سيدى بشر.

فقلت له مستحثا إياه لبدء للحديث .. قبل أن أنطلق إليه

لأعرف منه نصف الحقيقة الثانى هات لى أنت نصفها الأول فقال لى وهو يبتسم .. لك ما طلبت .. ثم أنشأ قائلا.

كان هذا فى نهار يوم مر عليه حتى وقتنا هذا ما يقرب من تسع سنوات، تقل قليلا أو تزيد قليلا لا أستطيع أن أحدد على وجه الدقة .. كنت جالسا يومها فى مكانى هذا وقد يكون فى نفس المقعد أيضا، فأنا رائد قديم من رواد هذا المقهى أجلس هنا أتابع ما يقع أمامى وما يحدث بين ناظرى سنة وإثنان وعشرة والعالم يدورمن حولى دورة كاملة .. أتابع وأراقب وأختزن كل ما رأيته وما سمعته فى ذاكرتى إلى أن يأتى يوما ما يجئ إلىّ فيه شخص مثلك فأبيح له وأخبره وأحيطه علما بكل ما رأيت وسمعت وعرفت.

فقلت له متعجلا مستحثا إياه للإيجاز من تلك المقدمة التى طالت بعض الشئ .. أنا مستمع إليك جيدا يا سيدى ومتشوق تماما لمعرفة الحقيقة كاملة.

فقال لى بلهجة هادئة بعد أن سحب نفسا طويلا من غليونه يستعين به على إستدعاء صورة قديمة .. كنت جالسا يومها فى داخل المقهى لائذا بها من جو الشتاء اللاسع القارص خارجها حتى إذا ما تحسن الجو قليلا تسللت إلى خارج المقهى وجلست على مقعدى هذا وكان بياض النهار قد أوشك على الزوال وبلغت السماء الغسق فى بعض أطوارها .. فظللت أقلب بصرى بين غروب الشمس وقد إستحالت إلى كرة عظيمة من النار.. وبين الغادى

والرائح.. أنظر تارة إلى موج البحر المتلاطم فى هدوء والمتصادم بلا صخب، وأنظر تارة أخرى إلى الأطفال اللاهين العابثين تحت الرذاذ الخفيف المتساقط من السماء وفى برك المياه الضحلة التى تجمعت من أثر مياه الأمطار.

ووقعت عينى فيما وقعت على شاب جميل الطلعة ممشوق الجسد طويل القامة وسيم الملامح حلو القسمات يرتدى بدلة أنيقة .. ولكن وبالرغم من هذا فقد بدا لى حينها حزينا مكتئبا يسير متباطئا مترنحا لا تكاد تحمله قدماه ويجر رجليه جرا ويكاد يسقط من فرط التعب والإعياء أو من طول الحزن والألم لا أحد يدرى ! وبالطبع أنا أيضا لم أكن أدرى.. فظللت أتبعه بنظرى لحظات معدودة .. ثم شغلت عنه بغيره من المشاهد والأحداث..

وبعد لحظات قصيرة رأيت من مكانى هذا زحاما شديدا على الكورنيش والشاطئ وأصوات عالية صاخبة فلم أتمكن فى جلستى تلك من رؤية كل شئ ، فدفعنى الفضول وحب التطلع إلى معرفة ما يجرى والوقوف على حقيقة الأمر .. فعبرت الطريق وإخترقت الزحام وصفوف الواقفين المتعجبين المتأملين ما بين مندهش لما يحدث يضرب كف بكف وهو لا يعى ولا يفقه شيئا مما يحدث.. وما بين ضاحك وعابث يثير من حوله يدفعهم ويغريهم ليشاركوه فى الضحك والعبث وهو لا يكاد يصدق أو يستوعب ما يقع أمام ناظريه .. وما بين حزين متألم لهذا الذى يراه.

إخترقت الصفوف لأجد هذا الشاب الذى كنت قد رأيته منذ قليل قد ثار وهاج هائجه .. وإنطلق يعدو ناحية الشاطئ وظل يركض تجاه مياه البحر حتى إذ ما بلغها نزل بها وهو بكامل ملابسه، وأخذ يصرخ ويبكى بأعلى صوت .. وبعد قليل خرج من الماء ونزع كل ملابسه وألقى بها على رمال الشاطئ وإستبقى شورت قصير أسود اللون حول خصره أوحى له الحياء من طرف خفى مجهول بإستبقاءه .. وظل يصرخ ويركض ويندفع نحو الماء ثم يخرج منها ويرتمى على الرمال .. تارة يصرخ ويبكى .. وتارة يضحك بأعلى صوته ويهزأ بكل شئ .. ظل يفعل هذا مرارا وتكرارا حتى غابت الشمس تماما وحل الظلام على كل شئ .. وعلى صاحبنا هذا الذى طواه ظلام البحر وصار بمرور الوقت وكأنه دابة من دوابه.

فقلت له بنبره لم أستطع أن أخفى ما بها من حزن وشجن .. ومن هنا بدأت قصة مجنون الإسكندرية؟؟

فقال لى الرجل مؤكدا .. نعم بدأت من هنا وأظن أنك تابعتها حتى منتهاها .. ثم أردف قائلا.. أنا شاهدته وهو يبدأ قصته عندما جن جنونه وألقى بنفسه فى البحر وأنت شاهدت ختامها عندما أخرجوه من الماء جثة هامدة .. ولكن كل هذا ليس إلا وجه من وجوه الحقيقة .. ولكن سر الحقيقة ذاتها أو نصفها الثانى أو وجهها الآخر وخلاصة صفوتها وحكمتها فقد دللتك على صاحبها..

فقلت له .. زيتونة؟

فقال لى .. بكل تأكيد.

نهضت واقفا أشكر الرجل وأحييه .. وهممت بالإنصراف ولكنه إستوقفنى سائلا.. إلى أين؟؟

فقلت له مبتسما.. إلى زيتونة طبعا

بعد بضعة دقائق كنت أخوض بقدمى فى رمال شاطئ المندرة باحثا بين الشماسى والكراسى والأشخاص والأشياء عن المصور الفوتوغرافى زيتونة .. وسألت عنه فأنبئونى أنه فى شاطئ سيدى بشر فهبطت إليه وخضت فى رماله وإخترقت الأشياء والأشخاص مرة أخرى ، وكنا فى نهاية موسم الإصطياف فكان الزحام معقولا وليس خانقا كما هى العادة .. وسرعان ما دلنى بعضهم على أخينا زيتونة هذا..

ذهبت إليه و لم أكن أدرى فى البداية كيف أستطيع أن أبدأ معه الحديث أو كيف أتطرق معه إلى هدفى من هذه الزيارة ولكن سرعان ما قررت أن أفضل وسيلة للفت إهتمامه وإثارة رغبته فى الحديث والحصول منه على الحقيقة كاملة متمهلا فى حديثه معى ومترفقا بى ، أن يكون هناك مقابل .. وأن أقرب طريق إلى هذا هو أن أدخل له بصفتى زبون يسوق رزق.. لا بصفتى سائل ليس وراءه سوى العطلة وضياع الوقت والجهد.

فإبتسمت له وأقرأته السلام وطلبت منه أن يأخذ لى صورة فوتوغرافية ووقفت أمامه فى المكان الذى حدده لى والذى رآه الأكثر ملائمة لجمال الصورة وزاويتها المناسبة .. ونظرت إليه وتفحصته جيدا وكأننى كنت أنا الذى سوف ألتقط له الصورة وليس هو، وجدت أنه بالرغم من كونه رجل يعمل فى الصور الفوتوغرافيا التى تحمل كل ألوان الدنيا ومن المفترض أنه رجل ذواقة لتلك الألوان إلا أنه هو فى ذاته وشخصه لا يملك سوى لونين إثنين لا ثالث لهما هما الأبيض والأسود فقط لاغير.. ودعونى أبدأ بوصفه لكم.

رجل فى الخمسين أو الخامسة والخمسين من عمره رشيق الجسد بصورة توحى إليك بأنك من الممكن أن تكون قد بالغت فى تقديرك لعمره الحقيقى ، ولا عجب فى ذلك ، فهو رجل قضى سنوات عمره بين مياه البحر وهواء الشاطئ النقى والخوض فى الرمال الثقيلة الدافئة وأحيانا الحارقة .. مما أكسبه بنية جسدية رشيقة وقوية أشبه بأجساد الرياضيين .. أما عن الأبيض والأسود فهو كما يلى.. بشرته سوداء فاحمة السواد ولا تدرى هل هو لون طبيعى أم لون مكتسب من أثر شمس الشواطئ .. وحزامه الجلدى حول خصره أسود اللون والإطار الجلدى فى قبعته لونه أسود والحقيبة الجلدية التى يحملها فوق كتفه الأيمن وتتهدل بجانبه سوداء اللون.. أمّا عن الأبيض فأقول لكم إن لون شعر رأسه وشاربه أبيض اللون وبقية القبعة لونها أبيض وقميصه لونه أبيض والشورت القماش القصير الذى يرتديه لونه أبيض وحذاءه الجلدى الخفيف أبيض اللون هكذا هذا فضلا عن اللوحة البلاستيكية التى يعلقها بجانبه بجوار حقيبته

السوداء وهى بمثابة إعلان ودعاية له وقد كتب عليها بالخط العريض "زيتونة المصور الفوتوغرافى" .. وبخط أدق بنطا " أغلى الصور وأجمل ذكريات الشواطىء" ..

إنتهى الرجل من تصويرى أو قل إنتهيت أنا من تصوير الرجل.. وسألته بعدها قائلا.. متى أستطيع أن أستلم منك تلك الصورة يا عم زيتونة .. فرد علىّ قائلا وهو يبتسم ، غدا .. فى ساعة حددها لى.

وفى اليوم التالى وكان ذلك فى وقت العصارى عندما تحتجز الشمس لديها أشعتها القاسية العنيفة الثقيلة .. وترسل إلينا أشعتها البيضاء اللطيفة الرقيقة التى تسبق ساعة الغروب، ذهبت إليه وبحثت عنه فوجدته يجلس فى مكان بعيد من الشاطئ مادا قدميه أمامه و قد إسترخت أطرافه ووضع القبعة والحقيبة الجلدية والكاميرا الضخمة بجواره .. وألقى حبل البصر على غاربه وبدا لى سارحا متأملا فى الأفق البعيد وبين الآن والآخر يسحب نفسا طويلا عميقا من سيجارته مع نصف إغماضة من عينيه..

أفاق الرجل من سرحانه هذا عندما ألقيت عليه التحية فردها علىّ بلا حماس ظاهر .. ولم تستطع إبتسامته المصطنعة إخفاء حالة الضيق التى إنتابته بسبب قطع خلوته تلك .. فمال على حقيبته فى حركة بطيئة متثاقلة وظل يقلب فيها قليلا ثم أخرج منها صورة فوتوغرافية مد يده بها إلىّ فلم أشك فى إنها صورتى التى إلتقطها لى الرجل بالأمس.

وخشيت أن ينتهى الأمر عند هذا الحد .. فإحتلت فى الأمر لأبلغ مرادى .. وظللت أتسلل فى حذر ولطف لنيل بغيتى فأخذت الصورة من يده وتصنعت الإنبهار بها والتعجب من دقة زاوية التصوير والإلتقاط .. وخلال سيل المديح والإطراء التى صببتها على الرجل وصنعته ومهارته كنت قد جلست بجواره ومددت قدمى أنا الآخر أمامى .. وظللت أتحدث مع الرجل فى أمور شتى لرفع الكلفة بيننا قبل التطرق إلى الموضوع الأساسى وغرضى الرئيسى الذى أتى به إلى هذا المكان..

وبعد قليل .. حينما شعرت بأن الثلج قد ذاب بيننا.. وبأن الرجل قد إسترد حيويته الطبيعية فى الحديث سألته قائلا بلهجة طبيعية أخفيت بقدر المستطاع ما ورائها من لهفة .. أريد أن أسألك عن شئ يا عم زيتونة؟

فقال لى الرجل مرحبا.. أى شئ هذا ؟ خير إن شاء الله.

فقلت له .. أردت أن أسألك عما تعرفه عن مجنون الإسكندرية؟

فأطرق الرجل قليلا وقد ألهته مفاجأة السؤال .. ثم نظر إلىّ نظرة متسائلة وقال لى .. وما شأنك أنت به ؟

فقلت له بلهجة هادئة .. أريد أن أعرف حقيقته .. شئ بداخلى يدفعنى إلى هذا .. ولا أدرى لماذا؟

فقال لى الرجل بلهجة عميقة وهو ينظر إلى الأفق البعيد وكأنه

يتحدث إلى نفسه أو إلى كائن غير مرئى .. نفس هذا الشئ راودنى أنا من قبل وأغرانى بتلك المعرفة .. أنا أيضا أردت من قبل أن أعرف حقيقة هذا الرجل وسره .. فقلت له بلهجة سريعة متعجلة .. قالوا لى أنك تعرف حقيقة هذا المجنون وتعرف كيف بدأت قصته وحكايته و...

فقاطعنى الرجل قائلاً بهدوء .. أخبرنى أنت فى البداية عمّا تعرفه عنه .. فلعلى لا أعرف عن المجنون أكثر مما تعرفه أنت أو ما يعرفه أغلب الناس .. هذا تجنبا لإعادة أشياء على سمعك قد تكون تعرفها جيداً.

فقصصت على الرجل كل ما أعرفه عن مجنون الإسكندرية وهو ما يعرفه أهل الإسكندرية جمعاء إلى أن بلغت نهاية حديثى معه فوصفت لعم زيتونة نهاية الرجل التى شاهدتها بعينى عندما أخرجوه أمامى جثة هامدة من مياه البحر وظللت أسرد له فيما عرفته عن مجنون الإسكندرية ، وقلت له فيما قلت عن تلك الروايات والأقاويل التى يتناقلها الناس ويتداولوها فيما بينهم عن مشهد الختام وعن لقاءه بتلك المرأة والتى إنتهى اللقاء بينهما بذلك المشهد الدامى الذى تابعته ثلة من المارة على شاطئ الإسكندرية.

وهنا إستوقفنى الرجل مقاطعاً .. وقال لى بلهجة هادئة ساخرة... إذاً فهذه المرأة هى التى قتلته؟؟

فقلت له بلهجة شاكة مترددة .. هذا ما يظنه بعض الناس ولكنهم لا يعلمون كيف أو لماذا

فقال لى الرجل بنبرة حزينة هادئة .. ذلك لأنهم لا يعلمون.

فقلت له مشجعاً إياه على بدء الحديث .. إذاً فأنت تعلم يا عم زيتونة ؟؟

فقال لى .. نعم ، ثم إعتدل فى جلسته ونظر تجاهى وقال لى فى لهجة صريحة .. هل تظن أن هذا الذى أعلمه شيئاً خطيراً ؟؟ هل تظنه مثلا شيئا عجيب أو أمرا مستحيل الحدوث ؟؟ أم هل تظنه سرا عميقا أو لغزا مريبا ؟؟ أريد أن أقول لك بكل تأكيد أنه ليس من ذلك فى شئ ، إنه أمر يحدث ويتكرر فى كل يوم ولكن نادراً ما يتمخض عنه شئ كمجنون الإسكندرية.

مجنون الإسكندرية هذا الذى إشتهر بينكم بلقب المجنون لم يكن هناك على ظهر الأرض إنسان أكثر منه عقلاً وأرجح لباً وأبعد نظراً وأكثر طموحاً .. كان شاب من أجمل الشباب وأكملهم وأنضجهم ، كان يملأ العين بوسامته ويخطف البصر بوجاهته ويسلب العقل والخاطر بحديثه ولباقته ويمتع النفس والخيال بشخصيته النادرة وأحاديثه الخصبة الغنية وأدبه الجم ودماثة خلقه .. لقد كان يوسف من خير الناس الذى من الممكن أن يصادفهم المرء فى حياته..

فقلت له مقاطعاً إياه برفق .. كان إسمه يوسف يا عم زيتونة ؟؟

فأجاب الرجل متنهداً .. نعم يا سيدى .. كان إسمه يوسف.

فقلت له .. وكيف صار إلى تلك الحالة التى كان عليها؟؟

فقال لى بلهجة ثائرة غاضبة بعض الشئ .. الحب .. الحب قصة الحب والحرمان.. حدوتة العشق والألم .. سيناريو الرفض والشقاء.. مسرحية الحب .. ذلك العرض المسرحى الهزلى الممل الذى يأبى أن يتوقف، ذلك الطاغية المتسلط والجبار المتأله ذلك الكيان الوهمى الغير مرئى الذى لا ندرى له قواماً أو حقيقة ذلك الذى يرتفع بنا إلى آفاق السماوات ويجعلنا نلامس النجوم ونصافح القمر ونحيا بين الملائكة ولكنه أيضاً قد يهوى بنا إلى قاع الأرض حيث نتساوى مع الرمم البالية والأجساد المتآكلة المتعفنة.

فقلت له متسائلاً فى نبرة هادئة .. وهل صعد الحب بصاحبنا إلى السماء أم هبط به إلى الأرض يا عم زيتونة ؟؟

فقال لى رداً على سؤالى بسؤال مثله .. وماذا ترى أنت؟؟

فقلت له صادقاً... والله لا أدرى .. أفضل أن أجيب بعد أن أستمع إلى قصته كاملة منك

فقال لى بنبرة عميقة ساحرة كأنه يصف لى حلماً رآه بالأمس فى منامه ،، كان هو وهى من أسعد الكائنات فى هذه الحياة .. بل لقد كانا يمنحان للحياة ذاتها طعماً ونكهة ، كان هو يدرس فى كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية وكانت هى تدرس بكلية الفنون الجميلة .. تعرف عليها عن طريق صديقة مشتركة بينهما.. كانت صاحبتنا تلك تأتى لزيارتها فى مجمع الكليات النظرى بمنطقة الشاطبى.

أحبها من أول نظرة .. وما كان يملك سوى أن يفعل ذلك

فقد كانت ميار من أولئك الحسناوات اللاتى لا يملك من يراهن سوى أن يقع فى حبهن بل وعشقهن.

فقاطعتهً للمرة الثانية قائلا بلهجة سريعة مِن وقع المفاجأة .. ميار!! إذا .. فهذه هى .. نعم .. الآن فهمت

فقال لى .. نعم .. كان إسمها ميار.. هذا عن إسمها أما عن وصفها فلا أظنني بمستطيع أن أصفها لك بنفس السهولة والبساطة التى نطقت بها إسمها

هل سبق لك أن شاهدت غروب الشمس وأنت تجلس على شاطئ البحر .. عندما تتساقط الشمس رويداً.. رويداً عند الأفق وتتحول إلى قرص ضخم من النار البرتقالية اللون فتصبغ السماء والمياه بهذا اللون؟؟

هل سبق لك أن رأيت قوس قزح وألوانه العجيبة فى نهار يوم من أيام الشتاء؟؟

هل سبق لك أن شاهدت القمر فى ليلة التمام وهو يسبح بين مسارات السماء ويتوارى حسناً ودلالاً خلف السحاب؟؟

هل تعرف عطر الوردة وبسمة الطفل الوليد؟؟

هل تعرف لذة الدفء فى أيام الشتاء .. وسحر كوب ماء مثلج فى نهار يوم من أيام الصيف ؟؟

كانت هذه هى ميار..

كانا يأتيان معاً إلى هذا الشاطئ فى أثناء الدراسة بعد نهاية موسم الإصطياف.. حين يكون الشاطئ يكاد يكون خالياً إلا من بعض العشاق من أمثالهم متفرقين هنا وهناك وبعض الباعة المرتزقين المتجولين من أمثالى .. كانا يقفان أمامى ويقولان لى فى براءة الأطفال "نريد صورة يا عم زيتونة " .. يترعان بعدها حذائيهما ويلقيان به أينما إتفق .. وينطلقان تجاه البحر ويركضان على طول الشاطىء وقد أمسك كلاً منهما بيد الآخر وقد حفرا بأقدامهما فى الرمال المبتلة ذكريات قصيرة العمر سرعان ما تخفيها حركات المد ويعبثان بالرمال ويقذفان بعضهما البعض برشاش الماء .. ويقفزان فى الهواء كأنهما كانا يريدان أن يلمسا السحاب أو كأن طاقة الحب بداخلهما لم تتسع لها الأرض فأغرتهما بالصعود إلى السماء.

وبعد اللعب المتواصل والعبث الدائب المتلاحق .. يعودان إلى رمال الشاطئ .. ويستندان إلى هذا الجدار الذى نستند إليه الآن وينظران إلى الأفق البعيد .. تستند برأسها إلى صدره فى حين تعبث أنامل يده بشعرها الأسود القصير .. ويظلا سويا يرتشفان من نبع الحب الذى لا يغيض أبداً من قلوب أمثالهما.

وكنت أحياناً أختلس منهم صور بلا أجر دون أن يعلموا عنها شيئا، فأنا الرجل الذى قضى حياته كلها بين الصور والألوان والمشاهد البديعة لم يكن فى مقدورى أبدا أن أترك تلك المناظر

النادرة الساحرة التى جمعت بينهم تمر أمامى بلا تسجيل أو تأريخ أو تدوين .. لم أستطع.

ثم قال لى .. سأريك الآن شيئاً لم يره أحد فى هذا العالم سوى ثلاثة أشخاص هم أنا ويوسف وميار وأظن أنك تستحق الآن أن تكون رابعنا

وقبل أن أعلق على قول الرجل بكلمة كان قد إنحنى فوق حقيبته الجلدية الراقدة بجواره ومد يده بداخلها وفتح سوستة جانبية وأخرج منها صورة فوتوغرافية يبدو عليها القدم بعض الشئ ونظر فيها قليلاً وتأملها مليا قبل أن يمد بها يده إليّ أخذتها منه وقلبى يخفق وعينى ترتجف وهى توشك أن ترى أبطال القصة الحقيقيين الذين لا يعرفهم اليوم أحد غير عم زيتونة وأنا .. ونظرت فى الصورة فوجدت يوسف يحيط ميار من الخلف بذراعيه ويستند بذقنه على كتفها الأيمن وينظر ضاحكاً مستغرقاً فى ضحكه إلى كاميرا التصوير، وهى تنظر إليه بجانب عينيها وتبتسم فى دلال مثير وتنظر إلى الكاميرا بجانب وجهها.

العجيب فى الأمر إننى لم أشعر بدهشة كبيرة عند رؤيتى لصورة يوسف الحقيقية وكأننى رأيتها من قبل على الرغم من أنها كانت المرة الأولى التى تقع فيها عيناى على صورته الحقيقية هل لأننى سبق وأن رأيته مرات ومرات على كورنيش الإسكندرية .. ولكنى كنت أراه فى صورة مجنون الإسكندرية عارى الجسد لا يستر خصره

سوى الشورت الأسود القصير وشعره الأشعث الغزير والذقن الطويلة المسترسلة التى لا تظهر من وجهه سوى عينان واسعتان دامعتان ووجنتان غائرتان وأسنان بيضاء .. ما علاقة هذا المجنون بذلك الشاب الوسيم الذى أراه الآن فى تلك الصورة ؟؟ هل يكون كلا من الرجل المسن فى مقهى جليم وعم زيتونة قد وصفاه لى بصدق وحرارة إلى الدرجة التى جسدته لى كلماهم بحيث بلغوا درجة عالية من صدق الوصف هيأت لى وكأننى رأيته بالفعل .. ربما ، لا أدرى كل ما أعرفه أننى لم أتوقف إلا قليلاً عند صورة يوسف وسرعان ما إنتقلت عيناى إلى صورة ميار...

ما هذا السحر وما هذه العذوبة وما هذا الجمال ؟؟ هكذا ساءلت نفسى...

ما هذه الأنوثة الطاغية !! وما هذه البراءة التى ليس لها مثيل!!

كل ما قاله مجنون الإسكندرية فى فاتنات الكورنيش وحسناواته.. وكل ما وصفه لى عم زيتونة من جمالها وسحرها نقطة من بحر الحقيقة .. حقيقة سحرها وبهائها وجمالها...

كانت بشرتها بيضاء ناصعة البياض وشعرها أسود قصير وعيناها سوداء واسعة لامعة .. وشفتاها ممتلئتان وطابع الحسن فى ذقنها وجسدها بديع يميل إلى الامتلاء فى إعتدال وإلى القصر بعض الشئ...

سألته وأنا أعيد إليه الصورة بنبرة حزينة خاشعة وبلهجة رمزية بعض الشئ .. ومن الذى أفسد هذا الحب وشوه تلك الصورة وغيرها من المشاهد البديعة التى إلتقطتها كاميرتك يا عم زيتونة؟

فقال لى الرجل بنبرة هادئة وهو يطرق إلى الأرض .. كما قلت لك من قبل إنه الرفض الذى يعقبه الحرمان

فقلت له متسائلاً ... ماذا تقصد بهذا .. إنك كررت هذا الوصف أكثر من مرة .. أى .. ما هذا الذى تقصده بالرفض والحرمان ؟؟

أدار الرجل وجهه ونظر إلى الأفق البعيد.. والشمس تميل نحو مغربها والطيور تتهادى فى جو السماء وترتسم على جناحيها وبين خفقاتها صورة السماء المصبوغة باللون الأحمر الدامى وكأنها تصبغ فى كل يوم بلون دم الشهداء .. ثم قال لى وهو يفرك جبينه بيمناه ويضرب رمل الشاطئ بقبضة يده فى حركة جسمت لى مدى شعور الرجل بالمأساة وإحساسه الصادق بالألم .. أى رفض يا سيدى لا يشترط صورة بعينها أو شكل بذاته ما دام الرفض بكافة ضروبه وأنواعه سينتهى بنا حتما إلى الحرمان .. ما الفرق إذا !! رفض الظروف وعقبات الواقع التى تقول لك لا لن تستطيع أن تفعل هذا.. رفض رجل أحمق كل دوره فى الرواية المأساوية إنه والد حبيبتك وولى أمرها يظهر على خشبة المسرح ليقول لك لا .. يترل بعدها وقد إنتهى بذلك دور الكومبارس الذى أشعل المأساة بهذه

الكلمة، رفض الإنسانة التى تتيم بها حباً وعشقاً ولكنها ترفض حبك هذا وتصفعك على وجهك وتركلك بقدميها وتذبحك بكلمة لا .. كلمة سخيفة مكونة من حرفين لا ثالث لهما ولكنها تقلب حياتك رأساً على عقب ، إحساس الرفض والحرمان قد يجعلك تموت كمداً أو تنهى حياتك بيديك أو تعيش منعزلا عن العالم وما فيه أو تتحدى كل شئ وتحطم كل شئ وترفض كل شئ أو..

فقاطعته مكملاً جملته .. أو تصير مجنون كمجنون الإسكندرية؟؟

فقال لى الرجل مؤمناً على قولى .. بكل تأكيد.

سألته بعدها بلهفة قائلاً .. وهى !! أين هى ؟ أين ذهبت ألا تعرف عنها شيئا يا عم زيتونة ؟؟

فقال لى الرجل وهو يبتسم فى مكر .. لم أكن أعرف عنها شئ حتى أخبرتنى أنت دون أن تقصد بكل شئ عنها..

فقلت له مندهشاً مستنكراً .. أنا أخبرتك عنها !! وهل أنا أعرفها أصلا يا عم زيتونة حتى أخبرك عنها!!

فقال لى الرجل مؤكداً .. أنت وصفتها لى كما وصفها لك الناس الذين سألتهم عن تلك المرأة التى تحدث إليها مجنون الإسكندرية قبل أن يلقى مصرعه فى هذا المشهد الختامى وتلك النهاية المأساوية.

فقلت له وفمى فاغرا من فرط الدهشة والتعجب .. أنت تريد

أن تقول يا عم زيتونة إن ميار تلك الحسناء التى ظل مجنون الإسكندرية يتغزل فى جمالها وروعتها .. ويبحث عن وجهها وسحرها على صفحات وجوه حسناوات الإسكندرية وفاتناتها طوال سنوات حياته الجنونية.. ميار تلك التى ذهبت بعقل يوسف وحياته .. ميار تلك التى وصفتها أنت لى بأنها جمال الكون ساعة الغروب وألوان قوس قزح وعطر الوردة وبسمة الطفل الوليد .. ميار تلك التى رأيت صورها منذ لحظات والتى لا تزال ملامح وجهها وتفاصيل جسدها تملأ ذهنى وخيالى وتطوف بجوانب نفسى ونواحى روحى .. ميار هذه هى تلك المرأة الكهلة البدينة التى تسير بين أطفالها كالقافلة وتعطل حركة المرور بصخب أطفالها.

هذه هى ميار!!!

أين سحرها !! أين جمالها!! أين ذلك الجسد الذى سلب عقل يوسف!! وأين الفتنة التى خلبت لب صاحبنا؟؟

سألنى الرجل وقد علت شفتاه إبتسامة ساحرة ساخرة .. وما وجه العجب فى ذلك؟؟

فقلت له مندهشاً مستنكراً .. كل هذا يا عم زيتونة وتسألنى عن وجه العجب فى ذلك !! إنه شىء غير معقول بالمرة !!

فقال لى الرجل بلهجة حازمة قاطعة يشوبها شئ من الغضب والثورة المكتومة .. لا تؤاخذنى يا سيدى فيدو إننى قد أحسنت

الظن كثيرا بعقلك وفطنتك .. أنت تتساءل وتتعجب كالأطفال السذج الذين لاخبرة لهم بالحياة وطبيعتها .. وتقول أين ذهب الجمال والسحر والفتنة والأنوثة ؟؟ أين ذهبت الذكريات الجميلة والصور البديعة ؟؟ أين ذهبت حيوية الشباب وانطلاقة الفتوة ؟؟ ودعنى أنا أيضا أسألك بدورى وأريد منك إجابة واضحة شافية هذا إن إستطعتها.

هل يوجد شئ دائم مستمر مستقر فى هذه الحياة .. هل الشباب دائم .. هل المال دائم .. هل الجمال دائم .. هل الفرح دائم .. هل الحزن دائم .. هل الحب دائم .. هل الكره دائم .. لا يوجد أبداً شئ دائم فى هذه الحياة .. ثم توقف الرجل عن حديثه هنيهة رفع فيها رأسه تجاه السماء ثم أردف قائلاً فى حياء يشبه الإعتذار .. إلا وجه الله العلى الأعلى.

ووجدت الرجل قد أدار ظهره إلىّ وأشاح بوجهه عنى متشاغلاً بإشعال سيجارة أخرجها من علبة كانت بحقيبته ولكن أغلب ظنى إنه كان يغالب دمعة تكاد تفر من عينيه لما أثاره حديثه إلىّ من شجون كامنة بداخل نفسه وأحزان مستترة بناحية عميقة غائرة من نواحى وجدانه .. فنهضت واقفاً و لم أشأ أن أثقل عليه وأثير شجونه وذكرياته بأكثر مما فعلت وشكرته على وقته الذى أنفقه معى.. فهز الرجل رأسه إلى الأمام رداً على تحيتى .. وأدرت ظهرى له وسرت فى طريقى متباطئاً مفكراً.. ولكنى توقفت عن سيرى فجأة ..

واستدرت إليه وسألته قائلا ... ولكنك لم تخبرنى يا عم زيتونة من أين لك العلم بكل هذا ؟؟ لاتؤاخذنى إنك تعرف أسرار أدق وأعمق بكثير من مجرد ما يعرفه مصور فوتوغرافى عن زبائنه ورواد الشاطئ مهما توثقت بينهما عرى الصداقة والمعرفة وأسباب الألفة والود .. فمن أين عرفت كل هذا ؟؟

فنظر إلىّ الرجل نظرة طويلة عميقة وظل يتأملنى لحظات وكأنه يرانى لأول وهلة .. وعادت إليه إبتسامته الساخرة وحيويته التلقائية فى الحديث وقال لى وهو ينفخ دخان سيجارته فى الهواء ... مجنون الإسكندرية ذاته هو الذى أخبرنى بكل هذا.

فنظرت إليه متعجباً وأنا لا أدرى هل قالها الرجل جاداً أم مازحاً ، وهممت أن أستوضحه عما قصد ، ولكنى عدت وقلت لنفسى و لم لا ؟؟ فالإثنان رواد لشاطىء الإسكندرية من قديم العهد أحدهما مصور مرتزق .. والآخر عاشق مجنون وربطت بينهما على كل حال صلة قديمة من قبل ..

وأدرت ظهرى للرجل وإخترقت الرمال الثقيلة الدافئة وأنا أفكر فى ذلك الإنسان الذى أضاع حياته كلها فى رحاب امرأة سلبته فى البداية قلبه .. وبعد ذلك سلبته عقله .. وفى خاتمة المطاف سلبته حياته.

ووجدت نفسى على الرغم منى أبتسم وأضحك عندما تخيلت منظر مجنون الإسكندرية وهو يقابل ميار بعد كل تلك السنوات

ويكتشف حقيقة وهمه الذى عاش فيه سنوات طويلة والذى أضاع بسببه عقله وحياته، ولكنى عدت بعدها فتذكرت أيضاً منظر يوسف وقد أخرجوه من مياه البحر جثة هامدة قد فارقت روحه الحياة.

فإقشعر بدنى عندما إنعقدت المقارنة بداخل ذهنى بين تلك الصورتان القاتمتان .. وإلتمعت دمعة فى عينى وقلت لنفسى خاتماً حديثها الداخلى

حقا .. ما أسخف عقول العاشقين ... وما أتعس قلوبهم.

عشرة دومينو



ترتكز قصتنا تلك على أربعة أصدقاء .. أو أربعة رفاق .. أو أربعة زملاء .. أو قل أى أربعة أشخاص .. والسلام !!

أقول هذا .. لأنهم لم يتفقوا فيما بينهم على توصيف العلاقة التى جمعتهم قديما ولا تزال ،،، فنادرا ما يتناقشون فيما بينهم حول طبيعة تلك العلاقة من حيث منشأها ودافعها وأسباب بقاءها .. أحيانا يحيلونها لعمل الصدفة التى يَبطل معها الإختيار.. وأحيانا أخرى يردّونها للإختيار المقصود من قِبَلهم ، أو من قِبَل الواقع الذى يظل يفرز ويرتب وينسّق وينتقى وينتخب بين الأشخاص والأشياء .. ويجمع بينهم فيما يشبه الحزم ، كلا على حسب الطبائع والميول والإتجاهات والأمزجة والوضع الإجتماعي فتمضى العلاقة وتسير بشكل طبيعى متناغم مع طبائع الأشياء وخصائص الأحداث والأشخاص.

تنمو العلاقة وتنضج وتتشعب وتتعقد وتزداد قوة وثبات،

وخضوعا لقانون النفس البشرية، قد تتقلب القلوب وتتبدل الأنفس غير الأنفس ومع ذلك تبقى العلاقة راسخة كما هى، قد يرجع هذا إلى صحة الإختيارمنذ البداية سواء أكان هذا الإختيارمن جانب الأشخاص ذاتهم أو من جانب الظروف والواقع أو حتى لو كان إختيار الصدفة، فيصيرالأمرعلى حد قول التعبير الدارج " ما جمّع إلا لّما وفق " .. وأحيانا أخرى يكون أعضاء تلك الحزم متنافرين متشاكسين وغير منسجمين ونظل نبحث ونكد عقولنا عن مبررالواقع فى الجمع فيما بينهم وهم على هذا النحو من عدم التوافق أو الإنسجام ، ولكن لا نحصل مع طول البحث والكد على إجابة وافية مقنعة غير القسمة والنصيب " فتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى".. ومع ذلك تبقى علاقتهم معا وتمضى هى الأخرى ...

وكثيرا ما يرجع رفاقنا هؤلاء بأسباب صداقتهم عابثين هازلين إلى الحظ السيىء والقضاء والقدر.

وأحيانا يناقش كل واحد منهم على حدة طبيعة العلاقة التى جمعت بينه وبين بقية رفاقه هؤلاء فى يوم من الأيام .. لقد كانوا زملاء على غير إختيار منهم أو إنتقاء أثناء فترة الدراسة الثانوية .. ثم صاروا أصدقاء عن قصد وإختيار أو هكذا خيل إليهم فيما لحقت بعدها من مراحل .. كمرحلة الدراسة الجامعية وما ورائها ...

إعتادوا دوما على اللقاء فى أوقات فراغهم وما أكثرها .. فتمضى بهم خطواتهم .. وتحملهم أقدامهم إلى أماكن بعينها لا

يحيدوا عنها أبدا... ظلوا يترددون عليها مدى سنوات عدة و لم تحدثهم أنفسهم يوما بتغيير تلك الأمكنة ، لسان حالهم ينطق برغبتهم الأكيدة العنيدة وتشبثهم العجيب بالألفة والإعتياد .. فهم قد إطمأنوا إلى صحبتهم معا وبدون مناقشة للأسباب فى أغلب الأحيان وشعروا بالإيناس والإرتياح إلى تلك الألفة تجاه كل شيء إبتداء من الطريق الذي يسيرون فيه ذهابا وإيابا ، والمقهى التى يجلسون عليها ، وروادها الذين يعرفون منهم مجرد صور متحركة مألوفة لا يدرون شيئا عن أشخاصها ..

ألفة المكان والبقعة التى يجتمعون بها ،، ألفة الشاب أو مجموعة الشباب الذين يقدمون لهم طلباتهم من شاى وقهوة ومياه غازية ،،، ونادرا ما يستبدلون بطلباتهم تلك طلبات غيرها ألفة المقعد الذى يجلسون عليه ألفة الطاولة التى يستندون إليها ألفة لوحة الدومينو التى ينكفأون فوقها ساعة أو بضع ساعات لحين إنتهاء عدد عشرات الدومينو المتفق عليها سلفا أو التى دفعتهم إليها وأغرتهم بها الحماسة واللذة الإنفعالية التى يجدونها خلال إستمرارهم فى اللعب هذا فضلا عن التواطؤ المتعمّد والمقصود لقتل الوقت والتفنن فى ضروب تمزيقه باللعب فتجدهم يتبارون فيما بينهم على دفع عقارب الساعة التى تأبى الإندفاع من تلقاء نفسها.

نادرا ما يدوربينهم حديث ذو قيمة، على الرغم من إمتلاء نفوسهم كلا على حدة بفيض غزير ونهر متدفق من الأحاسيس

والأحاديث الداخلية والمناقشات والأخذ والعطاء كما يقولون فى مضمار الكلام لا نهاية له، ولكن كل هذا يدور بداخل نفوسهم .. حبيس يلتمس الفرار ولا فرار،، وتحار حينها فى السبب الحقيقى وراء المبالغة فى الإستخفاء بتلك الأحاديث وعدم طرحها للبحث والمناقشة !! ... هل هى أزمة ثقة فيما بينهم ؟؟ بالرغم من الصداقة أو ما يشبه الصداقة التى جمعت بينهم عدة سنوات تقرب من ثمانية أو تسعة أعوام إختبروا فيها بعض فى السراء والضراء وتقلبت بهم الأحوال بين العسر واليسر!! وإذا كانت هى حقا أزمة ثقة فما هو مبررها وما السبب الذى يكمن خلفها أم هل هو شعور المتحدث نفسه بإنعدام جدوى الحديث أو شكه فى مدى فاعليته ؟ هل هو عدم ثقته فى مدى إتساع صدر أصدقاؤه هؤلاء المستمعين إليه ؟؟ .. أم إن السبب يكمن وراء خجل المتحدث نفسه فى كشف ما يطويه بداخل صدره وما يدور بحنايا ذهنه وفكره أمام الناس .. حتى ولو كانوا أصدقاؤه ورفاقه .. أم هو الملل ؟؟ من يدرى !!

هل هى محاولة الهروب من ذلك الحديث الداخلى الذى يلح عليه طيلة يومه ؟ ويظل قابضا على عنقه آناء الليل وأطراف النهار، ويراوده أثناء نومه فى صورة كوابيس وأضغاث أحلام وصور مفزعة وهلاوس وفلتات لسان، لعل السبب حقا هو الرغبة فى الهروب ، الهروب من تلك الأحاديث الداخلية .. فلا يتصورعقل حينها أن أحدهم يهرب هكذا من حديث نفسه ثم يرحّب بسماعه من غيره.. أو يستريح إلى من يذكّره به .. أو يتبرع هو بالإفاضة فيه وعلى مسمع ممن حوله ، فهو يسعى للحظات الهروب تلك ويكون حينها كشارب الخمر أو مستنشق الحشيش يرغب فى الهروب والفرار من

أفكاره ، إلى أى أفكار أخرى مهما تفهت ،، ومن يدريك !! لعله يستريح إلى تلك التفاهة والسذاجة والبساطة التى يجدها فى أحاديث رفاقه .. ودعاباتهم السخيفة السمجة المعادة والمكررة فى أغلب الأحيان .. وإنفعالاتهم المفتعلة أثناء اللعب .. لعل هذا يريحه ولو إلى حين من أفكاره المزعجة وصوره الكئيبة.

ولعله يرغب فى إذابة مرارته الداخلية فى أى صور أو مشاهد يجدها أمامه .. مهما سخفت حتى ولو كانت مجرد مشادة تافهة فى الطريق أو بين رواد المقهى، أو متابعة لاعبى الدومينو فى الطاولات المجاورة أو حتى مجرد تأمل القطة الرابضة تحت إحدى الطاولات تنتظر أن يلقى إليها أحدهم بضع الفتات مما يأكل، هذه الصور تلهيه ولو قليلا أو مؤقتا عن صوره البغيضة الملحة المزعجة الماسكة بخناقه ، لذلك لا تعجب عندما تجد أحدهم يتحمس فى اللعب إلى الدرجة التى قد تجعله يتراقص من فرط النشوة إذا ما فاز وكأنه كان يتحدى ذاته فى أمر ما أو كأنه إنتصر فى بعض جبهات القتال بينه وبين واقعه وظروفه .. أو كأنه قد تفاءل بنصره هذا الذى يرمز إلى إنتصاره على أرض الواقع أو هكذا يخيل إليه أو كأنه بإنتصاره هذا قد إسترد ماء وجهه الذى أهدرته هزائمه المتتالية فى ميادين أخرى...

ويستشيط غضبا ويصب لومه وتقريعه وتأنيبه على رأس شريكه فى اللعب إذا خسر وإنهزم ...

إن طاولتنا تلك تضم أربع نماذج من الشباب لم أجد فى الواقع خيرا منهم لتقديمهم إلى حضراتكم لتتعارفوا عليهم من ناحية، ولترشيحهم من ناحية أخرى كأبطال لتلك القصة التى تدور أحداثها من الألف إلى الياء حول طاولة اللعب .. ولكن لا تنسوا فإنه ليس أى لعب !! وإنما هو لعب الدومينو وما أدراكم وما الدومينو!!

لقد صحبت هؤلاء الشباب أو تلك الرفقة سنوات عدة .. وعرفتهم عن كثب .. وكونوا على ثقة إننى حين أكتب الآن عنهم فأنا أكتب من منطلق علم راسخ ومعرفة عميقة ويقين ثابت بأحوالهم .. ما ظهر منها وما بطن .. لا تخفى عنى منهم خافية .. فقد وجدت فى كل واحد من هؤلاء العنوان العريض الظاهر والمكشوف لكل عين .. والذى تندرج تحته قائمة طويلة من الشباب الذين هم فى مثل حاله ووضعه وظروفه وإمكانياته ومعطيات واقعه وإسلوبه فى الحياة ونمط تفكيره ، ونظرته إلى الأشياء .. وملامسته لها وحكمه عليها .. يقتربون قليلا من هذا النموذج أو يبتعدون شيئا ما عنه أو يطابقونه تمام المطابقة هم فى كل تلك الأحوال يدورون معه فى فلكه، وينجذبون ناحية مداره فى الحياة ، ويندرجون معه تحت هذا العنوان ...

أنا أراهم الآن مثل أكواب المياه الزجاجية تلك الموضوعة أمامى على الطاولة .. منتهى الوضوح والشفافية .. أستطيع بأقل جهد

سبر أغوارهم وكشف أسرارهم وبلوغ أعماقهم بلا مشقة أو نصب ، يجمعهم إطار من الظروف الإجتماعية والنفسية والواقعية تكاد تكون متشابهة إلاّ من بعض الفوارق التى لابد منها لتعطى كلا منهم شخصية المستقلة وخاصته التى ينفرد بها .. فكلا منهم ينتمى إلى الطبقة المتوسطة والتى إنقسمت هى الأخرى على نفسها فصارت كلمة الطبقة المتوسطة كلمة مجملة، لا تستغنى عن التفصيل والتوضيح والتعريف ، فقد أصبحت تلك الطبقة درجات وشرائح من أدناها إلى أعلاها .. أما أدناها فيفصل بينها وبين الفقر شعرة وأما أعلاها فلا يكاد يفصل بينها وبين عتبة الثراء إلاّ الشىء اليسير..

فكلا منهم خرّيج جامعى محترم ولكن الواقع الذى يحياه واقع قاسى وعنيف يعتصرهم وينهك قواهم ويتركهم مهزولين منهكين لايملكون مقاومة ويختلف إسلوب تعامل كل واحد منهم مع الواقع تبعا لطبيعته الشخصية ونظرته إلى الحياة .. فمنهم من يستسلم له .. ومنهم من يفر من مواجهته ومنهم من يتحداه ومنهم من يتحايل عليه ولكنهم فى جميع هذه الأحوال فى وضع مواجهة مع الواقع وعلى خط النار فى حربه وقتاله شاءوا أم أبوا ..

وقد صاروا جميعا فى قبضته كالذبابة التعسة التى ساقها حظها العثر للسقوط فى طبق من العسل الأسود ...

كلما قاومت ...

كلما غاصت فى السائل الغليظ اللذج أكثر .. فأكثر...

فلا سبيل أمامها أو مَن فى مثل حالها ووضعها سوى الإستسلام والكف عن المحاولة ...

ودعونى الآن أسارع بتعريفهم إليكم قبل شروعهم فى عشرة الدومينو الجديدة ...

أما الأول فهو يوسف خرّيج كلية التجارة وهو يحيا بمنطق له شعبية كبيرة وواسعة بين فئات عريضة من الشباب ألا وهو منطق التحايل والتخابث على الواقع والظروف .. ولكن بشكل سلبى .. فهو قد أيقن منذ البداية وبعد سلسلة من الإحتكاكات والمصادمات بينه وبين واقعه وظروفه على أمل إصلاحها وتعديلها وتطويعها والوصول معها وبها إلى حل وسط أيقن بعد مضى بضع خطوات فى طريق الإصلاح هذا بأنه لا أمل ولا سبيل إلى المقاومة، وبأنه لابد من الإستسلام بلا قيد أو شرط .. ولا مفر من وضع السلاح

ولكنه إتخذ ضربا من الإستسلام والتسليم يوافق هواه و مزاجه ويُرضي طبيعته .. وقال لنفسه فيما قال ،،،

" ما دام هو الإستسلام على كل حال فلا بأس إذن من المضى فى طريقى هذا الذى إخترته لنفسى .. ولا أظن أن الظروف أو الواقع سوف يهتم حينها أو يرغب فى حرمانى منه أو تحويلى عنه أو الحيلولة بينى وبينه .. فالظروف لا تحطم إلاّ من يقف فى سبيلها

ويعترض طريقها ويسعى إلى تغيير إتجاهها وتحويل مجراها فهى إذا أحسّت بوادر الثورة .. من ذلك الخارج عليها وعلى سلطانها والكافر بقانونها .. أقول إذا أحست منه بعض القوة أو إدعاء القوة لنفسه وتحسست عوده فوجدته على شىء من الصلابة أو وجدته يحاول التعلق بأطراف الإرادة وأهداب العزيمة ..

فهى سرعان ما تضغط عليه وتعتصره وتحطمه وتعمل على إذلاله وتأديبه لمحاولته التصدى لها والوقوف أمامها .. أمّا مَن إستسلم من البداية ورفع الراية البيضاء على حد تعبير بعضهم وألان عوده للظروف .. فلا أظنها تعبأ به أو تحاول مناجزته أومناوشته من قريب أو من بعيد ... فهو قد إفتدى نفسه من بطشها بعد أن إنضوى تحت لوائها و لم ينازعها ما لها.

فالظروف والواقع فى نظر أمثاله كملك الغابة النبيل ، الذى لا يستمتع بفريسته إلاّ من خلال المطاردة والمناورة والدوران والمواجهة والبطش والنيل منها بعد طول الركض والعدو .. أمّا إذا وجدها جيفة فهو يربأ بنفسه وبقدراته عن البقاء عندها أو حتى مجرد النظر اليها ...

وإختار صاحبنا أن يكون بين يدى الظروف كالجيفة .. وغرق حتى أذنيه فى عالم الشهوات والملذات والإستمتاع بكل شىء يقع بين يديه .. فهو يريد أن يحيا اليوم ويستمتع بتلك اللحظة الحاضرة،، ويأنس إلى كل شهوة ولذة فى متناول يديه ، أمّا ماذا

سيحدث بعد ذلك ؟؟ وماذا عن الغد والمستقبل ؟؟ وإلى أين ينتهى به هذا الطريق ؟؟ وماذا عن القيم والمبادىء التى ينبغى له أن يلزم نفسه بحدودها ؟؟ وماذا عن رأى الناس فيه وفى تصرفاته ؟؟ .. وماذا عن السنين التى تمر والعمر الذى يقفز بين الحين والآخر عام بأكمله ؟؟ كل هذا لا يهم .. بل كل هذا فى نظره ينبغى أن يذهب وسريعا إلى الجحيم ..

فما دام مخزون الحشيش متوافر وموجود لديه ليس لليوم فقط وإنما إلى ما يقرب من نهاية الشهر .. ومادام ما فى جيبه يكفى ويفيض للإستمتاع بيومه وليلته .. وفى الغد سوف يأتى ما يكفى للإستمتاع باليوم التالى والليلة القادمة ... ومادامت الفتيات لا تزال تدور فى فلكه وتسبح فى مداره ويمسك بها كعرائس الخيط " الماريونيت " ... فماذا يريد من الحياة أكثر من ذلك !!

وأما الثانى فهو حكيم خرّيج كلية الحقوق وهو أجدرهم بلقب الواقعى .. فهو ومنذ البداية قد ألقى بنفسه على كفة من كفتى ميزان الحياة ... ووزن بيده إمكانياته وقدراته ووسائله الشخصية والذاتية .. ووضع على الكفة الأخرى معطيات الواقع والظروف... وبمتابعة حركة الرجحان بين كفتى الميزان بمجرد النظر.. وبإجراء عملية حسابية بسيطة .. أدرك مكانه ومقامه من الدنيا ومن الحياة..

فهو يتحرك طبقا لما يأمر به الواقع خطوة بخطوة ، أو هو بتوصيف آخر إختار أن يكون خادم مطيع للواقع يقف منه دائما

موقف الإستجداء والتذلل، ولا أدرى لماذا يذكرنى موقف هذا الشاب، بموقف تلك المرأة البائسة التى ظلت تصرخ بأعلى صوتها مستغيثة بالسيد المسيح عليه السلام .. ليدعو لها لكى تبرأ إبنتها من العلة التى ألّمت بها .. وهو يتجاهل نداءاتها عن عمد .. ذلك لأنه كان مأمور بالتوجه إلى خراف بيت إسرائيل الضالة لهدايتهم ولكن عندما أكثرت المرأة وألحّت فى النداء توقف ليسمعها وليقول لها " إنه ليس حسنا أن يؤخذ خبز الأبناء ليلقى به إلى الكلاب " فقالت له ما معناه ، ولكن الكلاب أيضا ياسيدى تأكل الفتات التى تتساقط من مائدة أربابها .. فقال لها السيد المسيح " عظيم إيمانك يا إمراة إذهبى فقد شفيت إبنتك " ..

فصاحبنا هذا إذا أمره الواقع بالمضى قدما مضى .. وإذا أمره بالتوقف والتمهّل وقف وتمهّل .. وإذا أمره بالإنتظار إنتظر، هو مستسلم تماما للواقع ولكنه إستسلام شيئا ما له ناحيته الإيجابية، فهو فى الحقيقة لا يملك طموح خاص ينفرد به ويدافع ويذود عنه .. فلا يذكر يوما إنه أراد شيئا بعينه أو أراد مكانا أو شخصا بصفته أو لذاته إنما هو يقبل دوما ما يفرضه عليه الواقع .. بل لا أقول ما يفرضه .. لأن الواقع لا يجد من صاحبنا هذا أدنى مقاومة تلجأه إلى إسلوب الفرض والإكراه .. بل نقول إنه يتقبل من سيده الواقع تلك الفتات التى تتساقط من مائدته .. فيلتقطها سعيدا بها راضيا عنها لا يتذمر ولا يمتعض ولايشكو ولا تطمح نفسه إلى ما هو أبعد من ذلك أو لما هو أكثر مما هو متاح فعلا بين يديه ..

لا يثور ولا تحدثه نفسه بالثورة عن أوضاعه القائمة .. فهو

راضى عنها وقانع بما يتاح له ،، كل ما يبذله من جهد هو مجرد التنظيم والإدارة لما يقع بين يديه وقد تطمح نفسه أحيانا لشىء من تلك اللذة التى يغرق فيها صاحبه يوسف حتى أذنيه ولكنه يعود فيعافها وينبذها لأنها لا تأتى إلاّ على حساب خصم جزء من الفتات التى يلتقطها من الواقع ..

فقد إقتضى تنظيمه وإدارته لحصيلته المتواضعة من الواقع ، أن تذهب وتنفق فى مصارف وبنود واتجاهات معينة ، والشىء اليسير التافه المتبقى بالكاد يكفيه لمصاريفه النثرية من إنتقالات وجلسات على المقاهى وما إلى شابه ذلك ...

فحسبه من اللذة والمتعة الوقتية ما يجده فى صحبة رفاقه هؤلاء على أمثال تلك المقاهى .. وتلك اللذة الساذجة التى يجدها فى المنافسة على حركات اللعب وتجده عادة أكثر هؤلاء الأربعة صخبا وضجيجا ومجونا إذا فاز .. وأكثرهم إمتعاضا ولوما وتأنيبا فى شريك اللعب إذا ما إنهزم.

وثالثهم رامى خرّيج المعهد العالى للخدمة الإجتماعية .. هو لم يدخل فى صراع مع الواقع وفى ذات الوقت لم يستسلم له وإنما هو فر من الواقع وجد أن سبيل الخلاص الوحيد هو الفرار والرحيل .. فالواقع فى نظره ليس قدرا مقدورا أو أمرا محتوما كما يتصوّر البعض... إنما هو فى رأيه شىء من تلك الأشياء التى من الممكن إستبدالها بغيرها أو بمقايضتها إذا أمكن بأى شىء آخر ..

وفلسفته البسيطة تقول فى هذا الإطار وتضرب لنا الأمثال فمثلا إذا كان مسكنك لا يعجبك ولا يرضيك ففى إمكانك البحث عن مسكن غيره ، وإذا كانت وظيفتك لا تلائمك ففى وسعك البحث والحصول بالسعى على وظيفة غيرها وهكذا الأمر بالنسبة للواقع إذا لم يعجبك واقعك الذى تحيا به أو لم يستطع أن يغطى إحتياجاتك ومتطلباتك ولم ترضيك أو تشبعك معطياته، ولم تتمكن من خلق الواقع الذى يرضيك ويشبعك لتحيا به وبالتأكيد لم تتمكن أو ليست لديك القدرة أو الطاقة لتغيير هذا الواقع فلا بأس إذا من إستبداله بواقع آخر وحياة أخرى ، أعلم أن الأمر ليس بهذه السهولة أو البساطة التى نتحدث بها فالواقع الذى نحياه ليس مجرد محل سكن أو وظيفة من السهل إستبدالها بغيرها ... إنما هو مجموعة ظروف وعلاقات متشابكة ومعقدة ... وطبيعة حياة وميراث تاريخى وغيره وغيره ولكن كما يقولون ليس باليد حيلة ،، وحياتى سأحياها مرة واحدة وليس لدى أدنى إستعداد لإضاعة عمرى وأنا أجمع تلك الفتات التى يلقيها لى الواقع هنا ...

وبعد فترة من الزمن أكتشف أن العمر والصحة والشباب وكل شىء ضاع، ولم يبق لى فى جعبة الواقع غير الفشل والإحباط والندم وخيبة الأمل .. حينها لن أستطيع أن ألقى باللوم على الواقع .. ولن يفيد إذا أمكن .. ولن أتقبل منه إعتذاره عمّا فعله بى .. ولا أظن أن بإمكانه تعويضى حينئذ عما أوقعه بى من خسائر موجعة .. وأتخيل

الواقع حينها يقول لى بوقاحته المعهودة وبأعلى صوته بعد أن قضى الأمر .. لا تلومونى ولوموا أنفسكم .. ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى.

كل ما أستطيع قوله وفعله الآن هو رفضى لهذا الواقع .. لن أواجهه .. ولن أضيع وقتى فى كفاح عقيم معه .. ولن أستسلم له .. كل ما هنالك إننى سأفر من وجهه بحثا عن حياة أخرى وواقع آخر وعالم مختلف.

وهكذا كان قرار صاحبنا السفر .. الهجرة .. الفرار .. ليس مجرد بحثا عن مصدر رزق أو راحة مادية فحسب وإنما بحثا عن إسلوب جديد فى المعيشة وواقع ذا قانون مختلف .. ومعنى جديد للحياة.

أما آخر هؤلاء الأربعة فهو نادر خرّيج كلية الآداب قسم التاريخ.. فهو نسيج وحده أو كما يقولون اسم على مسمى .. نادر فى اسمه وفعله ورؤيته للحياة ونمط تفكيره ...

فهو من ذوى الأحلام والطموحات .. ولا يزال عنده بقية أمل فى كل شىء على الرغم من ضغط الواقع المستمرعليه .. وأظنه صاحب النصيب الأكبر من ضغط الواقع وبطشه وجبروته وتعنيفه ذلك لأن صاحبنا نادر هذا صلب فى إعتقاده وإيمانه ويقينه ..

ومن يواجه الواقع بصلابة وتحدى .. فإن الواقع يسعى لتحطيمه

والقضاء عليه وجعله عبرة لمن يعتبر ...

فإذا ما طال أمد المقاومة والدفاع من ناحية صاحبنا هذا وأظهر من نفسه قوة فى تحمل الضربة تعقبها ضربة مثلها وأشد عُنفا ، ويستوعب اللطمة فى أثر اللطمة .. وعَجَز الواقع عن تحطيمه من أول جولة وإستمرت الجولات واحدة بعد الأخرى .. حينها يصر الواقع على أسنانه من الغيظ ويستشيط غضبا ، ويعجب من أمر ذلك الإنسان !! كيف إستطاع الصمود إلى تلك اللحظة !! وكيف لم يتمكن من إخضاعه وإذلاله !!

ويظل الإثنان فى وضع المناجزة والمواجهة حتى يقضى بينهما القدر بقضاءه، فصاحبنا هذا يؤمن بسطوة الواقع وجبروته ، وهو يحترمه كخصم قوى وعنيد، ولا ينازعه ماله ولا يرغب فى أن يثل عرشه أو يطيح بتاجه ..هو لا يريد شيء من هذا ولا أظنه يستطيع لو أراد .. ولكنه فى ذات الوقت لديه أحلام وطموحات لا يستطيع التنازل عنها، فكل ما يرغب فيه هو تطويع وترويض الواقع ليسير به فى إتجاه أحلامه أو قل إنه يسعى لتحييد الواقع ولا يريد أن يجعل منه خصم وعدو وعقبة كئود تحول بينه وبين تحقيق أحلامه ...

فهو لا يستطيع أن يفر من الواقع كما فعل رامى .. ولا يستطيع أن يستسلم له ويتحول إلى جيفة بين يديه كما فعل يوسف وليست لديه حكمة حكيم تلك التى جعلته خادم مطيع ذليل للواقع لا يستطيع أن يعصيه .. هو لا يستطيع أن يكون أحد هؤلاء، وهو لا

يريد ولا يسعى لشىء من هذا .. كل ما يريده حقا ويرغب فيه بكل صدق وشوق هو أن يجعل ما لقيصر لقيصر.. وما لله لله ..

فهو يرى أن الحياة تفرض على الأحياء ضريبة .. ألا وهى السعى فى سبيل الرزق ، وهى ضريبة مفروضة على كل حى إذا فواجب عليه أن يسعى فى الحياة من أجل سداد تلك الضريبة وذلك بأن يهيأ لنفسه مصدر رزق يحيا به ومنه حياة كريمة وبهذا يكون أدى ما لقيصروسدد الضريبة المفروضة عليه ويتبقى له بعد ذلك البقية المتبقية من رأس ماله .. أو باقى عمره .. ذلك لأننا إذا وصفنا السعى إلى الرزق بالضريبة ... فنحن فى ذات اللحظة نشبّه عمر الإنسان برأس المال الذى إستحقت بسببه تلك الضريبة .. والضريبة فى توصيفها هى التنازل عن جزء من رأس المال .. وليس عن المال كله.

فالسعى فى سبيل الرزق لا ينبغى أن يستولى على العمربأكمله وإنما جزء من العمر ، وجزء من اليوم ، وجزء من التفكير فلا يصح أن يسخّر العمر كله واليوم بأكمله والتفكير بكافة مراميه فى السعى لكسب الرزق .. وأمّا باقى رأس المال .. أو باقى العمر فينبغى أن ينفق ويوجّه إلى باقى نواحى الحياة فلا يعقل أن تكون الحياة من أولها إلى آخرها سعيا تجاه تحصيل الرزق وأسبابه.

الحياة بها الكثير الذى يستحق أن نحياه دون أن تكون له صلة مباشرة أو غير مباشرة بالرزق ومقتضياته .. وهذه فلسفة صديقنا نادر .. ويعبّر عن هذه الفلسفة حديث السيد المسيح عليه السلام

الذى ألقاه على بعض أتباعه والمؤمنين به وقال فيه ..

" أنظروا إلى طيور السماء ، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن وأبوكم السماوى يقوتها .. ألستم أنتم أحرى بالتفضيل عنها ؟؟ من منكم إذا إهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو وهى لا تتعب ولا تغزل وسليمان فى كل مجده لا يلبس كواحدة فيها، فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله ذلك اللباس .. أفليس أحرى أن يلبسكم أنتم يا قليلى الإيمان؟؟ "

وهاهم قد بدأوا فى اللعب ، فأنا أرى أمامى الآن رامى قد بدأ فى تحريك " تسييق " الكروت شروعا فى بداية العشرة الجديدة ..

وأرى أنه من الواجب قبل إسترسال اللاعبين فى لعبهم أن أحيطكم علما ببعض قواعد وأصول تلك اللعبة لمن يجهلها ..

فالدومينو تتكون من ٢٨ كارت ، تحمل تلك الكروت الأرقام من صفر ويرمز إليه بخانة بيضاء إلى الرقم ٦ ، ولها أسماء فارسية على النحو التالى .. ١ يك ، ٢ دو ، ٣ سيه ، ٤ جوهار ، ٥ بانج ، ٦ شيش، ولا أدرى ما هو السبب الذى دفعنا إلى إستعارة الأرقام الفارسية لممارسة تلك اللعبة المصرية هل هناك ياترى أسرار تاريخية لاتزال مجهولة فى علاقة المصريين بالفرس .. الله أعلم !!

وكل كارت من هذه الكروت يحمل رقمان مختلفان على النحو

التالى فمثلا ، الكارت ١ ، ٤ يك الجوهار ، أو ٥ ، ٦ بانج الشيش ، أو ٢، ٣ دو السيه

وهناك كروت تحمل أرقام متشابهة وتسمى بفة كالتالى ، فهناك الكارت ١، ١ هيبياك .. وهناك ٢ ، ٢ دوبارة ، وهناك ٣ ، ٣ دوسة وهناك الكارت ٤ ، ٤ درجى .. وهناك الكارت ٥ ، ٥ دبش ، وهناك الكارت ٦ ، ٦ الدش وهناك أيضا الكارت " أبيض ، أبيض " ويسمى " بلاطة " ..

وهم يلعبون بإسلوب المرابعة بمعنى ، أن هناك على الطاولة أربعة أشخاص كل إثنان منهم يمثلان فريق يلعب لحسابه ضد الفريق الآخر ومقياس الربح بينهم هو اللاعب الذى يسبق الآخرين ويفرغ من السبعة كروت التى تسلمها عند توزيع الكروت فى أول الدور، وبعدها تجمع الكروت المتبقية فى أيدى اللاعبين الثلاثة بما فيهم كروت زميله فى اللعب ويتم جمع النقاط التى تحتويها تلك الكروت وتحسب لصالح هذا اللاعب الفائز وزميله فى اللعب.

وهذه اللعبة تقوم معظم مهارتها من خلال السيطرة على الباب ولمزيد من التوضيح نقول إن كل رقم فى الدومينو إبتداء من الصفر وحتى ٦ مكرر سبعة مرات ، وبعد " تسييق الكروت " وتوزيعها .. ينظر كل لاعب فى ورقه والرقم المكرر بين يديه يكون هو الباب الذى من المفترض اللعب عليه ...

فمثلا لو وَجَد اللاعب بين يديه أربعة كروت تحمل رقم ١

مثلا.. فبديهى حينئذ أن الكروت الثلاثة المتبقية والتى تحمل نفس هذا الرقم موزعة بين أيدى اللاعبين الثلاثة .. وياحبذا لو إمتلك زميله فى اللعب كارت أو اثنان منهما حينها ستتم السيطرة للزميلين على خمسة أو ستة كروت من أصل سبعة فإن لم يكن فلابد أن ينتبه اللاعب الآخر لحركات شريكه فى اللعب وأن يلمح ويلتقط بدون كلام أو إشارة الباب الذى ينوى زميله اللعب عليه وأن يساعده على ذلك " بفتح لعب " وبمساعدته ليسيطر على حركة اللعب من خلال هذا الباب وإحتكار رقم بعينه طوال مدة الدور.. وهذه هى بعض مهارات لعبة الدومينو ..

تلك اللعبة التى تتركب من ٢٨ كارت تحمل الأرقام من صفر إلى ٦ .. كل رقم مكرر سبعة مرات تتحرك تلك الكروت بين أربعة أشخاص مشدودين إلى لوحة الدومينو ، وأربعين إصبع من أصابع اليد تتناوب فى تحريك وتوزيع ورص الكروت .. وثمانى أعين مثبتة ومسلطة أضوائها على حركات اللعب كالأضواء الكاشفة العملاقة التى يتم تسليطها على أرض ملعب كرة القدم .. أو هكذا يخيل لمن يراهم .. ولك أن تتخيل !!

والآن سأتوقف عن هذه الثرثرة لأنى أراهم قد قاموا بتوزيع الكروت .. وهم يشرعون فى بدء العشرة الثالثة وأظنهم سيلعبون " تطبيقة " .. والتطبيقة هى أن يكسب فريق مرة ويخسر مرة أخرى فتكون التطبيقة حينها هى الفيصل والقول الفصل بين اللاعبين ، من

فاز بها فقد فاز بالثلاث " عشرات " السابقات .. ومن خسرها فقد خسرالثلاث " عشرات " السابقات ..

" مع ملاحظة أن الفورة فى الدومينو من ٢١٠ "

اللاعبين بعد توزيع الكروت .. " نادر و رامى " فريق .. " يوسف و حكيم " فريق

حكيم وقد إنتعش وإنبسطت أساريره بعد فوزه الأخير .. بعد أن كان قد مُنى بهزيمة منكرة فى العشرة الأولى ،،،

ها ؟ تطبيقة .. أنا شايف إن من حقكوا التانية .. ولاّ إيه يا يوسف يا شريكى ياغالى .. لعّيب يا إبنى والله .. الله يبارك لك

يوسف مجاريا حكيم فى تهكمه وسخريته وشماتته المعهودة فى لحظات إنتصاره ،،، بلاش تضغط عليهم يا حكيم يمكن يكونوا محرجين ولاّ حاجة .. الضرب فى الميّت حرام

رامى وقد إستشاط غضبا من الحرب النفسية والإستفزاز المسلط عليه وعلى زميله نادر ،،، إنتوا نسيتوا العشرة الاوّلانية ولاّ إيه ؟؟ دى حتى لسّة مبَردِتش

نادر يقول مُبتسما وقد أحب أن يأخذ بعضد شريكه رامى ،،، لأ .. ما هوّ حكيم كده .. ما بيشمّش نَفسه ويهدأ إلاّ لمّا بيكسب وبعيد عنك وهو خسران بيبقى خزيان وحالته تِوجع القلب

حكيم وقد نجحت دعايته المضادة فى شحذ الهمم وتزويدها

بالحماس الكافى للعشرة الثالثة ،، خلاص ياعم نادر كلمة أبرك من عشرة .. قالوا الجمل بيطلع النخلة قالوا آدى الجمل وآدى النخلة.. نلعب والعشرة دى هى إللّى هتحكم ما بينا .. موافقين

رامى وهو ينظر إلى نادر بإستعطاف ،،، يلاّ بينا يا نادر .. والنّبى تصحى معايا شويّة لاحسن إنت بتسرح وآجى أكلّمك بلاقيك فى دنيا تانية سوّاح ،، أنا بحس إن أنا مش بناديك .. أنا بستدعيك من عالم تانى .. إيدك أبوسها كدة فى أول العشرة ما تكسفناش أدامهم وخصوصا المفترى ده إللىّ اسمه حكيم مش هيرحمنا بلسانه ده إللّى عايز قطعه ... سيبك بقى شوية من أخناتون ورمسيس الثانى وسنوسرت الثالث .... والجماعة دول إللّى إنت عايش معاهم أربعة وعشرين ساعة وخليك معايا ياغالى .. ماشى ؟؟

نادر يجيبه وهو يكتم ضِحكه ،،، معاك ياسيدى ما تخافش صاحى وعينية مفنجّلة وزى الفل .. ثم قال موجها كلامه للباقين ،،، الدُش بيجى يا شباب ...

ويبدأ اللعب وتدور الكروت دورهًا المألوفة بين اللاعبين .. وسرعان ما يغرق كلا منهم فى تأملاته الداخلية وأحاديثه الوجدانية التى لا تنتهى، وعبثا حاول كلا منهم إسكاهًا أو صم أذنيه عنها بالإستغراق فى اللعب والدعابة ، ولكن هيهات فصوهًا أعلى من صوت إرتطام الكروت باللوحة الخشبية، وضجيجها لا ينفع معه صخب الهازلين أو دعابة الماجنين.

وتدور حركات اللعب بين الأربعة فى دورة لا تنتهى إلاّ بإنتهاء العشرة .. ولكن الحديث الداخلى لا ينتهى بإنتهاء العشرة ولا أظنه يؤذن بإنتهاء فى يوم من الأيام فترى على وجوههم تعبيرات وتقلّصات أعمق فى الواقع بكثير مما يستحقه أو يسببه اللعب وحركاته فى نفوسهم ... فتجد أحدهم يعنف بزميله دون أن يستدعى اللعب وحركاته هذه العصبية الطارئة أو يمضى فى عبثه وهذيانه وسخريته دون مبرر واضح للعيان، وتبعا للحالة النفسية التى يقع صاحبنا تحت تأثيرها فى تلك اللحظات، وليس تبعا لحركات اللعب كما يُخيّل لمن يراهم فى الظاهر .. أمّا من يعرفهم مثلى من الباطن والأعماق فالأمر جد مختلف ...

توقفت حركات اللعب عند يوسف فقال موجها الحديث إلى حكيم ،،، قفلة يا حكيم .. لازماك ولاّ أفتح لِعب ؟

والقفلة هى أن يجعل اللاعب طرفى الدومينو بنفس الرقم وليكن رقم ٢ مثلا وتكون بقية ال ٧ كروت من هذا الرقم قد نزلت مسبقا على الأرض إذن فلا محل للعب أحدهم بعدها .. وتكون تلك هى قفلة الدور .. وحينها تجمع كروت كل لاعب على حدة.. ويفوز الفريق صاحب أقل النقاط وتجمع بقية النقاط لصالحه.

قال له حكيم وهو يشعرعادة ببعض التوتر عندما يجد نفسه فى

وضع إتخاذ قرار والترجيح بين عدة بدائل وإحتمالات أو عندما يجد نفسه صاحب القول الفصل فى مصير الدور وخصوصا عندما تكون تطبيقة ،،، طيّب إستنّى شويّة كده .. لغاية بس ما أشوف الدنيا فيها إيه ...

وظل حكيم ناظرا إلى لوحة الدومينو وأخذ يجمع ويحسب ليتخذ القرار المناسب هل يقفل الدور أم لا !! وكان صاحبنا يوسف فى تلك الأثناء قد غرق فى بحر تأملاته وسرحانه وهى فى الحقيقة حالة غير محببة إلى نفسه لأنه غالبا ما يخرج منها مذنب .. صفر اليدين من الحسنات .. مؤنّب الضمير ... ويجد نفسه بعد عملية حساب النفس هذه كالعادة فى خانة المدين .. وأثقل ما فى تلك الحالة على نفسه .. إنها تخرجه من لذة الإنشراح واليقظة ... ونشاط الذهن والجوارح وإنفعال اللحظة التى لا تكاد تفارق ملامح وجهه وحركات جسده إلاّ فى مثل تلك الحالة من السرحان والتوهان ولكن ما باليد حيلة ، فهى حالة لا إختيار له أو لأحد غيره فى تأجيلها أو تحديد ميعادها .. مثلها كمثل حالة النعاس تماما.

وقال لنفسه فيما قال ،،، والله الجماعة دول صعبانين عليّا .. واجعين دماغهم وقلبهم بكلام فاضى .. الوظيفة والمستقبل والإستقرار والبيت والعروسة .. و .. و .. حاجة غلب .. على إيه كل ده !! .. هو الواحد منّا هيعيش حياته كام مرّة علشان يضيّعها فى الهم ده ! حياتنا حلوة وتستاهل إن إحنا نعيشها ونستمتع بيها ..

بنات وفسح وإمبساط وجنس وهيصة هو ده الكلام ، مش تقول لى مش عارف إيه !! وضع إجتماعى ووظيفة وضحك عالدقون ...

أنا بحب كده على طول مزاجى يبقى رايق .. أمسِك الخشب .. شكلى كويّس ومظهرى دايما على سنجة عشرة مُستعد لأى طلعة أو مصلحة .. وقال زملاتى فى الشغل مسمّيني العاطفى قال إيه !! علشان شكلى حلو وبكلم البنات بحنية ، إللّى متغاظ منّى يعمل زيّى ، فترة الشباب دى أمتع فترة بيعيشها الإنسان فى حياته .. لو مش هيمبسط دلوقتى هيمبسط إمتى أمّال !!

الصحة .. الشباب .. الشكل الجميل والجسم القوى عملة معتمدة ومضمونة ولكن فى نفس الوقت لها مدة صلاحية .. تمام زى المنحنى البيانى صعود لغاية قمة المنحنى وبعدين إيه ؟ هبوط .. والهبوط بيبقى فى كل حاجة .. فى الشكل والقوة وحتى فى القدرة الجنسية .. علشان كدة أنا عايز أستغل كل إمكانياتى النهارده .. الساعة دى .. ودلوقتى حالا لو هأقدر .. علشان لمّا أكبر مش عايز أندم على حاجات كتيرة حلوة فاتتنى.

ولاّ عايزنى أعمل زى أصحابى دول !! إتفرج يا سيدى مضّيعين نفسهم فى الهم والغم .. واحد زى حكيم طلع له كرش من دلوقتى وشعر راسه كمان بدأ يقع ويشيب من الهم ، وكأنى قاعد مع واحد عنده خمسين سنة مش نص العمر ده ، وعندك نادر على طول سرحان نِفسى أعرف بيفكر فى إيه! لا ليه فى البنات ولا فى الشرب

ولا فى الخروجات والإمبساط ولا فى أى حاجة من دول، وفى نفس الوقت هو بعيد تماما عن إنه يكون قِفل أو منطوى على نفسه بالعكس ده من أحسن الشخصيات إللّى الواحد ممكن يعرفها وكمان عقله كبيرأوى بس نِفسى أعرف بيضيّع وقته فى إيه وبيسرح فى إيه !! وعندك أخونا رامى بقى عامل زى الزيبق ياعينى علشان دايما مشغول بالسفر.. يعرف إن موضوع السفر قرّب يبقى مزاجه فى السما وملعلع ، ولمّا بيحس إن الموضوع هيبوظ يقوم يبوّز ويبقى غلبان عالآخر كإنه راهن بكل فلوسه فى البورصة وخسرها.

فقاطعه حكيم " على غيرعلم بما يدور بداخل نفسه " وقال له بلهجة سريعة خاطفة ،،، إفتح

فأفاق يوسف من سرحانه وقال له مندهشا ،،، أفتح إيه !!

فرد عليه حكيم بنفس اللهجة سريعة ،،، إفتح اللّعب يا إبنى بلاش تقفل .. الكروت الحِمَل والتقايل كلّها على الأرض .. وإللّى فى إيد الكتاكيت كروت خفيفة وهيكسبونا وهيجيبونا سكّة

فرد يوسف ببرود ولا مبالاة بعد أن تذكّر إن حركات اللّعب كانت قد توقّفت عنده ،،، ماشى يا سيدى آدينا فتحنا

وعاد لتأمّلاته الوجدانية ليستكمل حديث نفسه من حيث إنقطع ،،، وقال بيعيبوا عليّا طريقة حياتى وتفكيرى ، وبيقولوا بايظ ومش نافع .. كلهم بيقولوا كدة أهلى ومعارفى . وزُمَلاتى فى الشغل ..

حتّى أصحابى دول، ولولا إنهم أصحابى بجد كنت قلت إنهم بيغيروا منّى .. ودايما بسأل نفسى ! إيه هى الحاجة إلّلى همّ بيعملوها وأنا مكسّل عنها أو الحاجة إلّلى هم بيفكّروا فيها وأنا تايه عنها ومش واخد بالى منها .. مش هو الموضوع إلّلى شاغل بالهم دايما الشغل والفلوس .. والناس كلها بتقول يا وظيفة يا وظيفة، طيّب ماهُو أنا عملت كدة وبقالى سنتين متوظف ومحدّش إشتكى منّى وبأخد مرتّبى آخر الشهر أمبسط بيه وأدلّع نفسى وآهى الدنيا ماشية وزى الفل .. لكن بقى تقول لى وظيفة علشان المستقبل والوضع والحيثية والكلام إللى يقلب المعدة ده .. أقولك آسف ما باكلش منه .. إضحكوا بيه على حد غيرى ..

أنا بصراحة بروح الشغل الصُبح أشوف مزاجى قبل أى حاجة تانية ... أدّلع شوية مع دى ... وأتمَرقع برضه مع التانية مايضّرش... وأهزر شوية مع أصحابى علشان اليوم يعدّى .. أنا أصلى بحب كده أخلّى يومى كله إمبساط وفرفشة يلعن أبو الهم .. وبحاول أفهم الشغل ماشى إزّاى علشان بس أفضل محافظ عليه وما أتحرمش منه، مّش الشغل طبعا إنما أقصد مرتب آخر الشهر ، ياسلام لو كل أيام الشغل تكون آخر الشهر الواحد يُروح يقبض ويروّح من سكات تبقى الحياة ملبن بالمكسرات ..

الفلوس تيجى من هنا أجيب مخزون الشهر من الحشيش جملة أو قطاعى، وباقى المرتب يكفّى الهدوم وخروجات البنات ، وأهو

المرتب لو جه قبل نهاية الشهر وخستع معايا شوية .. أهو بقى البَركة فى البنات أنا هصرف عليهم كمان ولاّ إيه ! دى تطلبنى أقولّها أصل الفلو.. مكملش الكلمة ألاقيها بتقولّى أنا عازماك والتانية تسألنى أقول لها منين ! ما ألحقش أخلّص الجملة ألاقيها بتقولى عيب عليك وهو أنا روحت فين وأخرج معاها على حسابها وفى عربيتها والحياة ماشية زى الفل ، ولو زنّقت أوى بقى لا فلوس ولا بنات أهو بَكن مع العيال هنا فى القهوة بكلام فاضى مش مشكلة المهم الحشيش يفضل ماسك نفسه لغاية آخر الشهر وما يخستعش لا حسن تبقى مشكلة بجد.

حياتنا كدة .. بنات حلوين معاهم فلوس .. ودبُّوس حشيش متعلّق وعمّال يترف دخان أزرق .. وصُحبة حِلوة .. ونُكتة أحلى بالذمّة فى أحسن مِن كدة !!

لكن إن جيتوا للحق .. ساعات أنا كمان بشتاق للحاجات إللّى أنا نَفسى بقول عليها حاجات عبيطة .. بيبقى نِفسى أستقر بقى وأركز وأهمَد .. أمنية حياتى ألاقى واحدة تحبّنى بجد وأنا كمان نفسى أحب بجد من غير ماتكون دماغى فى الحاجات إيّاها ، نِفسى يبقى عندى زوجة وأولاد أنا ما بقتش صغيّر أنا عندى تسعة وعشرين سنة ولسّة ماعملتش أى حاجة فى حياتى لها قيمة ..

عايز أبقى كويّس وأشتغل بضمير ويبقى عندى طموح وأمل .. وساعات بِتصعب عليّا نَفسى .. بلاقى عندى مظهر كويّس ولسان

حلو ودماغ شغّالة لكن ياخسارة إمكانيات عطلانة أو زى ما علمونا فى الإقتصاد موارد مُهملة لكن برضه أرجع وأقول منين ؟ أنا إللّى يشوفنى وأنا كدة لابس ومتقمّع وبتنطط وبصرف يفتكر ياما هنا ياما هناك .. ما يعرفش إن أنا مش شايل على جنب ولا جنيه واحد يوحّد ربّنا ، وما يعرفش إن أكتر الخروجات والفسح دى على حساب البنات حتى الهدوم أغلبها هدايا منهم ... أنا مالى هم إللّى عايزين كده ... أنا كل إللّى بعمله إن أنا بحب أصاحب البنات المِرتاحة إللّى معاها فلوس ويُفضّل لو معاها عربيّة كمان .. وهمّ بقى عليهم الباقى ، أتفسح مع دى شويّة وأتنطط مع دى شويّة ، والبنت دى نِفسها إن أنا أروح لها البيت .. وماله !! مفيش مانع .. واجب برضه إن أنا أعمِلّها زيارة .. قليلة الأدب وأنا إللّى كنت فاكر إن أخلاقها كويّسة .. وآهى ماشية

قاطعه حكيم مرة أخرى " دون علم بما يدور داخل نفسه " قائلا له بحدة ،،، دورك يا يوسف إنت اللّعب بيجى عندك وينام

فقال له يوسف مداعبا وهو يحاول عبثا الخروج من حالة السرحان والتأمل ،، معلّش يا حكيم أصله كان سهران إمبارح طول الليل ...

ثم عاد إلى حديثه الداخلى ،، لكن بقى تقول لى بيت وجواز ومسئولية .. منين ده كله ؟؟ الكام ملطوش إللّى أنا بقبضهم من الشغل ها أعمل بيهم إيه ؟؟ شقة ولاّ عفش ولاّ فرح ولاّ شبكة ولاّ

ولاّ ولاّ ... مُتشكر .. بناقص .. هى كدة حلوة أوى .. ياريت بس تفضل ماشية كدة وبلاش عكوسات ..

لكن .. فى أوقات كتيرة بحس إن فى حاجة منغّصة علىّ حياتى ، حاجة بخاف منها وبقلق ، عارف كمان إن ربّنا سُبحانه وتعالى مش راضى عنى ، إللّى مخوّفنى بجد إن حتى الراحة والمتعة إللّى بحس بيها وأنا بعمل الحاجات دى مش دايمة ..

ولو ده حصل هلاقى نفسى لوحدى .. أنا خايف بجد

قاطعه نادر قائلا ،،، دورك يا يوسف .. ثم قال له لِما رأى من تغير ملحوظ فى تعبيرات وجهه ،،، مالك يا يوسف !! إنت متضّايق مِن حاجة ؟

فأفاق يوسف من سرحانه ونظر إلى الكروت بين يديه وحاول رسم إبتسامة مُصطنعة قبل أن يجيب نادر قائلا .. لأ .. أبدا يا نادر مفيش مِضايقة ولا حاجة .. ثم قال موجّها كلامه لحكيم ،،، هو إنت يا حكيم ضربت على الجوهار .. صح ؟

فرد حكيم عليه وهو يصرعلى أسنانه من الغيظ ،،، ما هو إنت لو مِتابع الدور من أوّله مّش هَتسأل .. بس إنت كده تيجى فى اللحظات الحاسمة وتتوه .. منّك لله

فقال له يوسف مقاطعا ،،، مش تايه ولا حاجة أنا بس بَطمّن .. خد يا سيدى الدوبارة أهيه .. هدية منى ليك .. تنفعك صح ؟

فقال له حكيم متهكما ،،، ده إللّى انت فالح فيه لّما تتوه وتغلاب تريّح بفة .. الله يريّح بالك يا سيدى .. إنت يا إبنى متلعبش دومينو إنت المفروض تلعب السلم والتعبان أو بلى مسافات طويلة .. يلعن أبو إللّى علمّهالك

فقال له يوسف مداعبا وقد بدا عليه إنه قد أفاق قليلا من تأملاته.. وعاد سريعا إلى حالته المعتادة المألوفة ،،، على فكرة يا حكيم إنت إللّى معلّمنى الدومينو

فرد عليه حكيم مندهشا بلهجة مستنكرة ،،، ده إمتى بقى إن شاء الله !!

فقال له يوسف هامسا وبلهجة تمثيلية ساخرة ،،، إنت مش فاكر لّما أخدتنى البيت عندك وقفلت الباب بالمفتاح .. ولّما لقيتنى خايف وبرتجف قلت لى ماتخافش يا واد يا يوسف أنا بس هعلّمك الدومينو؟؟

فقال له حكيم وقد فطن لما يرمى إليه يوسف من السخرية والمزاح ،،، دمك زى السكر يا جو ربنا يخليك لمامتك يا حبيبى .. وغرق كلا من الثلاثة فى الضحك .. أما أخونا حكيم فقد غرق فى حديثه الداخلى على غير علم من الحاضرين والمحيطين به.

آه .. الحمد لله على كل حال ،، بس يارب تفضل ماشية كدة،، وربنا يبعد عنا العكوسات والمفاجآت ،، لا حسن هىّ مش

مستحملة ،، أنا عمّال أجيبها كدة وأجيلها كدة بس على رأى إللّى يقول هى كدة، عَمّال ألبّس طاقية ده لده علشان بس تمشى .. إمتى بقى الواحد هيتقفل عليه باب شقته هو وجماعته ويبدأ بقى الإمبساط والدلع كله ؟؟ أنا حرمت نفسى من حاجات كتيرة علشان خاطر اليوم ده ... ولازم أعمل كده .. الواحد وراه هم تقيل ومش منتظر حاجة من هنا ولامن هنا، أبويا جاهالى على بلاطة قال لى شوف يا إبنى إنت عندك إخوات بنات لسّة وراهم هم ما يتلم مش هقولك ساعدنى ربنا يقوينى عليهم أنا بس هقول لك ساعد نفسك وربنا يقوّيك على إللّى وراك، يا سلام ياحاج الله ينوّرعليك ، أنا مش بلومه، أنا بس متغاظ منه رغم إنى عارف إن مفيش فى إيديه حاجة يعنى من الآخر لو عايز أتجوّز،وطبعا أنا هموت وأعمل ده يبقى لازم أوفّر كل قرش ومليم ، والحمد لله أنا برضه أحسن من غيرى كفاية إن أهل خطيبتى وافقوا عليّا وعندهم إستعداد يستنّوا شوية لحد ما أقف على رجلى ...

شوطة وصابت الشباب بعيد عن السامعين .. كلهم رُكبهم تعبانة ومفيش شاب عارف يقف على حيله ...

ما هو لازم يعرفوا حال الشباب اليومين دول وإللّى همّ فيه...

وكمان أنا هعمل إيه أكتر من إللّى أنا بأعمله !! الصُبح فى المحكمة من قاعة لقاعة ومن مكتب لمكتب ده أحوال شخصية وده جنحة وده مخالفات وأشغال طريق ومحكمة الأسرة وجنايات

وإستئناف ... أستحمل رذالة الموظفين وعوجان الأساتذة الكبار .. ويجى كدة وكيل النيابة وهو رايح مكتبه شاب صغيّر ما تعرفش بقى فى المنصب ده إزاى !! .. هو مش من البلد دى ولاّ إيه !! وتلاقى حواليه هالة وهيلمان .. إتفضّل ياباشا .. نوّرت ياباشا .. شرّفت ياباشا حاجة تفلق .. وأخلّص المحكمة من هنا وأروّح البيت أخطف لقمة سريعة وأجرى عالمكتب إللّى بتدّرب فيه، وبين ده وده أخطف ساعة ولاّ إتنين علشان أقف فى الدكان شويّة مع أبويا.. أعمل إيه بس !! وكل ده وفى الآخر إللّى بيطلع كلام فاضى وإللّى بيسند الحكاية شويّة الشُغل إلّلى بأخده من المكتب من تحت لتحت .. ألاقى فى دى خمسين جنيه وألاقى فى دى ميّة وآهى ماشية .. أهل خطيبتى شافولى بيت جماعة قرايبهم هيخلّونى أبنى فوقيهم شقة .. ستر ورضا .. على الله بس الحكاية تمشى وتتيسّر ومتقفلش معايا

فقاطعه يوسف " دون علم بما يدور داخل نفسه " قائلا ،،، قفلة يا حكيم

فقال له حكيم مذعورا ،،، قفلة إيه يا أخى فال الله ولا فالك

فقال له يوسف مندهشا ،،، ياسيدنا قفلة .. ماتبص على الأرض وشوف الورق .. أصل أنا بلعب مع واحد واقع

فقال له حكيم وقد أفاق إلى نفسه وإنتبه إلى حركات اللعب ،،، لأ بلاش تقفل ياسيدى خلّيها مفتوحة الله يرضى عنك

فقال له يوسف محذرا ،،، إنت متأكد ولا هتخلّينا نِلبس إسود فى الآخر

فقال له حكيم مطمئنا إيّاه ،،، إفتح بس يا يوسف وأنا هَمسِك لِعب

فتدخل رامى غاضبا ،،، إيه يا إخوانا شُغل الكتّاب ده .. طيب ما تقوله كمان يلعب إيه بالظبط .. ماهوّ ده إللّى ناقص

فقال له يوسف مهدئا ،،، خلاص ياعم رامى أنا كدة ولا كدة كنت هفتح اللعب مِن نَفسى .. خد ياعم حكيم تحب إنت تمسك فى باب وتبّت فيه .. على الله بس تفلح

فرد عليه حكيم بلهجة لا تخلو من معنى ،،، ياسيدنا سيبنا نتبّت فى الباب .. أهو على رأى المثل " قرد مسلّينى ولا غزال شارد ".

وغرق حكيم مرة أخرى فى حديثه الداخلى وتحدث إلى نفسه قائلا ،،، عايز بقى أرتب حالى علشان الأمور تمشى لا حسن الموضوع عايز فلوس قد كده وربنا هو المعين .. أدخل فى جمعية بالمرتب كله .. وإللّى آخده فى الآخر أبدأ أبنى بيه .. وبعد كده بقى ربنا يسهّل فى التشطيب.. آدينى أهه شغّال بإيدى وسِنانى ربنا يعلم .. آخرة الغلب ده إيه بس ؟؟ عايزين نتجوز بقى .. عايزين نطفّى النار إللّى جوّانا .. عايزين نِنام فى الحلال ومش عايزين نعمل حاجة غلط .. إمتى بقى إمتى ؟؟

وربنا يستر الواحد منّنا متهيأ له إن الجواز هو نهاية التعب والشقا ميعرفش إن هو بيطوى صفحة تعب علشان يفتح صفحة شقاء تانية ، بس هنعمل إيه ؟ هى دى سنة الحياة زى ما بيقولوا ، بس يارب تفضل كدة ماشية وما تعكسناش لا حسن هى مش مستحملة ..

قال له يوسف بلهجة لا تخلو من العنف ،،، إنت بتعايب على اللعب إللّى بييجى عندى وينام .. وآديك بقالك ساعة علشان تلعب ومش عايز تخلّصنا

فقال له حكيم الذى أفاق شيئا ما من سرحانه ،، أنا بفكّر يامولانا .. إنت فاكرنى زيّك برص طوب وخلاص نِفسى أعرف بس حمار مين إللّى علمهالك ؟؟

فقال له يوسف بلهجة سريعة خاطفة ،،، ما هو أنا قلت لك يا حكيم إن إنت إللّى علمتهالى مُش فاكر يوم ما جيبتنى البيت عندك...

فقاطعه حكيم قائلا وهو يكتم ضحكه ،،، خلاص ياسيدنا إفتكرت .. حتى بأمارة ما كنت بترتجف .. وأنا طمّنتك وقلت لك ما تخافش أنا هعلمك الدومينو .. خلاص .. أعوذ بالله من ظرفك ولطفك ، ثم قال موجها كلامه لبقية اللاعبين ،، كلها تتفرج بقى علشان العبد لله مسيطر وكاسر عينكوا .. ها ؟ حد معاه لعب ؟ كلّها بتجيب رومّان ، سجّل ياتاريخ ، إدعي لى ياواد يا يوسف هترفع راسك بسيبى النهاردة .. أنا هخلّيهم يحرّموا يلعبوا دومينو

ومن يوم ورايح يلعبوا سيجة صعايدة .. هات البفة إللّى معاك يا واد يا رامى قبل ما تموت إسمع منى أنا عايز مصلحتك .. نداء أخير

فقال له رامى وهو يكتم غيظه بصعوبة ،،، حقك ياعم ماهو إللّى أنا بلعب معاه نايم فى سابع نومة .. خد ياعم حكيم البفة آهى أصل إنت حلو ومفتح زى الجندوفلى .. عاجبك كدة ياسى نادر.. أهو حكيم إبن إمبارح فى اللعب خليته يتنطط علينا .. مبسوط؟؟

فقال له نادر مدافعا عن نفسه ،، والله إنت مفترى .. أنا عامل حاوى و أراجوز فى الدور علشان يمشى بس هو الورق إللّى زى النيلة .. أعمل له إيه ؟؟

و لم يعلق رامى على دفاع نادر ولعله لم يسمعه من الأساس لأنه كان قد غرق هو الآخر فى تفكيره الزئبقى العجيب .. فسرعان ما يغرق فيه .. ولكن يظل ذهنه متقّد ومتنبّه ومتّيقظ مع من حوله فلا تستطيع أن تضبطه متلبّسا فى حالة سرحان واحدة .. وقال لنفسه فيما قال ..

خلاص .. كفاية .. لحد كدة تمام ورضا أوى .. ماعنديش إستعداد أضيّع يوم واحد فى البلد دى .. كدة زى الفل .. الحمد لله الرّاجل صاحب أبويا رد علىّ أخيرا وقال لى إن عقد العمل جاهز .. وقال بيقول لى أدّامَك شهر علشان تجهّز ورقك .. هو أصله ما يعرفش إن ورقى جاهز من زمان يمكن من قبل ما أخلّص الكلية .. السفر ده حلمى من مدة طويلة ياريت لّما سافرت لعمى فى إيطاليا

لمّا بعت لى دعوة مادة إسبوعين كنت كمّلت هِناك .. إيه يعنى إللّى كان ها يحصل لو كنت عملت كده ؟؟ وضعى ماكانش هيبقى قانونى ؟؟ إيه المشكلة !! شوية بهدلة وشقاوة وعفرتة وبعدين هبقى كويّس كانت الكلية هتروح عليّا ؟؟ بركة يا جامع .. مع ألف سلامة خدنا إيه مِن الكلية يعنى ؟؟

أنا مِتخرّج بقالى تلات سنين .. نفسى فى مكان واحد أشتغل فيه وأحس إن السنين إللّى ضاعت فى الكلية كانت ليها قيمة أو إنى إستفدت منها بحاجة ... عليه العوض كل الحكاية إن إسمى مؤهل عالى يافرحتى كسبنا إيه بقى إن شاء الله ، كلام فارغ .. أربع سنين بحالهم مذاكرة وشقاء وغلب وفى الآخر يضحكوا علينا بورقة ملونة عليها صورتنا ويقولوا لنا مبروك بقيت مؤهل عالى ، ونحس ساعتها إن إحنا جيبنا الديب من ديله أو كأنّنا فتحنا عكا .. مؤهلات عليا بقى ، ونروح ندوّر على شغل ماكانش يتعز، إزّاى يا إخوانا دهّ إحنا مؤهلات عليا ! ألاقى صف طويل عريض من الشباب إللّى زى الورد معاهم مؤهل عالى بيشحتوا بيه .. ياخسارة و يا ألف خسارة ...

والبنت إللّى أنا بحبها عايزانى أروح أتقدم لأهلها دلوقتى .. إزاى !! علشان أهلها يبصّولى من فوق لتحت ويسألونى .. وإنت معاك إيه بقى النبى حارسك وصاينك علشان تخطب بيه ؟ والله لو قلت لهم معايا مؤهل عالى ليشيلونى هيلا بيلا ويرمونى من الشباك .. لأ

أنا مش عايز أتبهدل أكتر من كدة .. كفاية أوى لحد كدة .. أنا عايز أسافر .. كنت دايما بسمع جملة وبرددها لكن مفهمتهاش بجد إلاّ دلوقتى إللّى بيسافر بيقول إللّى هعمله هنا فى خمس سنين وأكتر هعمله هناك فى سنة واحدة .. عنده حق المسألة أصلها مش كيميا والحساب سهل، أنا عندى بنود عايز أحققها واحد وإتنين وتلاتة الحاجات دى ترجمتها ماديا المبلغ الفلانى ، المبلغ ده هييجى بالنظام إللّى إحنا ماشيين بيه هنا فى عشر سنين .. لكن هناك ييجى فى سنتين تلاتة على أقصى تقدير ... ده إسمه توفير حياة وتوفير عمر، وكمان الواحد يشوف دنيا تانية وواقع مختلف وقوانين جديدة ،، أشتغل بضمير وأكسب كويس وأتفسّح وأمبسط وأشوف الدنيا ناس .. علاقات .. مستقبل .. حركة .. حياة كاملة .. وكفاية غلب هِنا بقى ...

أنا مش مُغرم بالسفر والغربة كده من غير سبب .. لكن أعمل إيه ؟؟ كان فى زمان مثل بيقول " يا رايح الشام لأجل الغِنى رب هناك .. رب هِنا " وأنا عارف ومؤمن بأن رب هناك هو رب هَنا... وعارف برضه ومتأكد من إنه سبحانه وتعالى عالم ومطلع على إللّى بيحصل هنا ... أنا هنا فى بلدى بتذل وبتسحل وحاسس إنى غريب عنها .. إحنا هنا بندوب وبنتفتت وبتنتهى صلاحيتنا وبنموت من غير ما حد يحس بينا وبعد كده مش عايزنى أسافر وأهج !! أنا مش رايح الشام لأجل الغِنى وبس .. أنا رايح هِناك

علشان أحس إنى بنى آدم من حقه إنه يعيش ويستمتع ويشعر بكيانه ووجوده ويرفع راسه ...

بس أنا خايف أسافر برّة أتبهدل برضه .. أنا سِمعت عن ناس سافروا ورجعوا من غير مايحققوا أى حاجة .. لانجاح ولا فلوس .. ولا أى حلم من إللّى كانوا بيحلموا بيه .. يا نهار إسود .. هو ده ممكن يحصل!! إفرض إن ده حصل هتبقى بهدلة هناك وبهدلة هنا ؟؟

بس معلش .. أستحمل هناك شوية .. وبعدين هبقى كويّس وبعدين بهدلة هناك ولا بهدلة هنا .. هناك هتبهدل بفلوس لكن هنا البهدلة حاف من غير فلوس وبعدين بهدلة هناك ماحدّش يعرف عنها حاجة .. ماحدّش هناك يعرفنى .. وماحدّش يهمّنى وعلى رأى المثل إللّى يقولّك البلد إللّى ماحدّش يعرفك فيها .. إمشى .. ماعلينا بقى ..

كفاية إن أنا لّما هارجع هنا سواء فى زيارة أو فى إقامة نهائية هبقى باشا وبيه .. شقة وعربية ومشروع كويس وفلوس فى البنك.. وكدة تبقى هَنا .. مش دى حاجة مهمّة برضه .. وتستاهل التعب.. مش هُم الناس أهم حاجة عندها المظاهر والفلوس .. أهو أنا بقى هموّت نفسى هناك علشان خاطر أحقق ده بس المصيبة لو ده ماحصلش وإن أنا فشلت هناك كمان هيبقى العمل إيه !!

أنا خارج من هنا وأنا يائس تماما .. ومَعنديش أى أمل إن أنا أبقى حاجة هنا فى البلد دى .. لا وظيفة ولا غير وظيفة .. وكل

أملى وإعتمادى وأحلامى وطموحاتى متعلقة بموضوع السفر .. لكن لو ده ماحصلش هعمل إيه بس ؟؟

أنا كده هبقى ضعت .. ربنا يستر

قاطعه نادر " دون علم بما يدور داخل نفسه " قائلا ،،، دورك يارامى .. إلعب

فقال له رامى مستفسرا وقد أفاق لنفسه من تأملاته فى سرعة عجيبة وكأنه لم يَغب عن رفاقه ولو لغمضة عين ،،، إحنا كام كدة يا نادر ؟

فأجابه نادر قائلا ،،، لغاية دلوقتى كسبانين .. إحنا ١٥٠ وهمّا ١٢٥.. عارف لو تركز معايا الدورين إللّى جايين دول .. هنفوّرها بعون الله

فقال له رامى متحمّسا ،،، ماشى .. يا الله بينا

قال نادر هذا ليشجّع رامى على الإنتباه والتركيز فى اللعب .. وإنما فى الحقيقة كان يقولها ليشجّع نفسه هو وليعصمها غائلة الشتات والسرحان .. ولكن لا مفر ، فسرعان ما غاص هو الآخر فى تأملاته الداخلية .. وكان هو أكثر هؤلاء الأربعة ميلا إلى حالة التأمل والسرحان وأسرعهم تلبية لندائها وإستجابة لدعائها وإرتماءا بين أحضانها ، حتى وكأنها هى حالته الطبيعية فى حين تكون حالة اليقظة والإنتباه هى حالة الإستثناء ...

وتحدث إلى نفسه قائلا ،،، لحد إمتى هيفضل الوضع ده ؟؟ لحد إمتى هفضل فى عنق الزجاجة كده ؟؟ .. لغاية إمتى هيفضل الفشل ملاحقنى كدة فى كل خطوة فى حياتى ومنين ما أروح ؟؟ أنا تعبت بجد ،، وحاسس بالملل والقرف واليأس من كل حاجة .. إيه يعنى إلّلى أنا عايز أعمله ومع ذلك عاجز عن الوصول ليه ؟؟ أنا حاسس إن الحياة أكبر بكتير من الموجود بين إيدينا .. حاسس إن الدنيا عبارة عن دايرة كبيرة قوى من حوالينا ومع ذلك أنا منكمش بجسمى وعقلى وتفكيرى فى نقطة صغيّرة أوى من الدايرة دى، مش ممكن تكون الحياة كلها جرى وسعى علشان خاطر الفلوس، مش ممكن تكون هى دى الحقيقة .. يمكن ده يكون جزء من الحقيقة لكن مش الحقيقة كلها ..

أنا مثلا عايز أرضى الواقع وأبذل أقصى ما عندى علشان أحجز لنفسى أفضل مكان ممكن فى الحياة وفى الدنيا إلّلى أنا عايشها .. لكن وفى نفس الوقت عايز أرضى أحلامى وآمالى إلّلى هى فى أغلب الأحيان مفارقة للواقع من حيث المبدأ والأساس والمنطلق ... عايز الواقع يأخد حقه على داير مليم .. أشتغل.. أتحرك .. أتعب.. وأشغل حيّز من تفكيرى للغرض ده ، لكن باقى حياتى بقى أنا حر فيها أصرّفها زى ما أنا عايز .. وتفكيرى لا يمكن ينحصر فى الإطار ده وبس ..

الإنسان ضرورى يسخّر حياته لهدف كبير وعظيم .. ومن

الممكن فى لحظة معينة الحياة تواجهك بسؤال بسيط أوى ومعقّد أوى فى نفس الوقت وتقول لك إيه هو غرضك وهدفك النهائى من حياتك؟؟ أظن إنه من العار عليك إنك تقول إن غرضك الأساسى وهدفك النهائى ومسعاك الأسمى طول الوقت إنك تشتغل .. و تشتغل .. و تشتغل .. وتجيب فلوس .. وفلوس .. وفلوس .. ده شيء مستحيل .. ده يبقى إسمه عبث وجنون مفيش جدال ...

أنا مثلا عندى هدف نبيل وسامى فى حياتى ، وما أقدرش أقول أبدا إن له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بطلب الرزق من قريب أو من بعيد .. وهدفى هو بمنتهى البساطة "طلب العلم ".. بشعر بمتعة عظيمة وأنا بدرس وببحث وبفكر وبتأمل .. وبحس إن حياتى لها قيمة ومعنى .. فأنا مثلا ناوى إن أنا أكمّل دراسة فى كلية الآداب سواء ده إنتهى بيّ إن أنا أتعيّن فى الكلية أو لأ .. فأنا كل غرضى هو طلب العلم لذاته من غير ما يكون لى غرض فى منصب أو أو وجاهة أو مصدر رزق ...

لكن الكلام ده أنا بهمس بيه لنفسى .. ومعنديش الجرأة علشان أقوله لحد .. تخيّلوا معايا لو قلت لأصحابى وزملاتى والناس من حواليّة .. إن أنا فى ظل الظروف دى إللّى إحنا فيها أنا بسعى لطلب العلم لذاته من غير أى غرض تانى لا فلوس ولا شغل ولا حتى وجاهة تخيّلوا معايا أصحابى دول إللّى كل واحد منهم غرقان فى همه لغاية عينيه .. لوسمعوا منى الكلام ده ؟؟

أظنّهم أقل ما فيها .. هيصلبونى فى ركن من أركان القهوة .. ويرجمونى بكروت الدومينو لغاية ما أشبع .. ومع ذلك لو أنا قلت لهم مثلاً إن أنا بعمل ده علشان خاطر الفلوس أو الشغل أو الوضع الاجتماعى ، هلاقيهم كلهم بلا إستثناء بيحيّونى وبيهتفوا بحياتى ونباهتى وذكائى .. يالها من سخرية !! مين ممكن يصدق ده !!

ومع ذلك أنا نفسى غير مطمئن لطريقى ده .. مش ضعف إيمان بحلمى أو هدفى فى طلب العلم .. ولكن أنا خايف من الندم .. خايف من الفشل .. خايف من فوات الفرص .. أنا فى أمس الحاجة للثقة .. عايز سند من الواقع ومن الحياة يشجعّنى ويساعدنى ويدعّمنى ويقوّينى وأحس بيه كأنه بيقول لى ...

" إنت صح .. كمّل طريقك .. مش هتندم أبدا على تفكيرك ده.. إوعى تلتفت لهم أو تعطلك نظراتهم .. عمرك ماهتندم أبدا على إختيارك ده .. هتنجح .. وهتجمع أكبر قدر من السعادة فى الدنيا " .

نِفسى الواقع يقول لى كده ولو حتى مجرد إشارة أو تلميح ، أنا تعبت من المغامرة والمجازفة من غير أدنى دليل من الواقع أنا مش عايز من الواقع أكتر من نصيب يضمن لى حياة كريمة أنا والمحيطين بى من أهلى وأسرتى وكل حد يخصّنى مش عايز أكتر من كده .. ومش عايز من الشغل إلا القدر إللّى يحقق لى ده .. سمّوه كسل أو قلة طموح أو خمول زىّ ما تحبّوا .. بس سيبونى أعيش حياتى زى ما

أنا متخيّلها ..

قاطعه رامى " دون علم بما يدور داخل نفسه " قائلا ،،، خلاص يا برنس قرّبنا نخلّص عليهم

فقال له نادر وهو يحاول الطفو على السطح بعد هذا الغوص المستمر المتواصل فى أعماق نفسه ،،، هو إحنا بقينا كام يا رامى ؟

فقال له رامى مفتخرا متباهيا بإكليل النصر فوق رأسه ،،،إحنا بقينا ٢٠٠ يا سيدنا .. وده إن شاء آخر دور فى العشرة دى .. وإن شاء الله هتفور لصالحنا .. إيه !! مش سامع صوتك يعنى يا حكيم

فقال له حكيم متشبثا ببقايا رجاء واهى ومتهافت على أمل أى مفاجاة أو طفرة تحدث فى حركات اللعب فتقلب موازين القوة والسيطرة ،،، يا سيدى خلّى الفقير ياكل .. وبعدين لمّا تكسبها تبقى تتكلم .. وعلى رأى المثل " الخيل التعبانة بتجرى فى الأوّل "

فقال له يوسف بلهجة تهكمية يائسة ،،، أوّل إيه الله يخرب بيتك.. دول فاضل لهم ١٠ بونت ويفوّروها

فرد عليه حكيم فائرا ثائرا ،،، ماهو أنا أصلى لو كنت بلعب مع واحد بيفهم ماكانش ده بقى حالى

وتتابعت حركات اللعب .. وبدا منها إن الموقف فى صالح فريق نادر و رامى .. ويبدو أن نادر قرأ ببديهته حركات اللعب .. وأدرك ما هو المطلوب منه تماما لتنفيذه ... ورسم الخطة فأتقنها ..

ووعى بشكل مجمل مفردات الدور والتفاصيل الهامة التى ينبغى الإلمام بها لإحراز النجاح ... وأدخل فى حسابه المساعدة التى وافته فى حينها من قبل رامى وظل محتفظ بكارت معين توسّم فيه القول الفصل فى مصير الدور ومصير العشرة بأكملها .. وحمى وطيس اللعب .. وتوترت الحركات وتتابعت فى سرعة وحيوية .. وكف الجميع عن الدعابة والحديث الداخلى والخارجى على السواء ...

وتوقف اللعب مرة أخرى عند نادر .. فقال موجها كلامه لبقية اللاعبين .. بعد أن أيقن بسيطرته المطلقة على حركات اللعب وفوزه الساحق على الجميع ،،، كلها بقى كده تتفرج معايا الله يبارك لكم ... والله إحنا بنلعب علشان المتعة وبس مش غرضنا أى حاجة غيرها ... والله يا واد يا رامى إنت مُرزق ومُبخت إنك لعبت معايا ، واد يا حكيم إنت و يوسف تقعدوا فى البيت بعد كده تلعبوا ليدو وبنك الحظ زمن الدومينو إنطوى بالنسبة لكم ، شوفوا يا إخوانا آدى الدبش .. وآدى الخمسة وأربعين " جوهار ، البانج " .. وآدى القفلة رايحة جاية .. وآدى البلاطة فى إيدى أهيه .. ها ؟؟ حد له شوق فى حاجة ؟؟ ..

العشرة فارت يا شباب

على الهامش

واضح طبعا من فكرة هذه القصة ، وطبيعة الأحاديث والحوارات الدائرة بين أبطالها وأشخاصها سواء كان حديث مستتر أو مكشوف ، إنها قد كتبت قبل أحداث ٢٥ يناير .. وكل ما أرجوه وأتمناه أن يكون حظ الجيل القادم والأجيال التى ستعقبه خير من حظ هذا الجيل التعس الذى نسجت من آلامه وأحزانه هذه القصة الساخرة الحزينة التى تقطر دما ودموعا ووالله لا أدرى هل بإمكان هؤلاء الرفاق اللحاق بالعصر الجديد متزودين بأمل جديد وثقة مستمدة من طبيعة الأحداث التى وقعت بأيديهم وبين أعينهم ، أم إنهم فقدوا كل أمل وكل ثقة ،، وسيلحقون بالأجيال المظلومة التى عادة ما تطوى فى غاشية المراحل الإنتقالية فى تاريخ الدول والشعوب .. لا أدرى !!

الفهـــرس